مُتلازمة بروين

(رواية)

حيدر عصام

دار إي-كتب

لندن، أيار – مايو 2018

Bruin Syndrome
By: **Hayder Isam**
All Rights Reserved to the author ©
Published by E-Kutub Ltd
Distribution: Amazon, Kindle, Google Books, Play Store & e-kutub.com
ISBN: 978-1-78058-366-2
First Edition
London, May. 2018
** * **

الطبعة الأولى،
لندن، أيار – مايو 2018
متلازمة بروين
المؤلف: **حيدر عصام**
الناشر: E-kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024
© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر **(إي- كتب)** أو غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:
ekutub.info@gmail.com
يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:
Hayder_Isam@hotmail.com

"أنا اكتب ضد القارئ وضد نفسي ايضاً، لأنني لا اظن اننا بحاجة الى لكتابةٍ تُمسد على جراحنا بقدرِ ما نحن بحاجة الى كتابةٍ تُزلزل هذا الموات الذي نَعيشه".

إبراهيم نصر الله

المُقدمة

ضجرَ من ضجيج الاراء بين الأرض والسماء، تكورت ملامح وجهه فصرخ بأعاصيرٍ من الرمال مُطالباً بحياةٍ أخرى، أستجدى المزيد من المغفرة، مُذنبٌ لأنهُ بحثَ عن الحُرية في أشد الأماكن استحالة، مُذنبٌ لأنهُ تلاعبَ بالقداسة، ابرَزَ أصبع الشك من بين أصابع يدهِ وتتبعَ سطور في ألواحٍ سماوية، دَس الظن الخاطئ باليأس وخبأه، مزجَ الإحباط بالندم في قارورة حبرٍ صغيرة، جاء بريشة وأستعدَ للكتابة، كتبَ كلمات محشوةً بالوجع، عبارات تتسبب بأحلامٍ مُرعبة، توقف قليلاً ثُم رفع رأسهُ بأتجاه السماء، مضغ أيام حياته بأكملها ثُم انحنى ليواصل الكتابة، بحثَ عن الحقيقة في كتابٍ مُقدس، تفاقمت ذنوبه فانسكبت قارورة الحبر على اوراقه، غمغم وهو يخرج باحثاً عن حبرٍ بديل، وجد نفسهُ في مدينة مهجورة لا تصلحُ للعيش، شكَ في وجوده، كيف لهُ أن يكون حي؟ سار بين رُكام العدم، تسكعَ في أزقة القدر وتلاعب بمشيئته، تجول باحثاً عن وجه يعرفه، صرخ عالياً وهو يرى وجوه الناس بلا ملامِح، وجد نفسهُ في مدينة أشخاصهُا المُقدسون منحرفون، تاريخُ نشأتها منقوعٌ بالشك، مدينة في احسن احوالها مؤذية، تَنفسَ بملء رئتيهِ مُستذكراً لما يتوجب لإنضباط الروح، كان على يقينٍ تام بأنهُ لو أراد معرفة الفضيلة فعليهِ أن يُحاط علماً بالرذيلة، نظر تحت قدميهِ فوجد صوراً لوجوهٍ مُشوهة، فرقها بقدمهِ مُتحسِساً لطبشورة صغيرة، أمسكها بيده فَرِحاً وعاد مُسرعاً ليواصل الكتابة، بحث عن مساحة خالية بين جُدران غُرفته ولم يجد، جثا على رُكبتيه يُفتش

عن اصغر فُسحة تتسع لكلماته، لم يجد، أمَسكَت يدٌ بيدهِ المُحتفظة بالطبشورة، أجبرتهُ على النهوض، صرخ دون إلتفات مُطالباً بحقهِ في الكتابة، سمع هَمهمة فالتفت على عجل، رأى وجهاً عبوس يخبرهُ بصوتٍ خفيض: "قد فات وقتُ الكتابة"

حيدر عصام

المُؤلف

الفصل الاول

كأنهُ اول الصباح، كأن الشمس اشرقت للتو، طقسٌ مُعتدل، جو صاف وشمس بأشعةٍ دافئة، سماءً تتخللها سُحب تسير ببطء امام عيني، انظرُ إليها دون حِراك، الجو هادئ وجميل، ولكن هناك سكون رهيب على مسامعي، من حولي هدوء تام، هدوء يثير الشك ... لمَ هذا السكون؟ اين أنا؟

أجدُ نفسي مُستلقياً على ظهري، على ارضٍ رطبة بعض الشيء، ولكن لا شيء حولي؟ لمَ لا التفت؟ ما السبب؟ لا اعلم، كأنني سقطتُ من مكانٍ شاهق، يخفقُ قلبي مُسرعاً ولكنني لا اشعر بنبضاتهِ، اشعر بأن هناك رهبةً تمتلكني، اشعر بخوفٍ من أن أُحرك جسدي، اخاف لئلا أهوى مرة اخرى، لا اقدر على الحِراك من شدة الرهبة، لمَ لا اتنفس؟ ساكنٌ لدرجة انني لا اشعر بأنفاسي، مُستلقي على أرض غريبة، لا اعلم اين انا؟ لمَ انا هادئ؟ لمَ انا وحدي؟ لمَ لا اشعر بأنفاسي، لا ارى صدري يرتفع وينخفض، حركتُ رأسي الى الأسفل قليلاً ونظرتُ إليه فوجدتهُ ساكن، انا لا اتنفس !!!

بدأتُ أحرك عيني يميناً ويساراً، الى الاعلى والى الأسفل، ابحث عن من يجيبني، هل مر وقت كثير على بقائي هنا؟ لمَ انا هنا؟ تأملتُ النظر في السماء، تركتُ كل الظنون التي تساورني، سألتُ ذاكرتي عن ذكرياتي، هُنالك ثمة شيء يجعل الذكريات تتراكم أمام عيني، وكأنني اضغطُ بيدي على جانبيّ رأسي لأستجمعها، تراءت لي اهم الاحداث التي مرت في حياتي، أجمل اللحظات وأهمها، ساورتني تلك المخاوف التي كانت تلاحقني على الدوام، تذكرت كل شيء قضيت حياتي وأنا أجمع عنهُ الأدلة، انتابني ذات الشك الذي كنت اهربُ منه، تذكرتُ مدرستي، امي وابي، اخوتي حين كُنا صغاراً، تذكرت كل شيء لا يقبلُ النسيان.

انا في فضاءٍ واسع، في مكانٍ لا يشبه الأرض، الوانهُ صافية، سماؤه ناصعة البياض، أنا خائف، خائف بذلك الخوف الذي رافقني طويلاً، خائف من ذلك الامتحان الذي خُلقِنا لأجله، لطالما كنتُ أؤمن بأن الرب خَلقَ عِباده ليمتحنهم كُلاً بحسب زمانهِ ومكانه، بحسب ما تحيطهُ من معطيات عاش بموجبها، هذه المعطيات ما هي إلا حلقات صغيرة تحيطها اخرى كبيرة ثم حلقات اكبرُ حجماً، حلقات تزداد اقطارُها اتساعاً كلما تركنا احداها واتجهنا الى الأخرى.

(الذات) هي الحلقة الأولى، بما تحملهُ من افكارٍ استلهَمَتَها من عقلنا الباطن، منذ ان بدأنا التساؤل عن اسم كل شيء من حولنا والى ان بلغنا الرُشد، الى ان اكتسبنا العقل الناضج الصالح للتفكير والتفكر، ثم الحلقة الاكبر منها وهي (الاسرة)، هي التي عشنا وسطها بما فيها من صالحين وغير صالحين، ثم الحلقة الاكبر وهي (البيئة) التي نشأنا فيها وكل ما اكتسبناه منها رغماً عن ارادتنا، ثم حلقة (المُجتمع) بكل عاداتهِ وتقاليدهِ وقيمهِ، ثم حلقة (الحياة) بكل شيءٍ احتوته، قَيماً كان ام غير قَيم، في كل الايام التي قضيناها فيها أما تلبيةً لشهوة او طلباً لعِلم، للتمرس في الجهل او للبحث عن الحقيقة، لبناء مستقبلٍ عظيم او لاستخراج امثلةً من الماضي بُغية الاستدلال عن المستقبل.

خائفٌ من تلك الحياة التي مُنحت لنا لكي نكون، ونحن لا نعلم ماذا سنكون، نعمل ولا نعلم، جميعنُا لا يعلم حين يعمل بأن ما يسير عليه هل هو (الصراط المستقيم) ام (طريق السعير)، تؤجل معرفة الحقائق الى يوم الحساب، مهما كانت مساراتُنا في الحياة مُتقاطعةً لبعضها او مُتوازية، {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ}[1] نحن لن نعلم ما عملنا إلا بعد انتهاء مُدة الامتحان المُقرر لأن نعيشه.

[1] القرآن/سورة الزلزلة/6

اتأمل سماءً شكلها مُريب، حركة غيومها سريعة، وكأني أوقدتُ ناراً ثُم أحترق بها، حائرٌاً في إجابةٍ لسؤال ليس لهُ إجابة، من أين وكيف كانت البداية؟ كيف تكونت الارض؟ كيف جاء اول البشر؟ من هو اول الخلق؟ ما هي حقيقة الاديان؟ لمَ كل البشر ليسوا على دينٍ واحد؟ أليس الخالق واحد وغايته من الخلق واحدة؟ أليس ما يريدهُ من خلقهِ هو عبادتهِ، لمَ هنالك أكثر من طريقةٍ لعبادتهِ؟ لمَ هُناك أكثر من طريقةٍ لعبادتهِ في الدين الواحد؟ لمَ هناك أكثر من دين؟ لمَ هُناك اختلاف بين الاديان وتحريض على القتل بينهم؟ أليس مُرسل الاديان واحد؟

يَعقدُ التاريخ لسانه لو سُئِل عن آلهة ما، كلما قرأته، يضعني تاريخ البشرية والأقوام القديمة في حيرة من أمري، لمَ الآلهة تتجدد؟ لمَ الانسان بطبعه الفطري يبحث عن إلهاً يلتجئ إليه ليمنحهُ الأمان ولينتشل منهُ الخوف؟ لمَ طقوس دينه تكن في الغالب وفق الظروف التي يعيش فيها؟ وكأن الآلهة تكونت بحسب ما يُريد وما يشتهي، أليس من المفروض ان تكون الآلهة موجودة بذاتها؟ أليس من المفروض ان تكون الاديان وفيرة المُعجزات؟ أليس من المفروض ان يكون الإله واحد؟

التاريخ خيرُ دليلاً يُزيد اسئلتي إبهاماً، وقتما كان من الاجدر بهِ أن يكون الفيصل، تاريخُنا كُلما بحثنا فيه غِصنا في عتمةِ بحر التساؤلات اكثر، لتزداد العتمة اكثر، ويتفاقم التساؤل، حتى نكاد نصل لأمورٍ تُزيد من غرابة اسئلتنا غرابة، لتكون في نهاية المطاف ليست أسئلة فحسب، تصبح مُعضلة، نتمنى حينها آسفين لأن نعود لنقطة البداية، لتلك الدقيقة التي مسكنا فيها اول كتاباً يبحث ويُنقب في ماضينا، يبحثُ في اصل تكوين كُل شيء من حولنا، نتمنى لو اننا لم نقرأ، يا ليتنا بقينا على ما اكتسبناه من معلومات تضمُر الخرافات في جوفِها لتلك الإجابات التي سمِعناها من ابوينا او من معلمينا في المدرسة او من اسيادُنا في الدين، نتحسر لأننا خرجنا من تحت سطوة عباءتهم في دور

العبادة، ركضنا الى النور بعد أن سمعناهُم يقولوا بأن "العلم نور" خِيّل لنا بأن العلم نور فركضنا بأتجاهه، وما أن وصلنا إليه أحرقنا بنارِ الخوف لما احتواه من حقائق لظّى، الإمساك بها أشدُ من الإمساك بالجمر، هو ذات الخوف الذي انا على قيدهِ الان، الخوف من ذلك الامتحان الذي خُلِقنا من اجله، كيف سنُجيب ونحن من كُثر ما بحثنا، لم نعُد نمتلك الإجابة.

رُغم الظلام الغادق من حولي ورغم رياح الجهل التي تزأر خارجاً، دعاني حُب البحث يوماً ما لفتح نوافذهِ، اقنعتُ نفسي بأني بحاجةٍ لبعض النور المُنعش لرئتيّ اسئلتي، قرأتُ تاريخ الحضارات القديمة، قرأتُ عن الإغريق والبابليين والحضارة الصينية القديمة والفراعنة وغيرهم، لاحظتُهم قد وجدوا عشرات او مئات الآلهة لكي يعبدونها، وقتما شاءوا وكيفما شاءوا، لاحظتُ من خلال آثارهم بأن هُنالك آلهة للحب وآلهة للحرب وللزواج والسفر والصيد، لاحظتُ أن لكل آلهةً قصتها واثرها التاريخي الذي تداولهُ الناس آنذاك، تكرر تداولها أجيالاً بعد أجيال حتى تم تصديقها والإيمان بها، حتى اننا حين نطلع على قصص هذه الآلهة ولِمَ كانت بهذه الصورة، نجد حِبكةً من الاحداث تصبُ في النهاية لحِكمةٍ تجعل العقل والقلب يؤمِنا بها دون تردد، يخطر ببالِنا كيف كانوا يسردونها لصغارهم لكي يتربوا على قِيمِها، هذه القُصص لو انها وردت بكتبِ اديانِنا اليوم لصدقناها ايضاً، فليسَ هنالك طريقةً تجعل العقل يوقف الشك في أي قصةً يسمعها سوى ربط مصدرها بكتبٍ يُدّعى بأنها سماوية.

بين لحظة ضعف ولحظة قوة، ألثغ بأحرفٍ ليست من لُغتي حين أفصح عن ديني الذي أؤمن به، فأغلب اقراني في الدين حين يطلّعون على تاريخ هذه الاقوام القديمة ويتعرفون على أنواع وأعداد الآلهة التي كانوا يعبدونها وكيف كانوا يعبدونها يرددون عبارة "الحمد لله على نعمة الإسلام" دون أن يتساءل أحدهم عن ماهية دينهِ او مذهبهِ على اقل تقدير، لم يتساءل أحدهم

كيف جاء الدين وكيف وصل إلينا؟ عن طريق مَن؟ في أي سنة؟ من القائل؟ هل هو محل ثقة؟ كيف نجعله محل ثقة بعد هذا الكم الهائل من السنين التي تفصل بيننا وبينه؟ الإيمان بالأديان مسألةً غيبية، لا مناص للحياد عن ذلك اطلاقاً، الدين الإسلامي تحديداً ومن دون الأديان الابراهيمية لم يأتِ بمعجزة مادية ملموسة، اتأمل الدين (اليهودي) و(المسيحي) وقصص الأنبياء (موسى) و(عيسى) فأجد الكثير من المعجزات التي قدمها كل نبي لقومهِ لكي يؤمنوا به، والقرآن قد ذكر ذلك في آياتهِ عبر قصص الاولين، لمَ الدين الإسلامي لم يأتِ بمعجزةٍ يشهدُ لها العيان؟ تساءلاً من المُستحيل أن اجد لهُ إجابة فهو من مشيئة الرب، للرب تقدير ذلك، أقول ذلك لأني لا أتمكن من قول غير ذلك، ولكي أبرهن لنفسي بأن الإيمان بالأديان من الغيبيات، وأنا في هذا المكان الغريب الهادئ ارى بأن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي من الصعب جداً الإيمان به ومن السهل جداً نقض وجوده، وهذا التَوسّم لا يسري على من كسب الدين بالوراثة.

اتفكر وأنا مُلقى على ظهري تحت هذه السماء المُريبة في سرد مفردات الدين الإسلامي على شخص (لا ديني) بالغ عاقل، بلغ سن الرشد بعد أن نشأ في عائلة لا تعتنق أي ديانة، بماذا سأبُرهن وجود او بَعثَ نبي ديني؟ كيف سأثبت لهُ بأنه دين سماوي دون أن اسرد لهُ مُعجزةً ماديةً مرئيةً جاء بها نبي ديني كي لا يُقارن بباقي البشر؟ لستُ من الديانة (اليهودية) التي يمتلك مُعتنقيها (9) بَراهين ومُعجزات أشار لها القُرآن[2] لوجود دينهم، فضلاً عن المُعجزات الواردة في (التوراة) بأسفار (العهد القديم) وتحديداً في (سفر الخروج)، كما أني لستُ من الديانة (المسيحية) ونبي ديني تكلم في المَهد ونفخ الروح في الطير ومسح الأكمه[3] فأعاد لهُ البصر ومسح على الأبرص وكَتب لهُ الشِفاء وكان قادراً على احياء

[2] انظر: القرآن/ سورة الاسراء/101

[3] الأكمه: هو من وُلد أعمى.

الموتى، مُعجزاتٍ نص عليها القرآن[4] بالإضافة الى (37) مُعجزة أخرى نصت عليها الاناجيل الأربعة[5]، لنا نبياً لم يمتلك سوى آيات بينات حتى جاء (الفقه) و(علم الحَديث) فأذهب عنها بريقها، لنا ديناً حائرون في نشأته، حائرون في أسباب نشأة طقوس عباداته، حائرون في وجه تشابه (17) موضع بين (سَفر الخروج) و(القرآن)[6]، دينُنا كما الأديان التي نُزلت من قبله، إلا انهُ اعظمهم قسوة في بنود امتحانه، اشدهم غموضاً، اكثرهم وعيداً بالعذاب.

ازهرت آمال إيماني الغيبي فقطفتها ايادي الشك حين تساءلت لمَ هناك شبه بين قصة (الاسراء والمعراج) واسطورة (بيكاسوس Pegasus) الاغريقية، تساءلت عن عدد السنين التي سَبقَت ظهور هذه الأسطورة عن ظهور (المعراج) في الدين (الإسلام)، وأنا مُستلقي على هذه الارض الغريبة تُراودني فرحةً كتلك الفرحة التي راودتني من قبل وأنا ادخل القبو لأول مرة، كنتُ اشعر بأن هناك شيئاً ما سيحدث، شيئاً سيُغير مجرى حياتي، كنت اغوص نحو ضوء في اسفل قاع عَتمة شكي ويقيني.

قرأتُ ذات مرة وجه الشبه الذي يشوب تلك القصتين في مجموعة اوراق مُبعثرة في قبوٍ أسفل منزلنا الكبير، كنتُ ادخلهُ خِلسة دون علم ابي، منعنا من دخولهِ مراراً، تارةً يقول ان فيه افاعي كبيرة، وتارةً يقول بأنهُ لا يحتوي على شيءٍ يُثير الاهتمام سوى أثاثٍ قديم، كانت هذه الاوراق اول تجربة بحث لي، بدأتُ ابحث عن الحقيقة، هل قصة (المعراج) منسوخة من هذه الأسطورة؟ أم أن مَن رَفض أعتناق دين الإسلام وكَفرَ به ادعى وجودها ليقول عن القرآن بأنهُ من صنع البشر؟

---

[4] انظر: القرآن/ سورة المائدة/110

[5] الاناجيل الأربعة هي (انجيل متى/انجيل مرقس/ انجيل يوحنا/ انجيل لوقا).

[6] تتمثل اوجهُ الشبه بالصوم وتحريم لحم الخنزير وتجنب النساء فى المحيض والتطهر من الجنابة ورجم الزاني والزانية والصلاة في اتجاه بيت المقدس.

بحثتُ في العديد من الكُتب في مكتبة أبي، وجدتُ في مُسند (احمد بن حنبل) تفصيلاً عّما حدث في ليلة (الاسراء والمعراج)، إلا انني لم اعرهُ اهتماماً لما جاء في تلك الليلة عن (الاسراء)، بحثتُ عن (المعراج)، عن قدر تعلق الامر في اسطورة الحصان الابيض المُجنح، لمَ امتطى النبي حصاناً ليعرج الى السماء؟ ألمَ يُخلَق الحصان للجري! ما عِلاقة الحصان بالطيران؟ وقفتُ مُتكِئاً على نافذةٍ تطل على سماءٍ مُلبدةً بالغيوم، أمسكُ بيدي كتاباً لا ينفك ابي عن قرأته رفقة صحيح (مُسلم) ومُسند (احمد أبن حنبل)، بحثتُ في صحيح (بُخاري)، كان دائماً ما يقول لي بأن عليّ قراءة ما يتيسر لي منهم بعد قراءة القرآن، يقول لي دائماً بأنني سأجد فيهم كل الإجابات التي اريدها، ولكنني عجبتُ حين منعني عن السؤال في خارج ما تناولتهُ هذهِ الكُتب، لأنه من البُدع، وكل بدعة ضلالة، اوصاني بأن علينا الالتزام وفق ما ترويه فحسب، ان نعيش حياتنا وفق الاحداث التي ترويها، لأننا مُلتزمون بما جاء بهِ السلف الصالح ولا شيء غيره، وجدتُ وقتها وصفاً لحيوان (البُراق)، قيل عنه بأنهُ: "دابة دون البغل وفوق الحمار الابيض"[7] وجدتُ ايضاً في (مُسند احمد) ذات الكلام مع إضافة: "يضعُ حافرهُ عند منتهى طرفه"[8] ووجدتُ إجماع كل المؤرخين على قصة ألتقاء النبي بمن سبقه من الأنبياء في سبع سماوات تباعاً من السماء الأولى الى السماء السابعة، ليلتها جمعتُ الكتابين بالقرب مني وأنا اجلس القرفصاء مُنغمِساً بين كُتب القبو، شرعت لأن ابحث عن اسطورة (بيكاسوس) الاغريقية، وجدتُ مقالاً يسرد بالتفصيل كيف تكونت هذه الأسطورة، قرأتُها فأصبحتُ حائراً، اكرر ما قرأت في مخيلتي وانا ابحث عن المزيد من الأدلة لأنني لا أتمكن من دخول القبو في أي وقت اشاء، انتظر الليل لأدخل إليه خِلسةً بُغية البحث عن

[7] انظر: صحيح البخاري/ كتاب مناقب الأنصار/ الجزء الثالث/ رقم الحديث 3674

[8] انظر: مسند احمد ابن حنبل/ شرح حمزة احمد الزين/ الجزء 16/ دار الحديث-القاهرة/ الطبعة الأولى/ 23236

اجابة لما يدور في رأسي من الأسئلة في النهار، لاسيما وان اسئلتي البسيطة باتت تحتاج الى بحث وليس الى إجابة مُحددة، بتُ بحاجةٍ لأدلة وأسانيد توثق ما اريد ان أفقه، ولكنني في نهاية المطاف ايقنتُ بأن هناك العديد من الأسئلة المتعلقة بالدين لها أكثر من إجابة تحملُ الصحة.

كانت المرة الأولى التي ابحث فيها دون ان اجعل معتقداتي في دورق زجاجي مُحكم الاغلاق وأن ادفع بكل ما لقنني بهِ ابي بوجه كُل ما يخدش هذا الدورق، أضحيتُ اسمح لأن يمس النقد معتقداتي ومبادئ ديني، بعد أن وجدت الفارق بين ولادة اهم مؤرخٍ للحديث ووفاة النبي قد تجاوز المائة والثمانون عام[9] وأن كُل ما ارخهُ كُتِبَ وتناقل بعد وفاتهِ بمائة وخمسة أعوام، وأن ليس هُناك أي كتاب او مخطوطة بخط يده أو تعود لفترة حياته.

واصلت البحث لأصل الى إجابة لسؤالي، (ما هو البُراق)؟ ولمَ قصته تشبه قصة (بيكاسوس)؟ وقتها لم أتمكن من المكوث في القبو اكثر، كنتُ خائفاً لئلا يكتشف ابي امري، خرجتُ ضاحكاً وأنا احمل أسئلة اكثر، دخلت الى القبو لأجد إجابة لسؤال واحد فخرجت وأنا احمل بجعبة عقلي اسئلة اكثر، هذا هو الحال لكل من ظن انه يستطيع ان يجد إجابة محددة لأحداث أوردتها الأديان بكتبٍ لا تحملُ القَداسة، نحن من منح لها القداسة بعد أن لبَت لنا كُل ما اردنا الحصول عليه.

بعدما كُنت ابحث عن ماهية (المِعراج) في الإسلام، خرجتُ مشدوهاً وأنا أتألم لتلك الرواية التي صورت لي بأن النبي كان يسرد أحاديثه المُكلف بنقلها الى المسلمين عن طريق الصدفة، وليس كما قال القرآن بأنهُ: {ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى}[10]

---

[9] عاش (البخاري) بين (194 – 256 هـ) أي ما بين (810 - 870 م) مع الإشارة الى أن وفاة النبي كانت سنة (11هـ).

[10] القرآن/سورة النجم/4,3

عجبتُ كثيراً حين قرأت ما روي عن (عائشة) بأن النبي لمح بحوزتها دُمية على شكل فرس بجناحين، فسألها: ما هذا؟ فأجابت: فرس، فقال: فرس له جناحان؟ فأجابت: ألم تسمع أنه كان لسليمان خيل لها أجنحة؟ فضحك[11] لأول مرة في حياتي اتخذ قراراً أخاف منه، ولكنني تحليتُ بالشجاعة، قررت وقتها وللمرة الأولى ان اضع الشك في كل كتاب يحوم حول القرآن ويسرد أحداثاً من وحي خياله مُحاولاً فهم آياته، قررتُ ان اضع القرآن سراجاً احملهُ بيدي بوجه كل من كَتب في الفقه تفاسيراً للقرآن يروم من خلالها لأن ينال رضا الحاكم او لأن يُلبي نزواته وشهواته وان يطفئ جينات الجشع التي أورثها من اصلهُ القُرَشي، لاسيما وأنني ايقنت وتأكدت بأن تأريُخنا الإسلامي أُرِخَ وكُتِبَ بأكملهِ في العهد الاموي، في ذلك العهد الذي كان فيه الحاكم هو ظل الله على الأرض، حين كان يعتبر تثاؤب الحاكم حديثاً نبوياً وسُعاله تفسيراً لآيات القران، حين أضحت أسماؤهم (المُعتصم بالله) و(المُستنصر بالله) و(المؤيد بالله) و (القائم بأمر الله) بعدما صّدقوا ما كانوا يؤولونه وكأنهم وكلاء الله على الأرض.

دخلتُ للقبو مرةً ثانية، قررتُ البحث والاستدلال بما يقوله القرآن عن (المعراج) وان اضع جانباً كل ما قرأتهُ من خُرافات، وجدتُ آية واحدة تخبرنا عن (المعراج) وهي الآية الأولى من سورة (الاسراء)، وجدت ان الرب يخبرنا عن مسيرة نبينا من (المسجد الحرام) الى (المسجد الاقصى) فتوقفت هنا لأستدل، ما هو (المسجد الحرام)؟ وما هو (المسجد الأقصى)؟ وجدتُ ان الله قد ذكر (المسجد الحرام) في القرآن (14) مرة بدلالةٍ واضحة لا تقبل الشك، وهنا ايقنت بأن النبي سار من هذا المسجد الى المسجد الأقصى، ولكن، الى أي (مسجد اقصى) يشير والمسجد الأقصى لم يكن موجوداً في زمن النبي!

[11] ورد في صحيح البخاري/كما أخرجهُ (ابي داود) بسننه (كتاب الادب) /4932

بعد كُل شموع البحث التي أوقدتُها في طريقي الى الحقيقة اكتشفتُ بأن (المسجد الأقصى) لم يكن موجوداً في زمن النبي وأن المسجد الاقصى الموجود حالياً في (فلسطين) قد بُني في زمن الخليفة الاموي (عبد الملك بن مروان 685م)، واستمر اعماره الى زمن ابنه (الوليد بن عبد الملك 715م) بالإضافة الى بنائه (لقبة الصخرة) وصَرفه للناس الحج إليها بدلاً من الكعبة الى ان تم قتل (عبد الله ابن الزُبير) وان جميع سكان (القُدس) كانوا يعتنقون الديانة المسيحية الى ان غزتهم جيوش الفتوحات الإسلامية المأسوف عليها في زمن الخليفة الراشدي (عمر بن الخطاب) بعد ان استعصى على جيش (أبو عبيدة بن الجراح) فتحها بسبب قوة قلاعها وسورها، ظلت (القُدس) صامدةً الى ان جاءت جيوش (عمر بن الخطاب) وأرادت فتحها فطلب أهلها بأن يأتي الخليفة بنفسه ليستلم مفاتيحها عام (636م) فخرج (عمر) من (المدينة المنورة) الى (القدس) تلبيةً لهذا الطلب ودرءاً للاقتتال، ولعلهم أدرى (بعمر) من جيوش المسلمين.

تساءلت، الى أي (مسجد اقصى) يشير القرآن؟ سؤال يطرح معهُ أسئلةً أكثر، هل كلمة (الأقصى) جاءت للإشارة لمكانٍ اقصى بمعنى (بعيد) عن المسجد الحرام؟ ام ان ورود كلمة (عبده) في الآية لا يشير الى النبي (محمد) بل الى أحد الأنبياء السابقين له؟ ام ان عليّ خلق الاعذار لأنصر الدين كما فعل (ابن هشام) حين أورد حديثا (لعائشة) تصف فيه النبي ليلة (الاسراء والمعراج) قائلةً: "مَا فُقِدَ جَسَد رَسُول اللَّه وَلَكِنْ أُسْرِيَ بِرُوحِه"[12] ليس بالشيء هين، حين تكتشف بأنك مخدوع بشيءٍ ذا قداسة، وقتما تكتشف الخِداع والزيف في شيءٍ لم تكُن تصدقهُ فحسب بل كُنت مؤمناً به، ليس هينا، ولكنني بعد ذلك الموقف قررتُ الوقوف على بُعد خطوةً واحدةً من كل شيء، لم اجعل ما

[12] انظر: كتاب (السيرة النبوية لأبن هشام)/ الجزء الثاني/الصفحة 46 – انظر ايضاً: كتاب (البداية والنهاية) لأبن كثير/ الصفحة 283

اكتشفتهُ أن يهز اركان ايماني بوجود الله، لم اجعل القداسة المزيفة التي كشفتُ حقيقتها أن تلغي عقلي وأن تمنعني من البحث والشك فيما اسمع، قررت أن أكون محايداً، قررتُ فصل الدين عن الفقه، قررتُ ان اقرأ القرآن وأتمعن آياته دون الرجوع الى تفاسيرٍ تَنطقُ عن الهوى، ولكنني بتُ خائفا وتائها، حطمت ما كنتُ استند إليه، بتُ مُعلقاً في الهواء، بتُ آيلاً للسقوط من شُرفة ما أعتقد وما أؤمن، كسرتُ حاجز خوفي الدائب وحركتُ اصابع كف يدي، بدأتُ استشعر وأتلمس الارض المُلقى عليها، ارضاً شِبه ملساء، لا تحتوي على العشب، لا اشعر بأي شيء وأنا أحرك اصابعي، لا تحتوي على التراب ايضاً، حركت اصابعي اكثر، تَحركت بعدها اصابع كلتا يديّ مُحاولاً رفع يدي الى الاعلى لكي انهض، وجدتُ على معصمي اصفاداً حديدية، التفتُ يميناً ويساراً لأرى ماذا يوجد حولي، وجدت سهلاً اخضر ساكنا، هممتُ بالنهوض ولكنني لم أتمكن، بقيتُ جالساً، لا زالت تلك الرهبة تمتلك جسدي، اشعر وكأنني سقطتُ من مكانٍ عال، وكأنني كنت اهرب من حيوان مُفترس.

انظرُ الى الاصفاد التي على معصمي، كانت كتلك التي يضعها الاسياد بين ايدي عبيدهم في العصور الجاهلية، انظرُ لها وهي تنحدر الى الأمام، واصلت تتبعُها حتى رأيتها تنتهي لشخصٍ يجلس امامي على بُعد مسافة ليست بالبعيدة، هممتُ بالوقوف لأعرف ماذا حل بي، لمَ انا هنا؟ ولما هذه الاصفاد تحتجزني؟ وقفتُ فذُعرتُ من خِفة وزني، وكأنني لم ابذل أي جهد وأنا أقف، أنظرُ لجسدي بتعجُب، اين ذهب وزني؟ وكأنني ازن بضع غرامات، وكأنني ريشة سقطت من جنح طائر صغير الحجم.

سرتُ بخطواتٍ ثم وقفت، نظرت في كُل الاتجاهات من حولي، المكان هادئ، سهلٌ اخضر ذو ارض مُموجة بعض الشيء، تتصل الأغلال حديدية خاصتي بشخصٍ يجلس على بُعد بضعة أمتار عني، يجلسُ على سفح تل صغير، وكأن من بعد موضعهِ

مُنخفض، مشيت بخطواتٍ لأصل إليه، لكنني توقفت، لم أتمكن من السير أكثر، لا أستطيع الإتجاه نحوه. كان شخصاً يرتدي رداءً ابيض، لا أتمكن من تحديد هيئته، هل هو رجل ام امرأة؟ لمَ يحتجزُني؟ من هو؟ ولمَ انا هنا؟ اريد الاقتراب منه لأسأله، من انت؟

ناديته: من انت؟

لم يُجبني ...

صرختُ بصوتٍ عال: من انت؟ ولمَ تحتجزُني بهذه السلاسل؟

التَفتَ وجههُ نصف اِلتفاتة، يضع وشاحاً على رأسه يُغطي مُعظم وجهه ...

قال: ابق هادئاً وستعرف.

سألتهُ: لمَ انا هنا؟

اجابني: لتتذكر.

قلت: لأتذكر ماذا؟

قال: لتتذكر حياتك، وما فعلتهُ بها، انت هنا لتتذكر فقط.

قلت: من انت؟ انت رجل ام امرأة؟

قال: ستعرف فيما بعد.

قلت: لمَ هذهِ الاغلال على يدي؟

قال: انت من وضعتها.

قلت: أنا!! كيف ومتى؟ أنا لا أتذكر شيئاً، ما الذي حصل؟

قال: انت هنا لتتذكر، لتراجع نفسك وتنظر بعينِ ذاتك ملياً، لا تخف، لن اتركك.

قلت: اتركني لأعود الى منزلي واسرتي، لمَ تحتجزُني هُنا؟

سألني: وهل تعلم اين منزلك؟ ومن هي اسرتك؟

انتابني الخوف الشديد، أنا لا أتذكر شيئا، لا أتذكر سوى القبو، سوى تلك اللحظات التي كُنتُ ادخل إليه فيها، حين كنت ابحث عن إجاباتٍ لتساؤلاتي بين طيات الكُتب القديمة والأوراق العتيقة في ذلك المكان شبه المُظلم، وقتما دخلتُ خِلسةً ووجدت في احدى زواياه بالصدفة ورقةً تتحدث عن (الاسراء والمعراج) فقررت العودة للبحث من أي الصناديق والأشياء المُبعثرة سقطت، وما هي التتمة.

والخوف يمتلكني كلياً، قلت له: لن اسألك من انت، سأسألك من أنا؟ لمَ انا هنا؟

قال: لا تخف، اخبرتُكَ بأنني لن اتركك، اطمئن، انت هنا لتتذكر فحسب، إرجع خطوتين الى الوراء، إجلس مُتكئاً على هذه الشجرة وستتذكر كل شيء، ستعرف من انت، ثم ستعرف لمَ انت هنا.

رجعت الى الوراء وأنا على يقينٍ بأنني لم أر أي شجرة حين نهضت منذُ بُرهة، التفت فرأيتُها تنبثق من الأرض وتعلو الى السماء وتنضج اوراقها وتثمر بثمارٍ خضراء تشبه فاكهة التُفاح في آن واحد، جلست بقربها والغرابة تمتلكُني، بين ما رأيتهُ من مُعجزة وبين صوته الذي لم أتمكن من تمييزه، هل كان ذكراً ام انثى؟ تمتلكني الرهبة وجسدي يرتعش، لمَ لم أتمكن من التقرب منه!

جلستُ القُرفصاء تحت ظِلال الشجرة الناضجة، اتكأتُ بظهري على جذعها، أجلسُ وأنا ارتعد خوفاً، أرى نفسي في غُرفة بيضاء بأغطيةٍ بيضاء، كلما ارتعدت خوفاً أرى نفسي حبيس غُرفةٍ بيضاء ساكنة، تحتوي على سريرٍ واحد وأربعة جُدران، وما ان تهدأ رعشة جسدي أرى هذا المكان الجميل الهادئ، عاد ذو

الرداء الأبيض لينظر امامه، لم يعد يلتفت إلي، ظل يُردد "اهدأ وستتذكر"

انظرُ الى الأعلى، شجرةً كثيفة الاغصان، يتخللها ضوء الشمس، وددتُ ان اسأله لمَ انا لا اتنفس ولكنني لم اسأله، فكرت في الصمت لدقائق كي تهدأ رعشتي، بقيت انظر الى الأعلى، انظر الى اغصان الشجرة وأوراقها الخضراء، تذكرتي طفولتي ...

كنتُ استيقظ على خطوات ابي وهو يدخل غرفتي، اترقب خطواته عند كُل فجر وهو يدخل، اترقب ظله من أسفل الباب وهو قادم، صوت الباب وهو يفتحه، اهمُ بالوقوف فوراً لأقول له قبل ان يوقظني: "أبي، أنا مُستيقظ".

منذُ اخر مرة صفع فيها وجهي وأنا انام خائفاً، ارتعد خوفاً من أن تفوتني صلاة الفجر فينهال عليّ بالضرب، أستيقظُ خائفاً، لأُصلي خائفاً، لأبقى خائفاً ومُستيقظاً لما بعد وقت الصلاة، أبقى مُستيقظاً الى أن تشرق الشمس، أنزل من سريري مسرعاً بإتجاه أسِرة اخوتي لأوقظهم، اخاف من ان يوقظهم ابي فينتابهم الفزع، كانوا صغاراً على ان يوقظهم صوت يُهددهم بنارٍ ستكوي وجوههُم لو لم يستيقظوا لأداء الصلاة، كنت اخاف عليهم من بكائهم، اذهب مُسرعاً لأوقظهم بصوتٍ خافت.

بعد وضوءٍ شاق، نقف صفاً خلف ابي لنؤدي الصلاة، أقف وسط اخوتي الصغار لأضربهم بمرفق يدي لو غلب أحدهم نومه على صلاته، كنُا ننصت كذباً للآيات القرآنية التي يتلوها ابي لأن النُعاس لا يزال غالبا على أعيُننا، كنت اتوسط اخوتي كي لا يميل أحدهم في وقوفه، كان ابي يريدنا ان نقف بخشوع، في الوقت الذي كانت أعمارنا لا تمتلك عقولا تفقه معنى (الخشوع).

قطع ابي صلاته ذات يوم والتفت وشاهد اجفانُ اخي الاصغر مُغلقة، صفعهُ على وجهه وصرخ قائلاً: "ألم اقُل لك بأن تقف خاشعاً في الصلاة؟" وددتُ وقتها بأن اقول لهُ بأنهُ ما زالَ في

السادسة من عمره، لا يعلم معنى (الخشوع)، لكنني لم اقُل شيئاً، كنت خائفاً من ان يضربني مثله.

تنتهي الصلاة بعد ان يلتفت ابي يميناً ويساراً، يركض اخوتي بعدها الى اسرتهم ليستغلوا كل دقيقة تمر في النوم، لم يتبق لديهم الوقت الكثير قبل النهوض والذهاب الى المدرسة، ابقى بجوار ابي من اجل التسبيح، انظر في عينيهِ فأرى الغضب الصامت، يغضب من اخوتي لتركهم مكان الصلاة مُسرعين الى النوم، كنت أبقى لدقائق بقربه لكي لا يلومهم، لينظر لي وينسى امرهم، يهزُ رأسهُ ثُم يقول "لو كان التسبيح واجباً لضربتهم عليه".

اقضي الوقت المتبقي للصباح في التفكر بكل شيء منعني ابي من التفكير به، أفكر في اجوبة كل الاسئلة التي تطرح موروثاتنا ارضاً، موروثاتنا التي يَحقنا ابي بمصلها في كل وقتٍ دون السؤال عن ماهيتها؟ او عن اسباب تكوينها؟ منذُ الصغر وأنا أفكر في خالق الكون، أفكر في وجودهِ من عدمه، أفكر فيه مؤمناً بوجوده، مؤمناً بكتبهِ السماوية، مؤمناً بالقرآن الذي نُزِل على نبيه، مؤمناً بنبيهِ ورسالتهِ، ولكن هناك ثمة تناقض يفتك بأيماني السادي، سادي لأنني تلقيت ضربات على وجهي لكي أؤمن به.

صفعني أبي ذات مرة لأنني سألته عن اسباب حَج المسلمين الى مكة في كل عام؟ لمَ يطوفون حول الكعبة كما كانوا يطوفون حولها قبل الإسلام؟ لما الكلمات التي كانوا يشدونها في الجاهلية تشبه ما يشدونهُ عند الحَج بعد ظهور الإسلام؟ الكعبة بكلا الحالتين ذات الحجر والطواف ذات الطواف؟ سألتهُ لما القرآن يقول بأن: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ}[13]وهم يحجون لأيامٍ قلائل في شهر (ذي الحجة)؟ ما كان عليه سوى ان يجيبني، ان يناقشني، ان يلبي حاجة تساؤلاتي، عمري يزداد وعقلي بدأ يتفكر، كنت لا

[13] القرآن/ سورة البقرة/197

اريد اتباع ما يقوله إتباع الاعمى، إلا ان قسوته جعلتني كذلك، جعلتني اعمى وأبكم وأصم.

انا من بلاد القهر، من بلاد الكَبت من اجل العيش، أنا من (أفغانستان)، ولدتُ من اب غنيٍ جداً، مُترفٍ وذي جاه ومال، زعيم احدى أكبر قرى (قندهار)، نشأتُ في بيت مُتدين، كان ابي شديد التعصب لمذهبه، تعلمت منه تعاليم الدين واسسهُ، نشأت كما اراد لي ان أكون، نشأتُ فقط، قضيتُ فترة الصِبا في (كابل)، مدينتي الحبيبة، اعشقها بنهرها وبجبال (الهندكوش) التي تحيطها، قضيتُ أجمل أيام حياتي برفقة تلك البنت التي عَشِقتُها قدر تعلق الامر بالعشق، كان أسمُها (مريم).

لم يدرك الجمال مَن لم ير عينيها مع انعكاس ضوء اشعة الشمس، جميلتان كنوايا عاشق وهو يلتقي بمن يعشقُ سِراً، رؤية عينيها عند الصباح كانت بمثابة ولادة ابن لرجلٍ ريفي شَغلَ العُقر سنين شبابه، كانت تلد الامل مع كُل حركة لأجفانها، تنبثق من عينيها ألف كلمة حُب تُشير لي بأنها مُعجبة بي، كانت نظراتها تراودني عن قلقي وعن تلعثم مشاعري حين مكثتُ مُرتاباً من التقرب منها لفترة طويلة، وأنا اسير وسط اوراق الشجر المُتساقطة على الأرض ابان مجيء فصل الخريف، رأيتُها أول مرة، تساقطت أوراق الشجر وكست الأرصفة، اعلنت قدوم الخريف وولادة الحُب في حياتي، لم اعرف الحُب من قبلها، لم أعرف ايضاً بأن الحُب الذي يولد في الخريف لا يدوم طويلاً.

جاءت على غفلةٍ من إرادة الأقدار، كما تجيء الزلازل للجزر الاسيوية، رأيتُها فخرق جمالها اجفان عيني كما يخرقُ الرعد غيوم الليل، رأيتُها وهي تعلن ثورةً في مُدن المشاعر التي اكنُها لمجيئها، رأيتُها لأول مرة وهي تبتسم فرأيتُ الحياة بأيامٍ ليست كأيامي، في أول مرة تشد فيه انتباهي، رأيتُها جالسةً لوحدها تتأمل بين يديها كتاباً صغيراً، كانت الفيصل بين الليل والنهار، بين الصحو وتلبُد الغيوم، تجلس والرقة تتناثر من خُصلات شعرها المُتدلي بالقُرب

من صفحات الكتاب، لها أنوثة ما على الارض من أنوثة، جميلة لدرجة الابهار، تُحركُ رأسها فتُهدم خُصلاتها اسوار جنةً موعودةً لمن اتقى، رأيتُها وأنا غافل عمّا تُنص عليه أساطير الحسن عند النساء، رأيتُها فتذكرت ما قالهُ الفرنسي (Dom Pérignon) حين اخترع شراب (الشامبانيا) عام (1921)، حين نادى على اصدقائِه قائلاً: "تعالوا بسرعة، أني اتذوق النجوم"

جالساً في الهباء، مُتكئاً على السُدى، ابحثُ عن ذاتي فأجدُها ممزقة، أجمع عمّا يلزمُني من رُقع تكفي لحجب خيبتي، حكايات قديمة حملتها صهوة الريح، يضمرهُا الوهن، اهرب منها داخل خيمة الاسف، اوقدُ نار الندم، أصنع ذاكرةً تُعيدُني لعام 1976، كنتُ مُرغماً على أن أكون طالباً في كلية الشريعة الإسلامية، كنتُ اهرب من دراستي لألتقي بها، لأجلس معها خفية عمّا يُحيطني من آسى، أخاف لئلا يراني أحد ويخبر ابي، كانت ملاذي الآمن من حياةٍ لا أطيق ايامها، ومن دراسةٍ بتُ أكرهها لكِذبها وخِداعها، كانت حياةً على معزلٍ من الحياة، لبرهةٍ من زمنٍ لا يُحتسب من عمُري، كنت اهرب برفقتها من كل ما كان يحيطُ بي، أخبرها حين تكون جليستي عن كل ألم بداخلي فاق حدود الصُراخ، أخبرها لتهون عليّ جَور ابي، اهرب معها الى دُنيا غير الدُنيا التي كنتُ أعيش فيها، كانت الامل الذي يحتويني، كانت الامل الذي يبقيني على قيد الحياة، بعدما فكرتُ كثيراً بالانتحار، فكرتُ بالانتحار تارةً وفي الهروب تارةً أخرى، رأيتُها عدة مرات، تبتسم وهي تُحدثُ رُفقائها، آسرتني وسرقت النظر من عيني، كانت جميلةً للغاية، لها عيونٌ أفغانية الخَلق، لون بشرةً يضاهي لون السماء، شَعر يُسابق مجرى نهر (كابل)، كان جَمالُها مُجمل جمال اللوحات التي رسمها فنانو القرن الثامن عشر في اوربا.

أسابيع عديدة وأنا اراقِبها بصمت، خفت محادثتها فترفض الحديث معي بسبب ذقني، كان ابي يمنعني من حِلاقته، كان لي ذقناً أكرهه، بسببه لا أرى انعكاس وجهي في المرآة كل صباح،

اظهر من خلالهِ بهيئة التلميذ المُتدين والمُلتزم بما يقوله فقه دينه، يقول (أطلقوا اللحى) في الوقت الذي كان من الاجدر بهِ ان يقول (أطلقوا العنان لتفكير والشك)، قررتُ ذات ظهيرة ان أفصح لها عن حبي، تتبعت خطواتها وهي خارجة، استمتعت بعزف اقدامها وهي تسير، حتى انني تراجعتُ عن قراري بالتحدث معها لئلا يتوقف عزفها، سرتُ خلفها فأزداد حبي لها، أحببتها اكثر، احببتُ انعكاس ظِلها على الأرض، تتبعتها حتى ...

ناديتهُا: هل سمحتِ لي؟

توقفَت ثم التفَتت لي، حملقت بي ثم قالت: ماذا تُريد؟

اعتدتُ قراءة نظرات أعين أي انسان احادثهُ وسط خليط طلبة الجامعة، كنت اعرفهُ إن كان (شيوعي) الانتماء ام (إسلامي)، فليس هنالك مُعتقد يشغل الطلبة غيرهمُا آنذاك، كان (الشيوعي) ينظر لوجوهنا بنظرةٍ شاردة، هذا ان كان مُحترماً و ذا فِكر نَير، او أن تعتلي وجهه إيماءات الضجر اما بحركة من شِفاهه او بحركة لأجفان عينه إن كان مُتطرفاً و ذو عقل لا يقبل فِكراً مُغايراً لفِكره، والأمر سيّان للمُتشددين الإسلاميين.

اجبتُها: اردتُ التحدُث معكِ، هل سمحتِ لي؟

ابتَسمت وأنا مُتعجبٌ منها، لم أر غريباً يبتسمُ بوجهي منذُ فترة طويلة ...

اجابتني: بكل سرور، ولكن ليس الان، انا على عجلة، اراكَ وقتاً اخر.

اجبتها: سأنتظرُكِ غداً، في هذا المكان (اشرتُ بيدي الى احدى زوايا الحرم الجامعي).

وأنا أُشير بيدي، نظرتُ الى المكان الذي اقصده بصورةٍ لا ارادية وأنا اشير له، وحين كررتُ النظر لها وجدتُها تنظُر لي

بأبتسامةٍ لطيفة دون أن تنظر الى ما كُنت اشير، ظننتُ الكثير وخمنتُ الكثير وكل ما ظننتهُ وخمنتهُ اسعدني.

قالت وهي تَقدم على مواصلة السير: اعدُكَ، الى اللقاء.

تابعت سيرها وأنا لا زلتُ ارفع يدي وأشير الى مكان لقائنا غداً، سارت بخطواتٍ لها ذات الموسيقى التي كنتُ انصتُ لها وأنا اتتبعُها ....

قُلت لها بصوتٍ غير مسموع وهي تبتعد: الى اللقاء.

امتلكت الوفير من الفرح، لأول مرة يُعاملُني شخص في الجامعة من غير الذين على شاكلتي بهذه المودة، لأول مرة اعود الى البيت وأنا أُقايض مشاعر البغضاء بالسُؤدد.

كانت الحياة الجامعية في مُجتمعنا تنقسمُ لنصفين صريحين، (الشيوعيون) و(الإسلاميون)، كانت بذرة هذا الانقسام هي إقرار دستور الدولة عام (1931) والذي نص على أن الدين الرسمي للدولة هو (الإسلام)، كانت هذه النواة، وفي عام (1964) لم يكتفِ الشعب بإقرار دين (الإسلام) بكونه الدين الرسمي للدولة، بل الزمَ الحكومة بتغيير الدستور لأن يكون المذهب (الحنفي) هو المذهب المعمول بهِ تحديداً وعدم الاكتفاء بذكر (الإسلام)، وهذا ان دل على شيءٍ فإنما يدل على ان (الإسلام) انذاك بات غير واضح المعالم ومُنقسم الى أجزاء لا تتقارب مع بعضِها البعض، أراد الشعب الافغاني بأن تكون (الحنفية) هي أساس دين الدولة بعد ان اصبح لدين (الإسلام) دلالاتٍ ومفاهيم عدة، في كل دولة، وفي كل زمانٍ ومكان، يكون الحرم الجامعي هو الانعكاس الأشد وضوحاً لأفكار المجتمع، يكون وليد كل نقطة خلاف فكري يختلف بشأنها المجتمع، لا شك في ان الكثير من الدول شهدت تغييراتٍ سياسية كانت نواتها تظاهرةً جامعية.

اعمار الطلبة في هذه المرحلة تدفعهم لأن يقوموا بالتغيير، خاصةً بعد ان يشعروا بأن لهم أفكارهم الخاصة وأن بأمكانهم

طرحها خلال المحاضرات الجامعية وإمكانية استعمالهم للغة الحوار بعد ان منعوا منها من قبل، لطالما رأينا الأحزاب وهي تنشر افكارها في الجامعات بالدرجة الأولى، الحرم الجامعي هو الأرض الخصبة لأفكار التحزب والانتماء او لتبني الأفكار الكفيلة لأن تطرأ التغييرات المُباشرة على المجتمع، فضلاً على ان عقول الطلبة في هذه الفئة العمُرية تكون صالحةً لتلقي أي افكارٍ تؤثر التأثير المُباشر على فهم الطالب الجامعي وتعطيه القوة التي تدفعهُ الى البحث عن تكتلات وتجمعات تكون فيها الأفكار التي يدعون إليها واحدة لتمتاز بالقوة لكثرة مؤيديها.

المُجتمع في (أفغانستان) كان عِرضةً لتيارين فكريين متوازيين بالقوة، (الشيوعية) و(التشدد لفقه الإسلام)، أو كما يُشار لهم (بالأسلمة)، إلا أن هذه الدلالة لم تكن واضحة، لأن مفهوم (الأسلمة) يحدد الانتماء الى (الإسلام) فحسب، ولكن الى أي (إسلام) نشير، لم يعد هناك (إسلامٌ موحد)، التياران كان لهما تأثيرهُما الخاص بالفطرة، (الشيوعية) جاءت بأفكارٍ اشتراكية ومبادئ ماركسية تريد من المجتمع ان يكون بلا طبقات وذا مُلكيةً مُشتركةً تؤدي لانتفاء الحاجة من استخدام المال وتداوله، و(التشدد للإسلام) جاء بضرورة الالتزام بما شرعهُ السلف الصالح مع ضرورة تحديد (ولي امر) لكل فترةً زمنيةً يتولى خلالها قيادة المُسلمين بحسب التراث الديني المُتواتر والذي ظل خاضعاً لإضافات (أولياء الامر) على مر الزمان كُلاً بحسب ما اقتضت مصلحته ومصلحة زمانهِ ومكانه.

تلقى التياران قسماً من المؤيدين من خارج الحرم الجامعي، كان المُتلقي متفقه بعض الشيء لمبادئ كل تيار، كانت نسبة الجهل قليلةً نوعاً ما، كان من الممكن ان نرى احد المُتلقين لهذين التيارين يسأل عن مفاهيم التيار وفحواه والى أي هدفٍ يصبو، أو أن يُقارن أفكار التيار مع الأفكار التي امتلكها بحكم المجتمع او بحكم عقليتهِ وتوجههِ العقائدي، لأن المجتمع الذي

تربينا عليه، شِئنا ام ابينا، يفرض علينا عدةَ مفاهيم نتبناها دون نقاش لأنها كانت بحكم النشأة، في الحرم الجامعي الامر مختلف بعض الشيء، فقد لا نجد هؤلاء المُتسائلين، لأن فترة نشوء العقل في هذه المرحلة قد تكون خاضعة للغرائز، في مجتمعنا عموماً وفي الحرم الجامعي خصوصاً، كان الطلبة فئتان ايضاً، فمن يُريد التمتع بما تحملهُ الدُنيا من متاع ولكنهُ امتنع عنها بحكم القيود الدينية كان لُقمةً صائغةً للأفكار (الشيوعية)، فمن نادى (بالشيوعية) في الحرم الجامعي وعد المُتلقي لأفكارهِ بمنزلةً اعلى وارفع من منزلة (المُسلم)، لأنهُ وصف المُسلم بالجاهل المُتبِع للعادات القديمة، المُنصت لأساطير الاولين دون استخدام دليل العقل، فضلاً عن انهُ منح للمنتمين إليه حرية شُرب الخمر وممارسة العلاقات الجنسية كيفما يشاء وعدم الالتزام بأي نوع من أنواع العبادة، أوصاهُ بأن ليس هنالك أي التزامات على عاتقهِ سوى الدفاع عن نظرية (داروين) في نشأة الخلق، ولكنهُ نسى ان يخبرهم شيء عن الأفكار الماركسية، ونسى في بدء كلامه ان يعرّف لهم معنى (الاشتراكية)، هكذا رأيت أوائل ندوات (الشيوعيين) في الجامعة، القسم الاخر كان مُتمسكاً ومُتشدداً لأفكارهِ الدينية، نشأ تحديداً من وسط كلية الشريعة الإسلامية في (جامعة كابل) عام (1958) مُنبثقاً بأفكارٍ جاءت مُتأثرةً بحركةِ (الاخوان المُسلمين) التي أُسِست في (مصر) عام (1930)، كان هو الاخر لقمةً سائغةً لدعاة (التشدد للإسلام) لأنه كان يسمع ضمن الندوات الدينية عن الاجر العظيم (للجهاد) الذي فرضهُ الدين ونص عليه القرآن ولكنهُ لم يجد الحيز الذي يسمح لهُ بالإيفاء بهذا الفريضة المهمة حتى احتدم الامر في الحد من انتشار الشيوعية، جاء التشدد ليخبره بأنهُ بمجرد تمسكهُ بدينه ونشرهُ إياه ونشر أفكاره بين الوسط الذي يعيش فيه يعتبر بمنزلة الجهاد، أعطى الدليل في نهاية ادعائهِ الى ان (الشيوعين) في منزلة الكُفار، لأن مؤسسيها ليسوا من بلاد المسلمين وافكارها ليست إسلامية، بعد ان جاءت من دول وزُعماء الاتحاد السوفيتي وان

كل من انتمى إليها اصبح بحكم (المرتد)، كان المُتلقي (للتشدد) ذا اذنٍ صاغية، لأن افكارها جاءت تأييداً لما قرأ ولما تربى عليه في بيوت العبادة واكدت لهُ بأن ما قرأهُ في تُراث دينه ليس اوهاماً، وأنهُ ليس كما نعتهُ زميلهُ (الشيوعي) بأنهُ مُتبعاً للأوهام، منذُ ذلك الحين وهو ينام قرير المبادئ.

أخزُ جسدَ الذكرى فينساب الحنين منه ببطء، أتذكرهُا وهي بريقُ كُل ذكرياتي، حلوى وجودي، مرارة قهوةٍ تلذذتُ بها ذات صباحٍ وأنا اشربُها على عجلٍ لأنني سألقاها، أتَذكر اول لقاء لنا، أتذكرُ جيداً عِناقنا الاول، كانت اول مرة المس فيها امرأة، أتذكر كل ما كنت انظر إليه وأنا اعانقها، شكل الأشجار التي تحيطنا، لون مقعدنا، الطقس، الظلال الباهتة لأغصان الشجر على الأرض، أثر ضوء أعمدة الطُرقات على الشوارع، أتذكر كل شيء، أتذكر دقات قلبها وأنا اشعرُ بها بين اضلعي، همسات فؤادُها الذي كنت اقطن فيه طيلة تلك السنوات، كانت تُراهن بجمالها ضياء القمر، وتُقامر طلوع البدر بإبتسامةِ ثغرها، كانت تحجب بضفائرها اشعة الشمس، تُبعثر ترتيب النجوم لو تَحركت اجفانها إيماءً بالخجل، اتذكرُها جيداً، اغوص الان في ملامحهُا، تفاصيل وجهها وهي تتكلم، لا زلت الى الان احتفظ بها، لا زلت احفظها عن ظهر قلب.

كنتُ اجلس بالقرب منها أُلوح بيدي كما يلوح الغريق لمنقِذهِ، كانت كلماتي بقربها كقاربٍ صغير وهي كالبحر العميق، كنت انسى من أنا لو نَظرت لي، اضحى بقربها اوهن من صوت حفيف الشجر، كنت اهربُ إليها من واقعٍ لا يقبل الانصاف، كنتُ اهرب اليها كما يهرب طائر (الكناري) من القفص، كانت لي الأمان بعدما اخافني كل شيء، اهرب إليها راكضاً، كما يركض الطفل لأمهِ بعد سماع صوت الرعد، تمتلُك عيوناً عميقةً والجلوس بقربها يشبه الطقوس (الصوفية)، طقوسهم يشوبها التكرار ونحن نراهم يرددون ابتهالاتهم مع بعض الحركات الجسدية، تتكرر الأشياء

قرب (مريم) دون ان تكرر، في كل مرة اراها فيها وكأنني ارها للمرة الأولى، وكأنني لم التقي بِها من قبل، كنتُ احبُها بكل ما على الأرض من حُب، تائهٌ بين ما يسرد عقلي من ذكرى وسط هذا الزحام الساكن، خاشعاً في كُل ما اسرد، لكنني تائه، وكأني أُناجي إلهاً لا أعبده، اسرد ما مضى عليّ من أيام وأنا غير راضٍ عن نفسي، امسك بسوطٍ يضحكُ مُتخفياً وأنا اجلدُ بهِ ذاتي، تائه، ولكنني مُتأكد من كُرهي لأبي.

كان لأبي منزلاً كبيراً، قصراً يحتوي على الخدم والحرس والجواري، كان الوريث الوحيد لكل ذلك من جدي، وكان جدي يزعم القبيلة من قبله، ورث ابي عنه كل شيء، المال والجاه والمكانة الرفيعة، إلا العلم، فأن ابي اكتسب العلم بذاته، اكتسبهُ بتطرف وتعصب، ما يقرأهُ هو يكون بالنسبة لنا واجب الاتباع، وما لا يقرأهُ يكون مُحرما حتى ذكر اسمه امامه، احتوى منزلنا على مئات الكُتب، ورث ابي بعضها واقتنى بعضُها الاخر، لكنهُ احَسنَ قِراءتها وأجاد التحكم بعقول المئات من اتباع قبيلتنا بموجبِها، كان يجيد ابداء الرأي وإعطاء الفتاوى بحسب ما ينص عليه مذهبهِ فقط، وكل شيء خارج مذهبه وعقيدته كان بنظرهِ باطلاً، وغير واجب الاتباع وأحياناً يصل الى درجة الكُفر، كان ابي يتحكم بمصير قبيلتنا وقريتنا وهو يسكنُ في (كابل)، لهُ العديد من المراسلين والاتباع يأتون ويذهبون كل يوم من (قندهار) الى (كابل)، كان على من يريد رؤيته ان ينتظر لأسابيع، او لأشهر، إلا انه كان مواظباً على الذهاب كل يوم جمعة الى القرية لإلقاء (خُطبة الجمعة) على اتباعهُ الذين كانوا بحاجةٍ دائمة لمن يُطمئَنهم بأنهم على النهج الصحيح وأن حسناتهم في تزايد مُستمر، لا شك في ذلك بعد ان اخبرهم بأن جلوسهم امامه وإنصاتهم لخطبتهِ فيها الاجر العظيم، فضلاً عن سيرهم الى المسجد بخطواتٍ عديدة وفي كل خطوة منها حسنة وكل حسنة بعشر امثالها، هكذا كان يقول في بادئ خُطبته، فأرى الطمأنينة

على وجوه المُستمعين، هم فرحين جداً لأنهم سيدخلون الجنة، اذهب معه مُرغماً الى القرية لأنصت لخطبته، أرى الاعداد الوفيرة التي تأتي من كل أطراف القرية ومن خارجها للإنصات له، اراهم يأتون بعقولٍ فارغة يحملونها كما يحمل الطفل الوعاء، يرفعونها بأيديهم الى الأعلى وهم يجلسون في المسجد كي تمتلئ قَدر المُستطاع من كلام ابي، كُنا في عصرٍ يُسمى بالعصر الحديث ولا تزال العقول تخشى التفكير، تخاف إلّا تكون افعالها لا تُرضي الحاكم، فالحاكم هو ظل الله بالنسبة إليهم، اما عن ابي فأن الامر مُختلف، فهو ليس ظل الله فحسب، بل هو المُحيي المُميت، الواهب المانع، القادر على كل ما يقوله، كان كذلك لأنهُ كان يضع الاحكام الفقهية على كل الأفعال حين يأخذ دور القاضي بعد نهاية إمامتهُ للصلاة في كل يوم جمعة.

اصبحتُ في عمر الصِبا وصرتُ اجلس في الصفوف الأخيرة في خطبته، كانت غايتي رؤية رد فعل المُستمعين، احلم بيومٍ أرى فيه شخص يسألهُ عن مصدر حُكم او عن سند فتوى معينة، احلم بأن أرى أحدهم يُعقب على قوله، بقيت احلم ولم أرى أحد يسأله، بعد نهاية الصلاة، وبعد ان ينهال الجمع الذي كان يصغي لأبي على تقبيل كف يده والتبرُك بعباءته، نذهب الى أحدى بيوت كِبار (قندهار)، كانت مسألة استقباله عادةً يتداولها كبار المدينة، نجلس امام وليمة لا يتمكن من تناولها عشرون شخص، كان عددنا في الغالب لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ولكن مكانة ابي في مجتمعه تقتضي البذخ والتبذير، نجلس في كل مرة وأنا انظر لأبي بغرابة، لأنهُ يقول ما لا يفعل؟ سمعتهُ على المنبر يوصي المُصلين قائلاً: {وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[14] أوصاهُم ايضاً: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[15] انظرُ لهُ فيُخيب ظني بهِ، اتساءل دائماً، لما

[14] القرآن/ سورة الأعراف/31

[15] القرآن/ سورة الاسراء/27

المسلمين لم يمنحوا الأهمية ولم يُدونوا الحدود ولم يفرضوا التعازير بشأن الاسراف والتبذير إسوةً بالربا والسرقة؟ ألم يمنع الله الإسراف والتبذير بآيات قرآنية؟ ألم يسبق فعل المنع أداة (لا) الجازمة حالها كحال بقية المُحرمات الواردة في القرآن؟ ألم تستوفي (لا) الجازمة الشرطين الواجب توافرها ليكون الفعل (مجزوم)[16] تساءلت لمَ لم يتعاملوا معها كبقية المُحرمات الوارد ذِكرها في القرآن؟ ولكنني حين رأيت ملامح الغِبطة على وجه ابي وهو وسط هذا الكم من التباهي والافتخار عَرِفتُ الإجابة.

ينتهي ابي من الطعام فننتهي معهُ على الفور، كان لا يرضى ان يبقى احداً منا من بعده جالساً إذ وقف، يجلس ليتداول شؤون القرية، يجلس على انفرادٍ ولا يجعلنا نسمعه، اختلست السمع ذات مرة فسمعته يأمر بإقامة حد السرقة على احدهم، أوصى بقطع يدهِ من مرفقها، كان حديثه مع مشايخ القرية، ظل ذلك الموقف مُعلقاً بذاكرتي ولم انساه، حَداً أوصى به كباقي الحدود دون أن يسمع من الفاعل شيء، كان يستمع الى كبار القرية فقط، اراهم وكأنهم يستأذنوه في إقامة الحَد ليس إلا، يطلبون أحكاماً شرعيةً تُناسب ما يرومون فعله، كان لا يتردد في سرد الاحاديث النبوية وأقوال الاسلاف في كل قرارٍ يعطيه، لم اراه يوماً يتكلم من دون دليل او سند فقهي، ولكن عن أي فقه يتحدث وأساس البُنيان خاطئ، بلغتُ من العمر ما يكفي لأن تبلُغ افكاري درجة التفكُر، بدأت ابحث وأتساءل لمَ كُل هذا، لمَ هذا الظُلم؟ لمَ لا يسأل ابي عن السارق قبل ان يأمر بقطع يده؟ لمَ لا يسأل عن مستواه المعيشي ومقدار دخله؟ لمَ لا يسأل عن ماهية ما سرقهُ؟ هل سرق الطعام ام شيء اخر؟ لمَ يأمرهم بأن يقيموا الحد في السر وليس امام أنظار الناس والدولة؟

سمعتُ صوتاً يقول لي: لمَ لم تَطع اباك؟

[16] الشرطان هما ان لا يفصل بين الـ(لا) والفعل المضارع شيء وان لا تُسبَق الـ(لا) بـ(إذا) الشرطية.

عُدتُ من ذكرياتي الأليمة الى تلك الشجرة التي اتكئ عليها بعد سماعي لذلك الصوت، يسألني ذو الرداء الأبيض لمَ لم اطع ابي؟

سألتهُ: هل ستقول لي من انت؟

اجابني: كلا

قلت: إذا اردت التحدث معك كيف اناديك؟

قال: انا قرينك.

اجبتهُ بهدوء: يا قريني، انا لم أطعهُ لأنني ابغضه.

قال: لمَ تبغضه؟

قلتُ: لأنهُ ظالم، ظالم حد البشاعة، لم انس وجه تلك المرأة، ظل يلاحقني لأعوام.

قال: أي امرأة ؟

حدثتهُ عن امرأةً كانت السبب في أن اعيد النظر فيما أؤمن، كانت نقطة التغيير، بدأتُ بسببها اتفحص كل ما كنت اتبعهُ إتباع الاعمى ...

في يومٍ مُمطر، وقفت مع ابي بعد تجوالٍ صغيرٍ في القرية امام حُفرة وضِعَت فيها امرأةً كانوا يرمونها بالحِجارة، دفنوا نصف جسمها السُفلي وقيدوا ذراعيها، كانوا يرمونها بالحجارة ويقولون "فليغفر الله لكِ" لم اعلم ما الذي اقترفته، الامر غريب، كيف يضربونها ويدعون لها بالمغفرة في ذات الوقت! فعلت كما يفعلون، قال لي ابي: "إضربها لتكسب الأجر" ظلوا لدقائق يقذفُونها بالحِجارة وأنا معهم، ولكوني كنت اصغرهم تقربتُ منها وأنا مُستمرٌ بضربها، نَظرت لي والدم يخرج من فَمها، ضربتها بكل الحجارة التي كنت احملُها بيدي، حتى بقيت اخر حجارة، توقفتُ ومن معي عن ضربها بعدما رأينا رأسها يتدلى لجهة اليسار، صحتُ بصوتٍ عال: "ماتت، ماتت، الله اكبر" التقطت

انفاسُها الأخيرة وهي تنظر لي، تقربتُ منها لأتأكد من انها ماتت، نظراتُها لي ارعبتني، تقربت منها، وجدتُ رأسها قد تهشم قليلاً، نظرتُ في عينها فرأيت دمعة على طرفها، نزلت وأنا انظر لها، كان موقفاً شديداً على عمري، لم تُفارقني تلك النظرة ابداً، بقيتُ لثوانٍ انظر لوجهها بدهشة، حتى اخذ ابي بيدي وسرنا بعيداً عنها، سرنا وأنا التفت لها حتى ابتعدنا.

يسألني قريني: هل كُنت تعرفهُا؟

قلت: كلا.

قال: لمَ حزنتُ عليها إذاً؟

قلت: حزنتُ عليها حين اكتشفتُ بأنني ارتبط بها برابطة اسمى من روابط القرابة والقومية والعِرق، كانت تربطني بها رابطة (الإنسانية)، منظر دمعتها وهي مُعلقة بين اجفانها ظل بأذهاني، وقتها سألتُ نفسي وانبتُها، لمَ ضربتها؟ ألم يتوجب عليّ ان اعلم بجُرمها؟ وإن عرفتُ جُرمها، لم هذا الحُكم؟ اين الأدلة؟ اين الشهود؟ لمَ أنا من يُحدد عقوبتها؟ لم أكن بالغاً لسن الرشد بعد.

يسألني قريني: وبسبب ذلك كرهتُ ابيك، أليس كذلك؟

قلت: كلا، هذه كانت البداية، من هنا بدأتُ بالتفكُر، ثُم مضيت قُدماً الى ان وصلتُ على قناعةٍ تامة بأنني يجبُ ان أكرهه اشد الكُره.

ان تُخالف واقعك ومحيطك الذي تعيش فيه فهذا ليس بالشيء اليسير، صعب جداً ويزداد الأمر صعوبة منذُ البدء بالاستغراب من واقعك، وقتما تجد أنك على خطأ بعد مُضي سنوات من اتباعك لأشياءٍ كُنت تتبعها بقلبٍ هادئ وعقلٍ هانئ، موقفٌ عصيب وقتما تكتشف مُعتقداتك بأنها قد صِنعت من رمال شاطئ، هدمتها اول مُوجة تفكير فساوتها أرضاً.

وأنت على هاوية البحث في مُقداسات دينك، تجد نفسك بين خيارين، اما ان تبقى ضمن واقعاً كاذباً تشمئز منهُ نفسك لمُجرد أنك تعيش ضمن حيزه، أو ان تهوى وأنت لا تعلم ما سيؤول إليه مصيرك، ما الذي ستلقاه أسفل الهاوية، على الهاوية أنت بأمان لمجرد أنك تقرُ بالبقاء، ولكن ما ان تُقرر القفز فالأمر الى ما سيؤول؟ لن تعلم، حتمية الاحداث من حولنا تمنعنا من إن نهوى لِما بعد الهاوية، هكذا يقول لنا المجتمع، يقول دائماً بأنها حتمية، عاداته تخبرنا كل يوم بأن كل شيء حتمي وعلينا الالتزام بذلك، الدين اخبرنا ايضاً بأن كل شيء مكتوب في لوح القدر، ولكن ابسط سؤال يتطرق الى اذهاننا وقتها، ما الداع؟

ينعدم هذا السؤال حين يكون الداع قوةً ما في داخلنا تمنعنا من النوم، قوةً تجعلنا مستيقظين اغلب أوقات اليوم وعموم أوقات السنة، اما في حال عدم تطرق هذا السؤال الى البعض فأن حتمية الأمور ستقضي على أي تساؤل قد يتطرق الى اذهانهُم وستقضي القُدسية الممنوحة بُحكُم الدين على ما تبقى من نوايا للتساؤل، لأن الشك في أصول الدين وجذوره نوعاً من أنواع الكُفر، اما عن أولئك الباحثين عن الحقيقة، فلن يهدأ بالهم طيلة أيام حياتهم، لن يناموا النوم الهانئ، لن يتساءلوا عمّا ستؤول إليه نهاية الهاوية التي يقفون عليها لمجرد انهم مروا بالموقف الذي مررتُ به، لو أنهم رأوا اخر دمعة ذرفتها تلك المرأة، لعرفوا حجم الندم الذي انتابني وغلاظة السوط الذي جلدتُ به ذاتي، هؤلاء سيقفزون، كما قفزتُ انا، قفزت وسلمتُ امري لما سأكتشفه وللنتائج التي سأحصل عليها.

قررت إن لا أكون من عبيد ابي واقواله، إلا أكون ضمن القطيع الذي يتبعهُ، لم اكن اريد ان انشأ على شاكلته، لم اكن اريد ان أكون مثلهُ حين اكبر، أصبحت بسببهِ اكره كل شيء يفعله و أود ان افعل اضداد افعاله، من دون أي سبب حتى وان كنت غير مُقتنعاً، اردت ان انشأ صالحاً، ان أكون مسؤولاً عن جميع افعالي

بقناعةٍ وليس مُلقَناً بها، افعلها لأن الاسلاف فعلوها وهذا ان ثَبُت بالدليل القاطع، ولكن من أين لي بالدليل القاطع، وكل شيءٍ ابحثُ عنه اجدهُ من اقوال (فلان عن فلان)، لم اكن اريد ان أكون مثله .. عارياً بين الجواري.

قاطعني قريني مُتسائلاً بغرابة: هل كان لأبيك جواري؟

اجبتهُ بإستغرابٍ اكبر: انا لم أتكلم، كيف عرفت؟ الأفكار تُسرَد في خاطري فقط، أنا لم اتفوه بكلمة!

قال: لا تسأل عن كيفية ذلك، انا اشاركك كل شيء يمر على اذهانك هُنا، حتى وإن لم تخبرني به، انصت لعقلك الباطن، تكلم ان شئت، وإن شئت تذكر فقط، أنا بكلَتا الحالتين أسمعك.

قلت: ارجوك اخبرني ماذا تريد مني؟ لمَ تحتجزنُي؟

قال: ستعرف فيما بعد، ابق جالساً كما انت واخبرني، هل كان لأبيك جواري؟

قلت: نعم، كان لهُ جواري، تشاجرت معهُ ذات يوم بعد ان فتحتُ باب النقاش معهُ خلال حديثُنا لما بعد الصلاة، تحججتُ بأنني مررت بنقاشٍ انتهى بسِجالٍ مع احد المشايخ في الجامعة، كان بصدد احكام الجواري والإماء.

سألتُ أبي وقتها، وأنا اتصنع السذاجة: أبي، لمَ الناس منقسمين الى حُر وعبد؟

اجابني: الحُر من كان ابوهُ حُراً، والعبد من كان ابوهُ عبداً.

قلت: وما ذنب المولود عبداً لأن أباه كان عبدا هو لم يملك حق الخيار بين العبد والحُر ليختار أن يكون عبداً، الى متى سيبقى العبدُ عبداً؟

نظر لي نظرة إشمئزاز، قال: وما شأنك انت وشأنهم؟

قلت: ابحث عن إجابة لسؤالي فحسب.

قال: ولمَ تسأل؟ جعلتكُ تُكمل تعليمك في المدارس الدينية ثُم الالتحاق بكلية الشريعة الإسلامية في الجامعة، وفي النهاية تأتي لي بهذا سؤال! اين تعليمك في الفقه؟ ألم تقرأ عن فتوحاتنا الإسلامية؟ ألم تَطلع على امجادنا في إذلال بلاد الكفر والكُفار وجعلهم يدخلون الإسلام؟

قلت: نعم، اطلعت.

قال: عجيبٌ امرك، ألم تعلم ان غنائم فتوحاتنا كان فيها أسرى يتم اسرهم بحرب الفتوحات؟ هؤلاء هم من أصبحوا فيما بعد إتمام الفتوحات عبيدا وجوارٍ لنا.

نظرت لهُ لثوانٍ متواصلة، لم أجبهُ بشيء، بقيت انظر الى حجم الغضب الذي يخرج من عينيه وهو يتحدث. كان يُريد مني إجابة لا تكن وفق ما يعتقد لينهال عليّ بالضرب، استأذنت منه لأتركه، اصطنعت امراً لأنشغل به واذهب إليه، ظلت نظراته تُلاحقني وأنا اهم بالوقوف، بدأ يشعر بأني ليس على شاكلته، لكنهُ تأكد من ذلك بعدما ارسل شخصاً ليسأل عني في الجامعة، عَلِمَ بأنني لم اكن مواضباً على الدوام وكثير التغيُب عن الحضور لبعض ايام الأسبوع، لم اناقشهُ أكثر، منهجه كان يُحرم النقاش، لكنهُ كان غاضباً اكثر من أي مرة اراه فيها، في كل مرة ينهي نقاشه معي ليقول بأن الجدال عقوبةً من عقوبات الله في الأمة، مُستنداً لقول النبي: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"[17] ثُم يُعزز تحريمهُ للنقاش وهو يسرد الآية: {ما ضربوه لك إلا جدلاً}[18]

صَببتُ غضبي ليلتها في البحث في فهرس كُل كتاب يدلني على حُجية العبد والحر، اردت ان اعرف علامَ استندوا في ان يكون ابن العبد عبداً، نحن في القرن التاسع عشر الميلادي والثالث

[17] رواه الترمذي/ الحديث رقم 3253 - و ابن ماجه/ الحديث رقم 48
[18] القرآن/ سوة الزخرف/ 58

عشر للهجرة، هل تبقت فتوحات؟ لمَ لا يزال في منزلنا جواري وإماء؟ من أين اتوا بهن ولا توجد فتوحات؟ الغالبية في بلادنا تعتنق الدين الإسلامي، فمن اين مصدرهن؟

ابي يكذب ...

من اجل نزواتهِ يكذب، لا أرى أمر الجواري منتشراً بين مدن (افغانستان)، المُباح مُباحٌ لهُ فحسب، يتعاملون معهن بسرية، كل مرة نذهب فيها الى قريتنا يتعامل ابي في شرائهن وبيعهن، لمَ لا يظهر للعلن؟ لمَ لا توجد أسواق لبيعهُن كما في السابق كما كان يفعل المسلمون حين يشتروهن ويكشفون عن اجسادهن امام عامة الناس؟ لمَ مدننا تخلو منهن في اغلب البيوت؟ لمَ هُن متوافرات في منازل الزُعماء فقط؟

ابي يكذب ...

بعدما قررت ان اضع ثقتي في (القرآن) وان اضع كل الشك في كتب الفقه، بحثت في كل الفتوحات، وجدت الآية: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}[19] وجدتُ الله يأمر المسلمين بأن يكون وضع الاسرى بين امرين، بحسب ما جاء بتفسير (الطَبري) الذي اقنعني تماماً، تفسيره جاء وفقاً لما ورد في النص وحرفياً دون ان يضيف حادثةً رويت عن فلان او يعطي تفسيراً لمفردات النص بحسب هواه، فسر الامر قائلاً: "إما أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداء بأن يعطوكم من أنفسهم عوضا حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل"[20] ولكن، من اين جاءت فكرة (الإماء)؟ بعد البحث ايقنتُ بأنها جاءت من تُراث مَن حَكمنا والذي سُميّ فيما بعد (بالفقه)، لم ينص القرآن على وجودهن، اشار الى وجود (مِلك اليمين) فحسب، إلا ان نزوات

---

[19] القرآن/سورة محمد/4

[20] انظر: كتاب تفسير الطبري/ تفسير سورة محمد/ الصفحة 155

من كان على شاكلة ابي فسر الامر (بالإماء) ليُلبي كل ما تفرضهُ عليه نزواته، ليعيش كما تعيش الخيول في الإسطبل متى ما توافرت شهوته يمارس الجنس، لا يكبتهُ شيء، بل بالعكس، وفر العديد من الحُجج والبراهين كي يضفي السند الشرعي لممارسة البَغاء، ليظن حين ينتهي من ذلك انهُ سيؤجر بالحسنات على ما فعله، لأنهُ طبقَ شرع الله الوارد إلينا من كتب الدولة الاموية.

يسألُني قريني: ما الفرق بين (مِلك اليمين) و(الإماء) ؟

اجبته: فسر الفقهاء الآية: {ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن و... وما ملكت أيمانهن}[21] بأن مِلك اليمين هي تلك التي يتم اسرها في الحرب لتبقى جارية وتلد الجواري والعبيد، تغاضوا عمّا جاء في الآية: {فما الذين فضلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم}[22] تجاهلوا بحكُم عطشهم الجنسي بأن (مِلك اليمين) هو كل من وقع تحت الرعاية والإشراف والمسؤولية، ولشدة هذا العطش لم يكتفوا بأمتلاكهن فحسب، بل تجاهلوا كل قيد او شرط يحدُ من هذا الامتلاك، كأن يكون عدداً محدداً او منحهُن بعض الحقوق، او جعل امتلاكهن وفق قيودٍ او التزامات، جعلوهن كأدوات المنزل، يمكن لأي منهم امتلاكها لمجرد انهُ شارك في الحرب، له ما يشاء منهن دون ان يرتبط بعقد، ما عليه سوى ان ينظر الى بطنها ان كانت حاملاً منه أم لا، فأن كانت كذلك فأنهُ لا يهبُها ولا يبيعهُا ولا يُعيرها لأحد، فهذا الشيء مسموح لطالما انه سيدها ومالكها، وإن لم تكن حُبلى، فالأمر جائز.

يمتلك الفقه حُكماً لوجود (مِلك اليمين) ورد في أقوال السَلف، جاء في كُتب السيرة بأن (عمر بن الخطاب) قال بأنه كان جليس النبي وطلع عليهم رجل بشعر اسود وثياب بيضاء اتضح فيما بعد بأنه (جبريل) يخبرهُ بأن من امارات الساعة (أن تلد الامة

---

[21] القرآن/ سورة النور /31

[22] القرآن/سورة النحل/73

ربتها)[23]، وبغض النظر عن وجود (جبريل) ومجيئهُ بهذا الشكل، إلا انهم أستندوا لوجود (الامة) بهذا الحديث كما استندوا لوجود كلمة (نكاح) تسبق (مِلك اليمين) ليكون مُباح، مُتغاضين عن ان كلمة (النكاح) في القرآن ذُكِرت للزواج المشروط بعقدٍ وليس (النكاح) هو مجرد الاتصال الجنسي والدليل في الآية: {إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن}[24] كيف يمكن ان يكون (نكاح) دون مساس! تغاضوا ويتغاضون كلما مس الامر مُتعتهم التي جاءت تجارة مع الله، وما انفع هذه التجارة، الربح والأجر فيها وفير وضمان الجنة أكيد والتمتع بدار الفناء مُباح، في اعتقادهُم الحياة دار فناء ولا يتشبث فيها إلا امثالهم، شرَط الله عليهم في القرآن بأن يكون تعدد الزوجات بسبب، والسبب وهو ان يتزوجوا بُغية إيواء وتربية اليتامى، شرط عليهم بأن يكون هنالك يتامى كي يتمتعوا بأكثر من زوجة، ولكنهم فسروا الامر كما تحلو الحياة لهم، وبحسب حُب التملك المُتوارث منذ العهد الاموي، صار لهم مثنى وثلاث ورباع دون قيد او شرط، اقتطعوا الجزء المفيد من الآية وتركوا الباقي.

يقول قريني: هنالك قواعد للغة العربية أنت غير قادر على فهمها بالكامل، الفقهاء فسروها بأنها كذلك، لمَ انت معترض؟

أجبته: {وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا}[25] لم يثير اهتمامهم وجود أداة (إلا) او أداة (أو) لتخيرهم بين الزواج بواحدة او (ملك اليمين)، مُتعة الزواج بأربعة اعمت بصرهُم وبصيرتهم.

رددتُ مُجدداً، ابي يكذب ...

---

[23] انظر: كتاب (جامع العلوم والحكم) لأبن رجب الحنبلي/2001 / الصفحة 93-94

[24] القرآن/ سورة الأحزاب/49

[25] القرآن/ سورة النساء /3

ليس هناك في الدين جواري ولا عبيد، انهى الإسلام العبودية حال انتشاره وساوى بين السيد وعبده، إلا ان هذه المساواة لم تعجب من أسَس (فقه الإسلام) ووضع اول كتاب سيرة نبوية بعد اكثر من (130) عام من وفاة النبي واتلف كل ما كُتِبَ او شُرِع او أُرِخ من قبل كي لا يعارض ما أراد لهُ ان يكون بمفرده، كل ذلك كان في عهد الخلافة الاموية.

ابي يكذب ...

يكذب كي يكون برفقتهن بتلك الغِبطة المملوءة بالنشوة، كم كنتُ اكره سماع صوته وهو يذهب معهن للأغتسال، اتخيله عارياً بينهن دون ان يعترض عليه احد، يتوجب عليه ان ينجب الكثير من العبيد والجواري كي يخدموه ويخدموا أولاده من بعده، هكذا تقول نساءه الأربعة اللائي في بيتُنا.

يقول قريني: اهدأ، لا تصرخ.

قلت: لم اكن اصرخ، كنت افكر فقط.

قال: كلا، كنت تصرخ.

قلت بإنفعال: قلت لك لم اكن اصرخ، كنت افكر فقط.

قال: كنت تصرخ، انت لا تشعر بنفسك حين تسرد افكارك، انت ترجع من هذا العالم الى العالم الذي كنت تعيش فيه في الدقائق التي تستذكر فيها حياتك.

اجبتهُ بغضب: لمَ لا تلتفتُ لي؟ اريد معرفة من انت.

قال: ليس الان.

تركتهُ غاضباً وسرتُ بعيداً عنهُ بخطوات، لم تُوقفني السلاسل التي تتشبث بيدي، سرتُ باحثاً عن إجابة لكل سؤال في خاطري، اين انا؟ ولمَ انا هنا؟ وكأني أتجول في متجر عمر الصِبا، أختار ما يتسنى لي من الذكرى، اسردها وأنا أتألم، أتألم كثيراً، لا ألم فاق

حدود التعبير غير ألم فراقها، حبيبتي، تلك التي تُغرد كُل عصافير الوطن حال استيقاظها عند الصباح، تتساقط مليارات النجوم لو وضعت الكُحل حول اجفانها، تمايُل خصرها فيصلاً بين الهداية والغواية، نظراتُها معطف اضعهُ على كتفي في الليلة الماطرة، اسيرُ بخطواتٍ نحو التيّه وأنا افتقدُها، كنت برفقتها اجمل، كنت املك الدنيا بما فيها، كنت في غنى عن كل من كان عليها، اختصرتَ الخَلق بأكمله حين خُلقت، جميلة وجمالها يأسرُ كل ناظر، اسير بخطواتٍ تفتقدُها، كانت برفقتي كل يوم، قضيتُ برفقتها أيام لم اقض كمثلها أيام، كنت برفقتها انسان، قبل ان يقتَلُ فراقُها ذلك الانسان الذي عاش بداخلي؛ قبل أن يشنُقني غريباً فكُّ ضفائرِها ولفها حول شرايين قلبي، ما كان لي من وقت إلا واختليتُ بها من جور ما حولي، ما فكرتُ لبرهة من الزمن إلا وكان ذِكرُها جُل افكاري، شَعرها وهي تدفعهُ وراء اكتافها، وهي تلتفتُ لي حين احدثُها، لحظاتٍ تُثير الدهشة، النظرُ لملامِحها وهي تتحدث كالنظر لأمواج بحرٍ وهي ترتطم، رؤيتها عند الصباح كانت كأبيات شعرٍ في حب الوطن لشاعرٍ فلسطيني يُندد بمن احتل وطنه.

كان مُجتمعنا آنذاك يحترم الحُب، ولكنني نشأتُ في منزلٍ ينعت الحُب بشتى الالفاظ النابية، يختم كلامهُ حين يتحدث عنه بوضع الحكم الشرعي له (بالمُحرم)، كانت الحياة جميلةً جداً بغض النظر عن وجود أولئك الإسلاميين الذي فهموا بأن (التدين) هو الابتعاد عن الحياة وليس الابتعاد عن المُحرمات، كنت أعيش حياتين مُنفصلتين في آنٍ واحد، كان هناك ثمة حاجز اجتازهُ كل يوم وأنا ذاهب لألتقي (بمريم)، أعيش في بيئتين، احداهما اراها في البيت والأخرى كانت تحيط بي في الخارج، كانت أوسع منها لأنها ضمن عالم يواكب الحداثة ويواصل ما توصل إليه العالم من ثقافة وعلوم، كنتُ حلقة وصل بين بيئتين تبغض احداهما الأخرى، كان مُجتمعنا في الاغلب، اما (شيوعي) يدّعي

التطور، مستعد للدفاع عن أي فكرة لمجرد انها تُعارض دين (الإسلام)، على اهب الاستعداد لمُعارضة أي فكرةً او مبدأً اقرهُ (الإسلام) ضمن مبادئهِ، وأما (إسلامي متشدد) يُعارض اي فكرة مجرد انها لم ترد في كتب السلف الصالح، يتبنى أي مبدأ ارتبط انبثاقهُ مع قصةً لأحد الصالحين، لتكن على شكل (حديث نبوي)، يُدافع ويتبنى أي فكرة تكاد من شأنها ان تهد اركان الإسلام جمعيها في إيمان شخصٍ لمجرد انهُ يقرأها، كما حصل معي، ينتابني ندم كبير لأني اشتركت في رجم زانية بحسب حكم الرجم في (الإسلام)، ظل سوط الندم يؤلمُني فأمكثُ طويلاً بين طيات الكُتب لأجد دليلاً واحداً يبرر فعلتي برجم تلك الزانية التي لم تفارق دمعتها اذهاني، بحثتُ كثيراً بين طيات الكُتب وبقيتُ طويلاً مُعلقاً بين رأي مؤيداً ومُعارض، وجدتُ ضالتي حين قرأت في (صحيح البُخاري) ما رواهُ عن (عمرو بن ميمون): "رَأَيْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قِرْدَةً اجْتَمَعَ عَلَيْهَا قِرَدَةٌ، قَدْ زَنَتْ، فَرَجَمُوهَا، فَرَجَمْتُهَا مَعَهُمْ"[26] عرفت وقتها أن حد الرجم جاء استنباطاً من حادثٍ وقع بين قردة!!

بين هاتين البيئتين، حائراً لأيهما انضم؟ ايهما اتّبع وكلاهما خاطئ؟ كيف انفصل عن بيئة ابي وهو بهذا الحجم من النفوذ والسلطة، كيف لي ان اسير عكس اتجاهه، اضحيت جسداً بلا روح، قلباً بلا نبض، اضحيتُ بلا مأوى لولا وجود (مريم) في حياتي الشاردة، كانت ملاذي الامن، كنتُ اراها خِلسةً لئلا يراني ابي او احد أولئك الذين يقَبّلون يده بعد كل صلاة، كنت اخرج من البيت الى الجامعة وأنا اشعر بأن هنالك من يترقبني، تُراودني كثيراً فكرة أن ابي وضع عليّ رقيباً يتتبع افكاري، لم اعد التحق بمحاضرات كلية الشريعة الإسلامية، تركت الدوام بشكلٍ تام، قررت ان اواجه ابي بذلك، ولكن انتابني الخوف حين فكرت في القول لهُ صراحة بأنني لم اعد اريد دراسة.

[26] انظر: صحيح البُخاري/ رقم الحديث 3849

مرت الايام ولم يقلُ لي ابي شيء، اذهب الى الجامعة لألتقي (بمريم) واجلس برفقتها لساعتين او اكثر ثُم أعود ادراجي وأنا امتلك من الفرح ما لم تمتلكهُ الأمهات الاسرى لحظة إيقاف الحرب، كنت اقطفُ لها الورد في كل صباح، وفي كل مرة أرى غصن الورد يلوي نفسهُ لحظة اهدائي إياه لها، لينظر لها، لهُ الف عذر لئلا يُصدق جمالها، كان كذلك وهو بين يديّ وأنا اقدمهُ لها، تبتسم وتأخذهُ مني، فأرى الغصن الصغير يرفع رأسهُ الى الأعلى، تتجه الوردة نحوها لتبقى مفتوحة (التُوِّج)، تنظرُ لوجهِها الحَسِن، انهاراً من الرقة تنحدر من اطراف مبسمِها، تمنحني وافر الامل وأنا جليسُها وسط هذا المجتمع المُتباهي بالجهل والفقر والعبودية، كانت اول مَن يبتسم بوجهي الكامد المُلتحي، لم التقي بغريبٍ قبلها إلا ونظر لي بهاجس الخوف، (الغريب) هو كل من لم يكُن على شاكلتنا، مُلتحي وذا رداءً إسلامي، ابتسمَتَ لي لتمنحُني موانئ الطُمأنينة لترسو عليها سُفن امنياتي، لطالما كانت لي المرفأ كلما هربت بقارب العقل من واقعٍ جاهل، احتوتني وأنا تائه بين الشك الذي زرعته بأفكاري تلك الكُتب والبحوث التي كانت في القبو وبين الإيمان السادي الذي اورثهُ لي ابي بحكم تعاليمه وسوطه.

وقتما جلسنا برفقة بعض للمرة الأولى، كنت في حيرة من اين ابدأ، الحيرة الأكبر كانت كيف ابدأ، كيف لي ان ازيح كل ما أنا على هيئتهِ لأعرفُها بنفسي التي باتت ضد نفسي، ظلت تُحدقُ في عيني وأنا أحدثُها، لم تنظر الى أي شيء من حولي سوى عيني، منحتني القوة لأفصح عمّا اريد، منحتني الأمان، منحتني حياة، تلك الحياة التي كنت اتوق لعيشها بعيداً عن الكبت والوجع، اردت ان تكون شريكتي في العقل والروح لتكون بعدها زوجتي، وليس آلة انجاب مكَسوةً بالسَواد، كانت بإنتظاري، في ذلك المكان الذي اخبرتُها بأنني سأنتظرُها فيه، احمل بيدي كتب الفقه لأتظاهر لو صادفني احداً من اتباع ابي بأنني ذاهب كعادتي

الى الجامعة، جلست بقربها، نظرتُ الى عناوين الكتب ثُم وضعتها بقربي، خجلت منها كما اخجلُ من مظهري وقيافتي التي لا تواكب الموضة، لأنها بُدعة، كنت ضئيلاً امام اناقتُها.

قلت لها: أنا (أمين).

قالت: مرحباً بك، انا (مريم).

ثوانٍ من الصمت بيني وبينها جعَلتَنا نتبادل الابتسام، حركت رأسها بشكلٍ مائلٍ ثُم ابتسمت ابتسامةً اشد اثارةً من تلك التي سبقتها، كررت ابتسامتها فأصاب مجرتنا الكونية صُداعاً شديداً، تبعثرت خطوط الزمن وارتطمت الكواكب بعضها ببعض، شِكل وجنتيها وهي تبتسم أوجد اختلاف كبير في حساب السنين الضوئية بين كوكبنا وكوكباً اخر لم يُكتَشف بعد، اختلف الزمن الذي سبق ابتسامتها عن الزمن الذي تلاه، جعلتني ابوح بكل ما اردت كبتهُ عنها، وجدتُ نفسي أحدثها بحُريةٍ تامة، لم تقاطعني، انصتت لي وكأنها تريد ذلك، لم تكن مُرغمة على شيء، لم تكُن لي الاعجاب كما كنت اكُن أنا لها، ولكنني فرضتُ ذلك بعدما مَنحتُ لها الثقة لأخبرها عن اسراري، حدثتُها عن كل ما كان يخيفني، عن كل ما كنتُ أخاف ألا اخبر بهِ احداً، وحين انتهيت، اخبرتني بأني انسان جديراً بالاحترام والتقدير، انهيتُ حديثي دون أن اتغزل بها، وهذا اجحاف صريح بحق جمالها، أنا حتى لم اخبرها عن اعجابي، حدثتُها مُنتهزاً لكُل لحظة مرت عمّا ظل جاثماً على صدري طيلة تلك السنوات، لم اعلم السبب، هل كان شعوراً لا ارادياً مني لأوّضح لها بأنني لستُ كما تراني؟ ام حِقداً مني على واقعٍ يُحيط بي وما إن وِجدتُ فرصة لأشفي غليلي منه؟ لمَ فعلتُ ذلك؟ لم اعلم السبب، كان لقاؤنا مُثمراً، بَقيَت بصمات جمالها على روحي ولم تزل الى الان، أتذكر ملامحُ وجهُها جيداً، انصتت (مريم) لروحي قبل الانصات لكلامي، هكذا قالت لي حينها، قالت لي ايضاً انها التقت الشخص الذكي المُناضل من اجل مُعتقداته، ولَكم يعجبها الرجُل الذكي، قالت كذلك ايضاً.

على مَر لقاءاتنا، حدثتها عني وعن نشأتي المُظلمة والمحشوّة بالجهل والخُرافات، حدثتها عن ابي فتعجبت كثيراً حين عرفت بأنني أبن الزعيم الديني الكبير (حميد الله)، تعجبت من نفوري من هذهِ السلطة التي نمتلكها والتي تفوق قوة سياسيي الوطن، تعجبت من نفوري من الجاه والمال اللذان في حوزتنا، تعجبت من كُرهي الشديد للترف الذي نحن عليه، حدثتُها عمّا نملك من ارواحٍ وبشر، بأيدينا نحييهم وبأيدينُا نمُيتهم، تَعجبَتَ لأنها من (كابلَ) ومسألة (العبودية) ليست بالشيء المُعتاد، إلا ما ندر، (العبودية) تُمارس بالخفاء، ولكنها في العلن في القرى البعيدة عن مواكبة التطور، القُرى والمدُن من غير العاصمة لم تكُن عِرضةً للحداثة والتطور، مُنغلقة على الدوام على ما يسردهُ زعيمها الديني او القبلي، يفعلون ما يقولهُ تجنباً للسخط في الدنيا والآخرة، حدثتُها عن القبو الذي كنتُ ادخله خِلسة، حدثتُها كيف كنتُ اراه كنزاً لا ينضب، مكان غيّر مجرى حياتي، منحني عقلاً بدل ذلك العقل الذي خطفهُ ابي مني، منحني حُب القراءة والبحث والإطلاع كي اسير مرفوع العقل، منحني العلم الذي مكنني من ان اواجه به خالقي حين يُحاسبُني عمّا فعلتهُ في حياتي، اواجه حِسابي وأنا لستُ خائفاً، قدر تعلق الامر بأيماني بديني ومعتقداتي وكل ما ارتكبتهُ بموجبِها.

كان القبو عبارة عن صناديق مملوءةً بالأوراق، بعضها مُتسلسل وبعضها الاخر مُبعثر، قمت شيئاً فشيئاً بجمعهُا وقراءتها، احتوى في الغالب على كُتبٍ علمية كُتِبَ عليها (ممنوعة من النشر والتداول)، احتوى ايضاً على مقالاتٍ وبحوثٍ تناقش احكام الدين وتُقارنهُ بالعِلم وبأدلةٍ غريبة، الغريب اكثر، ان جميعها لا تحمل اسم، لم اعلم وقتها من كتبها؟ ولمَ هي في بيتنا ونحن اسرة متشددةً لدين الإسلام؟ هل يعلم ابي ما يوجد في هذا القبو؟ أم انه لا يعلم؟ احتوى منزلنا الكبير على الكثير من الغرف والخدم والحرس، لم تكن ولادتي فيه إلا انني نشأتُ فيه بعد ان

انتقلنا للعيش فيه، سمعت انهُ كان لعمي، ذات مرة رأيت لهُ صورة صغيرة بين طيات كتابٍ أخذها ابي مني عنوةً، لم يكن يسمح لنا بالسؤال عنه، لم يخبرنا عنه شيئاً.

كان (جدي) احد كبار قبيلة (البشتون) في عموم (أفغانستان)، إلا انه وفي أواخر أيام حياته تمكن من عزل جزءً من قبيلتنا عن بقية قبيلة (البشتون)، وبعد وفاته تولى ابي شؤون القبيلة ولكن على نطاقٍ أوسع، تمكن ابي من أن يُنشئ تكتلاً دينياً كبيراً لا يضم قبيلتنا فحسب، بدل ضم الكثيرين بحكم وحدة الدين الاوسع نطاقاً من وحدة القبيلة، اصبح فيما بعد احد اكبر زعماء (أفغانستان) ومن القلائل الذين يمتلكون زمام عقول الناس وأرواحهم وأملاكهم، اصبح لهُ حرساً على أبواب المنزل وخدماً وإماءً وجواري وزوجات اربع، حين كنتُ في مرحلة الصِبا، كان ابي مُتزوجاً من اثنتين، تزوج بعدها أثنتين ليستنفذ كل ما منحهُ الرب من رخصة في التمتع الجنسي وإنجاب اكبر عدد من المُغيبين عن الواقع بحُكم عظمتهُ ومكانتهُ، كان يفكر في كيف لهُ ان يضع خليفتهُ من بعده، كنتُ انا غايتهُ الوحيدة وشغلهُ الشاغل لأنني كنت اكبر اولادهُ من الذكور، يمتلك صبيين اخرين كانا يصغُراني ببضع سنوات، كان لهُ الكثير من البنات حتى بات غير قادراً على حفظ اسمائهن، كنتُ في عُزلةٍ نسبيةٍ عن كل هذه العائلة الكبيرة، بعدما اضحت القراءة منفذي الوحيد للطمأنينة، الاجتهاد في دروس الجامعة كان ذريعتي، كان ابي من اشد المُرحبين بهذه العزلة ظناً منه بأنها كانت تصنعُ مني رجل دين قَيماً مثله، ارادني ان اتقن الفقه وكل ما قالهُ الفقهاء لأكون سندهُ في تخدير قبيلتنا واستمرارهم في اتباعنا اتباع الاعمى، من اجل ان ننعم بالجاه والمال اكثر، ومن اجل ان تكون تجارتنُا تجارة مع الله، وما اعظمها من تجارة، كانت تجارة (بالله) وليست معه.

سمعتُ قريني ينادي عليّ سائلاً: الى اين تريد ان تصل؟

انتبهت لنفسي وانا قد ابتعدتُ عنهُ والسلاسل تنحدر مني إليه، طالت بي الذكرى وأنا سائراً بأتجاه العدم، انظر الى ما حولي من سهلٍ اخضر وسماء واسعة، لا شيء استدُل بهِ عن هذا المكان، السكون ذاته، وكأن لا يوجد هُنا سوانا، أنا وقريني، اراهُ يجلس كما كان، عدتُ اسير بأتجاهه وأجيبه ...

ناديتُهُ: لا تخف، أنا لا أحاول الهرب.

قال بنبرةٍ ضحك: لن تتمكن من الهرب، لا يوجد مخرجٍ من هنا.

اجبتهُ: وكيف لي ان ابحث عن مخرج وأنا مُكبلاً بهذه القيود، أنا لا أتمكن من الابتعاد اكثر.

قال: تستطيع ان تبتعد قدر ما تشاء، لن تمنعك السلاسل، ولكنها ستعيدك الي.

قلت: أنا آتٍ إليك.

قال: لم أسألك عن طريقك، سألتُك عن أفكارك؟

وأنا عائداً بأتجاههِ، أرى بُركة ماء تبعدُ عني قليلاً، كان لونها كاللون السماء، زرقاء صافية، لا يحيطها أي شيء ولا يشوبها شيء، اتجهتُ نحوها ببطء افكر في إجابة لسؤالهِ وأنا أرى الدين كسِلالٍ تحمل فاكهة التفاح تُقدم الى الأنسان، سِلالاً احتوت على تفاحاتٍ فاسدةٍ واخرى طازجة، تُقدمها لك اسرتك بعد ولادتك، المشكلة انك لا تعرف الفاسد منها والطازج فكلاهُما مُتشابه اللون والمظهر، لن تتعرف على الفاسد منها إلا بعد ان تتذوقُ منها، إن حالفك الحظ ولم تكن من نصيبك تُفاحةً فاسدةً فأنك ستبقى مُعافى، تلتقط تفاحتك من سِلال اسرتك ونشأتك ولن تعرف الفاسد منها الى أن تُقرر المُقارنة بين أنواع التفاح في كُل السِلال، سيخبرك رجلُ الدين بأن الفاسد منها هو الصالح، سيخبرك إن تسممَت بأنهُ ليس تسمُم، سيخبرك بأن

وجع التسمُم ما هو إلا سمو الروح في أشد حالات التقوى، لكنك ستعلم الحقيقة، وقتما تُعلم بأن هُنالك أشياءً كثيرةً غير (التُفاح) تصلح لأن نقتات عليها، إن لم تُقدم الأُسرة الدين للإنسان، فسيُقدمهُ المجتمع عند نشأته وفق شِكل سَلّة التُفاح خاصتهم، في بعض المجتمعات المتحضرة يقدم لك المجتمع السَلّةُ بأكملها لتختار بحسب ما يملي عليك عقلك، لتختار الدين والمذهب الذي يوافق إيمانك وما تعتقد، اما في مجتمعاتُنا المُغلقة والرجعية، فأن الابوين والقبيلة هما من يمسُكان بهذه السلّة ويمُدان أيديهُما فيها ليختاروا لك منها تُفاحةً تُشابه التُفاح الذي اعتادوا عليه، المُشكلة أنك ستتذوق التفاح لأول مرة وستعتاد على تناوله، لن يحق لك اختيار، إن كانت فاسدة أو لم تكن، لن يُغريك طعم الصالح منها مهما تذوقت بعد نشأتك، وإن حاولت تذوق غيرها فأنهم سينهالوا عليك بشتى الالفاظ الذي تتسبب بالسخط المُجتمعي.

يسألني قريني: وهل تمكنتُ من أن تختار تُفاحتك؟

قلت: لا اعلم، أنا لا اذكرُ سوى ما حدثتُك عنه.

أنظرُ الى السماء لثوانٍ مع الصمت، اتنهد، استدركتُ قائلاً: لطالما كانت شخصية وأفكار (ابن رشد) تُعجبني، كنتُ اتبناها و اروم لنشر تعاليمها قدر ما استطعت وأنا أقرأ له، كان يتبنى فكرة فصل الدين عن العلم، تحدث عن الحقيقة المزدوجة قائلاً "إن العلم يستخدم أدوات العقل والمراقبة والدين يعتمد على الإيمان الغيبى فلا يجب أن يحاول أحدهما إثبات الآخر أو نفيه وإن للدين حقيقته وللعلم حقيقته فلا يجوز الخلط بين الحقيقتين" كان شخصيةً عظيمة، اثار انتباهي ودهشتي في تعريفهُ للشريعة قائلاً: "الشريعة قسمان: ظاهر و مؤول، والظاهر منها هو فرض الجمهور، والمؤول هو فرض العلماء، وأما الجمهور ففرضهم فيه حمله على ظاهره وترك تأويله، وأنه لا يحل للعلماء أن يفصحوا بتأويله للجمهور، كما قال علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما

يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله"[27] وجدتُ في القبو عدة مؤلفاتٍ له، وضّحَ لي الكثير من المفاهيم التي لا اكاد افهم تعريفها، قرأت ما كتبهُ عن (الروح) وعن (معرفة الحقيقة) فهو يقول بأن (الروح) منقسمة إلى قسمين: الأول شخصي يتعلق بالشخص والثاني فيه من الإلهية ما فيه، وبما أن الروح الشخصية قابلة للفناء، فإن كل الناس على مستوى واحد يتقاسمون هذه الروح و روح إلهية مشابهة، أما (معرفة الحقيقة) فهي نوعان ايضاً: الأول معرفة الحقيقة استناداً على الدين المعتمد على العقيدة وبالتالي لا يمكن إخضاعها للتمحيص والتدقيق والفهم الشامل، والمعرفة الثانية للحقيقة هي الفلسفة.

يقول قريني: أتعلم ما جناهُ (ابن رشد) من افكارهِ هذه؟ تم اتهامهُ بالكفر والإلحاد.

قلت: نعم، تم تكفيره وحرق كتبهِ ونفيه، انفاهُ (أبو يوسف يعقوب) إلى (مراكش) حتى توفي فيها عام (1198م).

يسألني قريني: كيف كانت تُفاحتك؟ هل كانت صالحة أم فاسدة؟

انتابني الصمت لثواني، أنا لا أتذكر شيء اكثر مما قُلت؟ وكأن ذاكرتي توقفت الى هذا الحد، ما الذي حصل بعد ذلك؟

سألتُ قريني بنبرة التعجُب: لما لا أتذكر المزيد؟

قال: اقترب وسأمنحك المزيد من الذاكرة.

قلت: وهل بإمكانك ذلك؟

قال: بالتأكيد، انت هُنا لتتذكر، لُتعيد فهم وإدراك كل ما فعلتهُ.

[27] انظر: كتاب (الكشف عن مناهج الأدلة) لأبن رشد/ الصفحة 99

وقفتُ على طرف بُركة الماء، انحنى رأسي وأنا أجلس القُرفصاء، اخذتُ بيدي القليل من الماء، رفعتهُ الى الأعلى لينزل على شكل قطرات مُتتالية في البركة، نظرتُ الى الدوائر التي تصنعُها القطرات حال مُلامستها للماء، سألتُ نفسي بغرابة، لمَ لا اشعرُ بالعطش! لمَ لا اشعر بالجوع! حتى أنني حين كنتُ اسير لم اشعرُ بأنني ابذلُ أي جُهد! لا اشعر بالتعب! وأنا انظر الى دوائر الماء وهي تتشتت رأيتُ وجهي ففزعت، تقربتُ من الماء بعدما ركد بشكلٍ تام، تفحصتُ وجهي فهلعتُ راكضاً نحو قريني، وأنا اركضُ، رأيتُ نفسي في غُرفةٍ بيضاء، توقفت عن الركض لأنظر الى اركان الغرفة فوجدتُ نفسي بذات المكان، على السهل الأخضر الساكن، واصلت الركض فوقفت خلف قريني، لم أتمكن من التقرب منهُ اكثر ...

وبرعشةِ خوفٍ هائلة، سألتهُ: لمَ أنا بعمر الشباب؟ لما وجهي بهذا الشكل وكأن لي عشرون عام؟ أنا تجاوزت الخمسين !!!

صمتَ ولم يُجيبني، كررتُ سؤالي بصوتٍ عال وبهلعٍ اكبر ...

اجابني بصوتٍ هادئ: أنت ميت.

الفصل الثاني

30/نيسان/1978 - انقلاب الشيوعيين على الحُكم.

كان صباحاً شيوعياً يتغنى بأغاني النَصر، استولى (حزب خلق)[28] على السلطة بواسطة زعيمهم ومؤسسهم (نور محمد تراقي)، تكللت جهودهم بالنصر بعد ان تمكنوا من تغيير الدستور الافغاني في عام (1977) ليضحى دين (الإسلام) هو دين الدولة، ولكن ليس وفق مذهب (الحنفية)، كما أشار الى العمل وفق القانون المدني أولاً ثم بالشريعة الإسلامية ثانياً.

شهدت العاصمة في صباح ذلك اليوم تغييراً لنظام الحكم، انتقالٌ كبير كانَ على هيئة فاجعة بالنسبة للإسلاميين الذي جاهدوا من اجل جعل الدولة الأفغانية دولة إسلامية بحتة ولكنَ اغتيال اليساري البارز (مير أكبر خيبر) صبيحة يوم19/نيسان/1978 أدى الى غضبٍ عارم اشعل لهيب غضب التجمعات الشيوعية في عموم (أفغانستان)، بعدما أشارت كل أصابع الاتهام الى الرئيس الافغاني آنذاك (محمد داود خان) والذي قام بدورهِ بإصدار أوامر قبض بحق قيادات الحزبين الشيوعيين في أفغانستان وهما (حزب خلق) وقيادته المتمثلة (بنور محمد تراقي) و (حفيظ الله امين) وحزب (برشام)[29] وقيادتهُ المُتمثلة (ببرك كارمل)، استطاع (حفيظ الله امين) من اشعال فتيل الثورة وهو مُحاصراً في منزلهِ، بعد ان اعطى أوامرٍ

[28] حزب خلق أو حزب الشعب باللغة البشتونية: أحد الحزبين الشيوعيين الحاكمين آنذاك.

[29] حزب برشام (پرچم) أو حزب الراية في اللغة البشتونية: أحد الحزبين الشيوعيين الحاكمين آنذاك.

بالإنقلاب على الحكم بواسطة اتباعهِ المؤيدين (لحزب خلق)، بالإضافة الى مُساندة اتباع (حزب برشام) الذين يلتَقون معهم بذات الفكر والنهج الشيوعي مقابل غريمهم الإسلامي المتمثل بأغلبية ما تبقى من المجتمع والذي كان اما مؤيداً للإسلاميين او مُلتزماً للصمت بحقهم، شهدت الساعات الأربع والعشرين اللاحقة لصباح ذلك اليوم سقوط (1500) قتيل ابان احداث الانقلاب، قام (نور محمد تراقي) بقتل الرئيس السابق (محمد داود خان) وأولاده (التسعة والعشرين) امام أنظار عامة الناس، قام بقتل أولاده امام انظاره ثم قتله أخيراً، ليعطي بفعلتهِ هذه ترجمةً واضحةً وفكِرة لما يكّنُه اتباع الحزب الشيوعي من حقدٍ على كل من خالفهُم الرأي في الأيام الماضية، وليعطي الدلائل الكافية لفهم ما سيحصل في قادم الأيام والتي سيكون فيها الشعب الأفغان ذا الأغلبية الإسلامية تحت طائلة حكمهم الدموي.

في الفترة السابقة، كان لنا حزبين شيوعيين لطالما طالبا بأن تكون لنا دولة مدنية يحكمها القانون الوضعي، متغاضين عن كون الشعب غالبيتهُ (مسلمة)، هذه الغالبية لم تكن غالبية المتشددين، كانت غالبية الانتماء لدين للإسلام فقط، إلا ان المتشددين كانوا الحاجز الأكبر الذي لم يتمكن الشيوعيون من تجاوزه، كان اصل هذين الحزبين حزب واحد وهو (حزب الشعب الديمقراطي) الى ان قام (ببرك كارمل) بالترشيح للانتخابات عن (كابل) عام (1965) ليؤدي ترشيحهُ الى اختلافٍ في التوجُهات ليقوم بعدها بتأسيس (حزب برشام) وليقوم بعدهُ بعامين (نور محمد تراقي) بتأسيس (حزب خلق) ليكون ندّاً له، ما لبث الامر الى العام (1973) ليستولي (محمد داود خان) على السلطة بعدما أطاح بأبن عمه ملك أفغانستان السابق (محمد ظاهر شاه) بعد سفرهِ إلى (إيطاليا) لإجراء عملية جراحية، ليقوم بحظر جميع الاحزاب الشيوعية وقمعها، حينها عاد الحزبين

للعمل سوياً مُستذكرين افكارهم الشيوعية وتوجهاتهم الماركسية التي تجمعهم حين يكون لهم عدواً واحد.

(وحدة العدو) غالباً ما تجعل السياسيين المُتنافرين اصدقاء حين لا يخطر ببالنا يوماً بأن تربط بينهم اي رابطة، إلا أن هذين الحزبين كانت وحدة المصالح هي الاقوى في ان تجمع بينهما من وحدة العدو، هتفوا في السابق من اجل حرية الفكر والمُفكرين وما ان استولوا على السلطة قتلوا كل من يُخالفهم الرأي، على مر التاريخ، اثبت هذان الحزبان صحة ما قالهُ الكاتب الفرنسي (فولتير): "عندما يكون الحديث على المال فأن كل الناس على دين واحد" كانا بقدر قصد هذه العبارة من إشارةٍ للطمع والجشع وحُبٍ أعمى للسُلطة.

حين تأسس (حزب برشام) اعلن صراحةً ولاءهُ وإتباعه المطلق (لموسكو) متناسياً انتماءهُ الافغاني ووطنهُ الذي ينتمي إليه ويعيش فيه، ذريعة تطبيق الافكار الماركسية كما تُطبقها (موسكو)، إلا ان هذه الاخيرة حين طبقت افكارها هذه لم تطلب منهُ تطبيقها في بلده، كانت تنظرُ لمصالحها وفق إستراتيجية حكومتها ووفق أمكانية تطبيقها على شعبها بما يحملهُ من قيم وعادات واديان وقوميات، (موسكو) لم تكترث لماهية تكوين مجتمعه، لا شيء كان يفسر تصرفهم هذا إلا انهم كانوا يرومون لأن يكسب حزبهم القوة بالفطرة منذُ نشأته الاولى، لاسيما وأنهم كانوا على اعتقادٍ تام بأن حزبهم ولِد من رحمٍ خصبٍ للأفكار والمبادئ، كما انه (وبالفطرة ذاتها) لهُ تجربة سابقة أنشأت دولة عظيمة وأن كل من يساورهُ الشك في الانتماء لهذا الحزب عليه ان ينظر الى (روسيا) بقدراتهُا وإمكانياتها واقتصادها وسِلاحها، لعلهُ لا يدري بأن هنالك جبالٍ من الجهل والرجعية تحيط بين احلامهِ وشعبه لتصنع في الوقت ذاته آلاف الاميال الفاصلة بين أيديولوجياتهِ (إن وجدت) وأيديولوجيات (روسيا)، ادى إعلان انتماءهِ (لموسكو) صراحةً الى توجه اغلب المنتمين

(لحزب الشعب الديمقراطي) للانشقاق وتأسيس حزباً اخر، وهذا ما فعله (نور محمد تراقي) بتأسيسهُ (لحزب خلق)، اسس حزبهُ منادياً بأن افكارهُ وأهدافه ونواياه (محلية الصُنع) مما جعلهُ يستقطب كل المعارضين للتشدد الاسلامي من جهة، ولمن كانت نواياه شيوعية إلا انهُ غير راضٍ عن (حزب برشام) لأنهُ سوفيتيّ وليس افغاني الانتماء من جهة أُخرى.

شهدت الأيام اللاحقة دماءً اكثر، قتلى اكثر، تشرد وهجرة وسجن وأحكام اعدام للقيادات الإسلامية التي كانت معروفة آنذاك، لم يطال الامر رجال الدين اللذين كانوا بمكانة الزعُماء خوفاً من اندلاع ثورة على اثر الاعتداء عليهم او على مكانتهم الدينية، ورغم ذلك أعلنت الجهات الإسلامية مقاومتها لهذا الانقلاب ولهذا الحكم الذي جاء بالقتل والأحكام التعسفية بحق كل من خالفهم الرأي، استغل (تراقي) الموقف لاحتواء مناوئيه من الشيوعيين اللذين يخالفونهُ التوجه قبل احتكار السلطة بتعينهم سُفراء لدولته، ليضعهم خارج (افغانستان) ويضمن عدم وجود أي تحرك لهم داخل البلد ليفكروا في الانقلاب عليه او على حزبه، قام بتعيين (ببرك كارمل) سفيراً في جمهورية (تشيكوسلوفاكيا) ليبعدهُ عنه، رغم انهُ لم يكن من حزبه، إلا انهُ فكر في إرضاء (حزب برشام) وإيصال رسالة لهُ بأن حكومتهِ احتوت الشيوعيين المناضلين في السابق ولن تنسى فضل أي شيوعي شريطة ان يكون غير (مُسلم) في العلن، كما انهُ اقنعهم بأن سبب تعيينهم خارج البلاد هو لإعطاء فكرة جيدة للحكم الشيوعي الجديد في (أفغانستان) وللحكومة الحالية ولتوجهُاتُها الماركسية وألا تبقى نظرة الدول لها كدولة ذا أغلبية إسلامية ظناً منهُ بأن (الشيوعية) اسمى من أي دينٍ، ولكي يمحو منظر الدماء التي سالت من أجل أن يأتي هو ومن بمعيتهُ من القَتلة الى الحكم، قضى (تراقي) على جميع القيادات الإسلامية، وبعد ان بَعدَ كل مناوئيه عنه، بدأ يشعر بصفاء الجو السياسي من حوله وتفردهُ

بالسلطة وخضوع جميع فئات الشعب له طوعاً وازدياد الاقبال على الانتماء للحزب الشيوعي لأنهُ الغالب لهذه الفترة، لاسيما وأننا اعتدنا على ان في كل شعوب العالم توجد هناك نسبةً كبيرةً من مواطنيها يميلون ويتلونون بحسب الحزب الغالب في كل فترة، هؤلاء هم الأكثر ربحاً والأوفر حظاً مع كل انقلاب او تغييرٍ مُفاجئ في الحُكم.

في صباح اليوم الذي شهد الانقلاب كان ابي قد وصل الى (بيشاور)[30]، لم نعلم كيف ومتى ذهب الى هُناك، استيقظنا بفزعٍ كبير من هول ما حصل في (كابل) ولم نجده، اخبرنا الحُراس المُرابطين على أبواب منزلنا بأنهُ لم يَعد في (كابل) وانهُ في مأمنٍ عما يدور من احداث، ظننت وقتها بأنه ذهب فاراً من انتقام الشيوعيين الموعود طيلة الفترة الماضية، وانهُ كان على علمٍ بما سيحدث فخاف ان ينتقم احداً منه فهرب، إلا انني فكرت جدياً في مسألة بقائنا في البيت وعدم تقرب أي من الانقلابيين الى منزلنا، الحراسة شديدة هنا لدرجة اننا مُنعِنا من الخروج لأسابيع، لم يُسمح لنا بالخروج خارج سور المنزل الى ان عاد ابي، عاد بعدما أضحت الطرقات اهدأ، بعد ان انتهى (حزب خلق) من كل انتقام كان يضمرهُ طيلة السنوات الماضية، كان لي املاً في السابق بأن الحزب الشيوعي لو حكم البلاد لَمِن الممكن ان يكون الجهل اقل، لمِن الممكن ان يكون الاقتصاد اقوى، لمِن الممكن ان تنتهي العبودية ويحثُ الناس بعضهم البعض على القراءة والإطلاع والبحث، إلا أنني، ومن فترة وجيزة تسبق الانقلاب، عرفت ان مُعظم اتباع الأحزاب الشيوعية كانوا يتبعون الفكر الشيوعي بُغضاً بالدين الإسلامي ليس إلا، كرهاً في اتباعهِ او الرضوخ لقيودهُ، لم يكن لديهم ادنى علم عن نظرية واحدة من نظريات (كارل ماركس).

[30] (بيشاور): عاصمة إقليم (خيبر بختونخوا) في (باكستان).

بدأ الوضع يصبح اصعب، أصبحتُ وكأنني (طلسم) يكتبهُ السحرة والدجالين، لا احد يفهمني، كرهت حياتي أشد الكُره، لم يعد لي املاً في البقاء على قيد الحياة، لا احد يفهمني، لا احد يفهم ما أقول، اشعر بأنني غريباً وسط دُنيا ولدتُ فيها من جديد، ظهرت انياب ابي كما أظهر كل المتشددين الإسلاميين انيابهم، حل وقت الجهاد في سبيل الله، جاء وقت حمل السلاح.

بجسدٍ عليل و روحٍ مُهترئة، أشكو أشتياقي لها، مر الكثير ولم التقي بها، ظهرت بغيابها هالاتٍ سوداء حول عيني، سهرت مراراً افكر فيها وفي هيئة مُستقبلنا الذي اضحى عديم الملامح، اشتقت لها، اتوق لرؤيتها، اريد التحدثُ معها، وكأني اشكو من مرضٍ لم يُكتَشف بعد، اسهر كل ليلة ما بين الخوف من مجهولٍ قادم وما بين الجلوس قرب الهاتف بأنتظار أي اتصالٍ منها، قُطِعت الاتصالات تارةً وتارةً عاودت العمل، وما بين الحين والآخر ابحث عنها، ابحث عن ذلك الجزء الذي سقط من جسدي.

أيقظني صوت ينادي: (أمين) (أمين) ...

فتحتُ عيني، وجدتُ نفسي نائماً على وجهي، أرى عُشباً قريباً من وجهي، هممتُ بالوقوف ولكنني لم أتمكن، أغلقتُ عيني وفتحتُها مُجدداً، وكأنني استيقظُ من حلمٍ عتيد، تذكرتُ (مريم) فهمَمتُ بالوقوف لأبحث عنها، اتقلب بين نار الاشتياق لها وبين نار الاحتياج، الشعور بالحاجة اقسى من الشعور بالاشتياق، شتانٌ ما بينهما، أن تحتاج لشخصٍ يعني أن عينيك لا ترى غير السواد، وأن تشتاقُ لمن احتجت فأنها ستؤلمك لو نظرتُ لغير الذي كنتُ تشتاقُ إليه، وقفت فوجدتُ ذات المكان، السهل الأخضر وأشعة الشمس الدافئة، كل شيء لا يزال كما رأيتهُ لأول مرة، رفعتُ رأسي ونظرت الى الأعلى، وجدتُ ذات الغيم، حزنت على فُراقها وعلى حياتي، تذكرت كل ما حدث هُنا، تذكرتُ بأنني ميت.

جلستُ انظرُ لقريني، يجلس كعادته، لم احدثهُ ولم يحدثُني لفترة وجيزة، بعدها ...

قال لي: كيف حالك يا (أمين)؟

قلت: أنا لستُ بخير.

قال: اعي ذلك.

بفمٍ مملوءٍ بالحُزن سألته: أين (مريم)؟

قال: لا اعلم، لكنها بخير.

قلت: انا لم أسألك عن حالِها، سألتُك عن مكانها، أين (مريم)؟

قال: لا اعلم، للتو اردتُ ان اسألك عنها، هل وجدتها بعد ان بحثتُ عنها؟

صرختُ بوجهه بغضب وأنا ارفع يدي: كيف لك ان تسألني هكذا! ألا ترى هذه القيود؟ كيف لي ان اجدُها؟

سمعتهُ يضحك، انتابنب الغضب، ركضتُ نحوهُ لأضربه، لم أتمكن من التقرب منه، وكأنني اصطدمتُ بحاجزٍ هُلامي.

صرختُ: لمَ تضحك؟ اجبني، ما الذي يُضحكك؟

قال: هل تظن ان هذه السلاسل هي التي تمنعك؟

لم اجيبهُ، نوبة الغضب ما زالت تعتريني ...

قال لي بذات الصوت الهادئ: أنت ميت.

عُدت خطوتين الى الوراء، جلستُ القرفصاء مُتكئاً على الشجرة ...

قال قريني: حدثني، كيف التقيتُ بها خلال تلك الفوضى؟

قلت بصوتِ حُنجرةٍ باكية: لا زِلت تستهزئ بي، أليس كذلك؟

اجابني: كلا، انا لا اود رؤيتك بهذا الشكل، اهدأ وستتذكر.

قلت: اخبرني، كيف مُت؟

قال: مُت كما تموت جميع المخلوقات، الموت مصير كل مخلوق.

قلت: ما هذا المكان إذاً؟

قال: هنا الانتظار، مكان وجِدَ خصيصاً للتَذكّر، تتذكر ما فعلتهُ في حياتك دون ان يحق لك وضع أي تغيير او تصحيح على أي شيء فعلته، تتذكرهُ فحسب، تَعدُ لهُ الإجابة لأنك ستُسأل عنه، هذا المكان أعُد خصيصاً لكُل مُنيب.

سألتهُ: هل أنت ميت؟

اجابني: بكل تأكيد.

اتكأتُ برأسي على يديّ وهي تُكاتف رُكبَتيّ، تنفستُ الصعداء دون ان تكون لي أنفاس، بدأتُ أتذكر ...

انشغل ابي وقتها عنّا تماماً، كان يقضي اغلب أيام الأسبوع في (بيشاور)، لم نعد نذهب الى القرية، عَينَ ابي خليفة لهُ هناك، كان يلقنهُ يومياً ما يجب ان يفعل، ضاعف ابي حُراسهُ عدة اضعاف، لم يعد يلقي الندوات والخطب كما في السابق، لم يعد الطابع اسلامياً للشارع الافغاني، إلا ان هذا الطابع لم يدم طويلاً، جلست معه ذات ليلة بعد ان انهى لقاءاته في البيت وتوجيهاته، كنت قد ابتعدتُ عنهُ كل البعد طيلة الفترة المنصرمة، لاسيما بعد ان منعني من الذهاب الى الجامعة، منعني من الخروج ايضاً دون حراسة، منع اخوتي من الخروج ايضاً، إلا انني خرجتُ مراراً دون علمه، جلستُ برفقتهِ أتساءل عن مصيرنا، ما الذي سيحدثُ في قادم الأيام، أخبرني بأن حُكم الشيوعيين لن يدوم طويلاً، ليس بتعلق الامر بمقاومتهِ ومُعارضتهِ من جانب الإسلاميين، ولكن قدر تعلق الامر بأنشقاقاتهم الداخلية التي

ستحدث في قادم الايام، قال لي بأن الانقلاب لا يترجمهُ شيء سوى ان (روسيا) تطرق باب (افغانستان) وتنتظر من سيفتح لها الباب ليسمح لها بالدخول، سألتهُ وقتها عن تلك الشخصية السياسية التي ستفتح الباب، أخبرني بأنهم سيتقاتلون فيما بينهم ومن سيبقى منهم على قيد الحياة سيُنادي على القوات المُحتلة ليحتلوا أرض الوطن، أكد لي بأنهم سيتقاتلون فيما بينهم في القريب العاجل وان مصير احتلالنا من قبل (روسيا) بات امراً محتوماً، هكذا يكون الامر غالباً حين تَحكُم فئة من بعد اضطهاد، كانت نظراتهُ لي تشوبها الغرابة، لم اعرف السبب، ولكنني عرفت ما كانت تقصدهُ تلك النظرات حين رأيتهُ يضع باباً جديداً للقبو، نزلتُ مُتخفياً في احدى الليالي فرأيت باباً موصدة تحمل اقفالاً جديدة حالت بيني وبين العلم، تأكدتُ وقتها بأنهُ عَلِمَ بأنني ادخل الى القبو من خلال بابهِ التي كانت سهلة الفتح، لم ادع الامر ينتهي بهذه السهولة، تمكنت من إيجاد منفذ للدخول، كان عبر نوافذ القبو المُطلة على الباحة الخلفية للمنزل، تمكنتُ من تحريك أحدى النوافذ الصغيرة وأعادتها الى شكلها دون ان يشعر احدٌ بها بأنها مكسورة، نجحتُ واستأنفتُ البحث، نمتُ ليلتها قرير العين بعد أن عاد لي ذلك البئر الذي يروي على الدوام ظمأ أسئلتي.

قلقتُ من الوقوف في منتصف الطريق، يلزمني الكثير من البحث، هُنالك الكثير من الخفايا اريد ان اعلنها لنفسي، الكثير من الكذب يقبع في عقلي مرتدياً رداء الحقيقة، الكثير من الحيل مرت عليّ من بين كتب الفقه بحاجةٍ لأن اكشف الاعيبها، اريد ان اعرف لمصلحة من تكون؟ من المستفيد من هذا الكذب ومن هذا التدليس؟ من الرابح الأكبر من هذا التاريخ المحشوّ بالقصص القصيرة التي لها اكثر من مؤلف؟

رغم كرهي لأبي إلا انني تعلمت منهُ ان أكون مُتقِناً لكل كلامٍ اتفوه بهِ، تعلمتُ منه لو أنني لاحظتُ القليل من الشك في كلامٍ

سأتفوه به فالأجدر بي إن لا اتفوه به، وقُتها سأكون ضعيفاً، سيغلبُ حجتي من كان افقهُ مني، سيغلبُني ايضاً من كنتُ انا افقهُ منه إلا انه واثقاً من كلامهِ لدرجة أنهُ على الاستعداد لأن يختلق الكذب مقابل إلا يخسر اصغاء من يستمع إليه، علمني ان رجل الدين يخسر كل شيء دفعة واحدة حين يكون ضعيفاً امام الضُعفاء، هم يريدون من يكون قوياً حتى يأسر إلهامهم، لن ينفع ان تقف مكتوف الأفكار حين تُسأل عن حُكمٍ شرعٍ غير واضح في كُتب الدين، هم حائرون، لهم آلاف الكُتب، ولكنهم لا يستطيعوا فتح احدها، يريدون حُكماً شرعياً لسؤالهم ولن يسألونك عن مصدر احكامك التي تأمرهُم بها، ايقنت صحة كلامهَ يوم قرأتُ حديثاً رُوي عن (ابي هريرة) يصف فيهِ ابنة النبي (رُقية) وهو لم يراها قط، لأنهُ دخل الى الإسلام بعد وفاتها بأربع سنوات، أنا على يقين تام بأن احداً ما سألهُ وأحرجهُ فأضطر لخلق إجابة، وإلا كان ليخسرَ كُل ما جناهُ من جاه آنذاك[31] الغريب ان فقه الإسلام نقل عنه لوحده ما يقارب (5374 حديث) اتممت قراءتهم وأنا أتساءل، من عاصر زمان النبي اكثر؟ من حدثهُ اكثر؟ هل جالس النبي اكثر من (الخُلفاء الراشدين)؟ إلا انني وقتما تذكرتُ كلام ابي توقفتُ عن التساؤل، رجل الدين لا يجب ان يقف مكتوف القصص حين يسألهُ احداً عن حكمٍ شرعي[32] قال لي ابي بأن رجلُ الدين يجب ان يكون عند حُسن

---

[31] اسلم (أبو هريرة) في اواخر السنه السابعة للهجرة أي سنة (628م) في حين ان (رُقية) بنت النبي توفيت بعد معركة (بدر) في السنة الثالثة للهجرة أي سنة (624م) وقد روي عنها حديث عنها جاء فيه: " دَخَلْتُ عَلَى رُقَيَّةَ - بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةِ عُثْمَانَ- وَفِي يَدِهَا مُشْطٌ" انظر: كتاب (فضائل الصحابة) لأحمد أبن حنبل/ فضائل عُثمان/ الصفحة 806

[32] نقلت الصِحاح الستة الأبرز لمؤرخي الحديث وهم (البخاري، مسلم، أبو داود، الترمذي، النسائي، ابن ماجه) عن (ابي هريرة) لوحده ما يقارب (5374 حديث) في حين نقلوا عن (ابي بكر) (142 حديثا) فقط، ونقلوا عن (عمر ابن الخطاب) (573 حديثا) وعن (عثمان بن عفان) (146 حديثاً) وعن (علي ابن ابي طالب) (586 حديثاً).

مُخيلة عقل المُستمع، علمني ألا اكبت رغبات المُستمع مرةً واحدةً، علمني ان اجعلهُ تدريجياً يستجيب أليّ، لأن كبت الرغبات يؤدي لانحراف السلوك، يؤدي الى بُغض المبادئ والقيم دفعة واحدة، علمني ان رجل الدين يجب ان لا يقول (لا اعلم) حين يستفتيه احد كما علمني ان أقول (والله اعلم) في نهاية اجابتي عند كل استفتاء.

في كُل مرةٍ كان ابي يُناقش فيها مسألةً فقهية كنت اقف امامهِ مذهولاً، كانَ بليغاً في كل شيء، ليس في الدين فحسب، كان يناقش من يسأله وفق عقله، ينظرُ الى الشخص المُستفتي الذي امامه نظرة تقييم ثم يجيبه، لا يُحمّلهُ مُفرداتٍ اقوى من علمهِ ومن ثقافته، لا يحاور المُثقف المُطلع على التاريخ إذ يسألهُ بسطحية، كان يجعل المُتلقي لهُ لا يتفوهُ بكلمة ولا يقاطعهُ، خلال حديثه كان يقرأ عين المُتلقي لهُ ليعرف عمّا ينوي السؤال عنه ليتطرق له قبل ان يسألهُ عنه، يبدأ بكلامه كيفما شاء وبالصيغة التي تناسبه، دون ان يجبرهُ المُستمع لهُ بأن يُجيب او ان يبدأ بشيء مُحدد.

جالساً كنت برفقتهُ ذا يوم في منزلنا بعد صلاة المغرب، كان اتباعهُ وممثليه يجتمعون في منزلنا كل يوم بعد صلاة المغرب، بعد ان تغير نظام الحكم وبات خروجهم وتجمعهم في الأماكن العامة خطراً لأنهُم عِرضةً للاغتيال أو الاعتقال بتهمٍ جاهزة، وكِلا الامرين من استطاعة (حزب خلق)، كانت مواضيع نقاشاتهم حول كيفية جعل الشعب أن يُقاوم الانقلاب الشيوعي، وحول نشر الأفكار الشيوعية المُسيئة للإسلام والداعية للإلحاد وزرع كراهيتهم وسط الشعب والحِفاظ على فئة الشباب من الانخراط في العمل مع الحكومة الشيوعية وعدم انتماؤهم للحزب الحاكم او (حزب برشام)، دار نقاشٍ طويل، أعطى من خلاله ابي لممثليه النقاط الرئيسية لما سيلقونه في خطبة الجمعة القادمة، اوصاهم بأن يركزوا على تاريخ عداء الشيوعية

للإسلام والتأكيد على هوية مؤسسيه بأنهم مُلحدين وأنهم لا يعترفون بوجود الله، وبذلك ستؤدي هذه الأفكار ما يتوجب بالنيابة عنّا دون الحاجة الى تعريف الناس بماهية الأفكار الشيوعية وأهدافها ونظرياتها، بعد ان بقي ابي لوحده وانهينا صلاة العِشاء، وأنا اتصفح بعض الاوراق بقربي ...

سألته: ابي، من هو (كارل ماركس)؟

اجابني: فيلسوف ألماني وعالم اجتماع ومؤرخ واقتصادي وصحفي.

سألتهُ بتعجبٍ كبير: كل هذا!

قال: نعم، وأكثر.

قلت: كيف اكثر؟

قال: (ماركس) من مؤسسي الحزب الشيوعي، وضع نظريات أسست نواة افكار هذا الحزب، أدت بالتالي الى الثورة البلشفية.

سألتهُ: هو من قام بالثورة البلشفية، أليس كذلك؟

قال مُبتسماً: كلا، الثورة البلشفية في (روسيا) وقد اخبرتك بأن (كارل ماركس) ألماني.

نظرتُ إليه نظرةً خاطفةً، واصلتُ تصفح ما بين يدي من أوراق بذهنٍ شارد، نظرتُ إليه نظرةً اخرى فوجدتهُ ينظر لي وهو لا يزال يبتسم ...

سألتهُ: لمَ تضحك يا ابي؟

قال: لأنك تتصنع الغباء امامي.

تلعثمتُ حتى سقطت بعض الاوراق من يدي، حاولت النهوض تجنباً من نوبة غضب قد تعتريه بعد هذه الابتسامة، أبي اذكى من ان يبتسم في مثل هذا الموقف.

قال: لا تذهب، أبق قليلاً اود الحديث معك.

قلت لهُ: نعم يا ابي، تفضل.

قال: أعلم أنك تهوى الاطلاع وغير مُلتزم الالتزام الكامل بما تقرأهُ في كتب الفقه، ولكن كن على يقين بأنك ستندم، لا تبحث عن اصل كل شيء، هناك أشياء لها أكثر من أصل، وأشياء ليس لها أصل، او كان لها اصل وتلاشى حتى بانت بأنها تكونت بحكم ظرفٍ او حاجة، اجعل الدنيا تسير بيسرٍ بين يديك، لا تُعّقد الامور لأنك بعد فترة لن تكون افكارك لنفسك فحسب، أنت ابن زعيم ديني ويتوجب عليك خلافة ابيك، وإلا ستُقتل وستأكل جثتك الكلاب الضالة، لنا في كُل مكان اعداء، انتبه لنفسك ولا تهدم ما بناه جدك وما بنيتُ أنا، انتبه لنفسك.

وأنا انظر الى الارض وجلاً لئلا يسألني عن دخولي للقبو، حركتُ رأسي إيماءً بإجابة (نعم)، فمنذُ ان استبدل باب القبو وأنا انام الليل خائف، اترقب اللحظة التي يسألنُي فيها ويُحاسبني عن دخولي إليه، مرت ثوانٍ قليلة، لم يسألني عن شيء، غَيّر شكل جلوسه ومسك بين يديه (المَسبحة) وبدأ يُسبح بحمد الله ويثني عليه شاكراً، حمدتُ الله وشكرتهُ أنا ايضاً بصوتٍ خفيض لأنهُ لم يعد يُعاملني كالسابق، شعرتُ بأنهُ يُحادثني كما كان يُحادث اتباعه الذين كانوا يجتمعون به قبل حديثُنا.

حدثني عن افكار (كارل ماركس)، حدثني عن الشيوعية، اخبرني كيف كانت نواة أفكارهم التي اسستها عدة رسائل بين (فريدريك إنجلز) و(كارل ماركس) قبل ان يعلنوا (بيان الحزب الشيوعي) بشكل رسمي عام (1848)، اخبرني كيف تعتقد الشيوعية بأن المادة هي اصل كُل شيء، وان كل شيء جاء بالصراع مع ضده ثم تطور وتطور حتى اصبح بأشكالٍ عدة ثم انشطر الى أجزاءٍ أخرى، لكل جزءً ضده، ثم تصارعا مُجدداً ثم تطورا وهكذا، اخبرني بأن أساس الفكر الشيوعي هو فكرٌ

اقتصادي، يسعى الى الاشتراكية، الشيوعية ليست ديانةً او منهجاً عقائدي أو مذهبي مُستنَبطاً من شريعةً او مُعارضاً لشريعة، الشيوعية فكرٌ اقتصادي ولكنها حين وضَّحت لمعتنقيها سبب وجود الكون، او من أين بدأ الخلق، أجابت بأن المادة اصل كل شيء، فكانت هذه الإجابة هي السلاح الأمثل لمحاربتنا إياها، لاسيما وأنها جاءت لنكران وجود (الله) وهذه الخطيئة الوحيدة التي لا تُغتفر والمفتاح الأصل لنبذ فكرة (الشيوعية) في عقول أي شعبٍ مُسلم أو أي بلدٍ مُسلم لو طلبت منهُ الشيوعية الانتماء او الاعتراف.

سألته: لو جاءت الشيوعية بفكرٍ اقتصادي فحسب ولم تتطرق للإلحاد او لنكران وجود خالق واحد للكون وهو (الله) فهل تعتقد بكونها فِكراً جيداً يستحق الاتباع من اجل اقتصاداً امثل؟

اجابني بـ(كلا) عدة مرات، ثم استدرك قائلاً: لا تَظن بأن هنالك فكرةً او نظريةً تنبثق في هذا الكون دون ان يكون لها موقفاً صريحاً من الاديان، الأديان والإيمان بالخالق هو اول سؤال يتطرق في عقل أي مُفكر او باحث قُبيل شروعه في البحث عن أي شيء، هذا السؤال الفطري كيفما تكون اجابته تكون نظريته، الشيوعية بدأت قوية وستنتهي ضعيفة، لأنها قضمت من ثقافات الشعوب نضارتها، جعلت من الانسان آلة ليعمل، ليعمل فقط، الشيوعية ترى الانسان جماداً وليس كائناً حي، تريدهُ ان يُنّمي الاقتصاد ويوفر قوت يومه كالنمل، يعمل الكل من اجل مصلحة الكل، وهذا (الكُل) في نظرها كل فئات المجتمع، الطبيب والعاطل والمهندس وباع الورد والباحث والعالم والمُتسول، دون ان تُميز المُميز منهم لأنه مُتميز بذاته، الشيوعية ستنتهي لأنها جاءت بفكرة عالجت مشاكل فترة زمنية محددة، ولا يعني نجاحها في هذه الفترة في دولٍ ما يعني نجاحها في كل بلدان العالم، ستنتهي الشيوعية لعدة أسباب، الجوهرية منها سببان:

(المال) و(الجاه المُجتمعي)، من ناحية (المال) فأن من البديهي الإنسان يبدع لغرض زيادة دخله المالي والاستفادة من ابداعه في تطوير صناعته او منتجه، قضت (الشيوعية) على المنافسة السوقية بتأميمها للمصانع والمزارع، حتى جَدُبت البحوث العلمية لتطوير الإنتاج، سواء كان صناعي ام تكنولوجي ام زراعي، جدُبَ لغياب المنافسة السوقية لاسيما وهي المحرك الأساسي لذلك، اما عن (الجاه الاجتماعي) فأن من المُسلمات أيضاً ان يَحبُ الانسان المبدع التفاخُر بإبداعه داخل مجتمعه، إلا ان (الشيوعية) جاءت وسرقت هذا الدافع النفسي منه لتمنعهُ من الابداع، بعدما اصبح الأمر سيّان، بين المُبدع وبين من يقضي نصف يومهِ نائماً.

وهو يبتسمُ ابتسامةً كتلك التي مزح معي بها، حدثني عن الثورة البلشفية التي اندلعت عام (1917) في (روسيا) بقيادة (فلاديمير لينين) و(جوزيف ستالين) بعد تأثرهُما وتبنيهُما لأفكار الألمانيين (كارل ماركس) و(فريدريك إنجلز) حدثني كيف كان من المُفترض ان تكون الثورة البلشفية المُحرك الاساسي ونقطة انطلاق الشيوعية في بلادنا، إلا انهم أضاعوا وقت نضالهم بمقارنة الدين الإسلامي بالشيوعية في حين ان الاول دين سماوي يريد من الناس حُسن التعامل مُقابل طقوسٍ للعبادة، والثاني ما هو إلا ثورةً لجياع يُطالبون بالقضاء على (الرأسمالية) واستبدالها (بالاشتراكية)، وان من الممكن ان نُؤمن (بالشيوعية) كفكرٍ اقتصادي، وأن نعتقد بأن (الاشتراكية) هي الحل لمشاكل المجتمع، وان المساواة اهم من العدل مع الغاء الطبقات المجتمعية مع بقاء على إيماننا بأديانا في ذات الوقت، يمكننا ان تستثني ما تظنهُ الشيوعية عن ان (المادة هي اصل كل شيء) وان نؤمن بوجود خالقٍ للكون، يمكننا ان نكون شيوعيون مسلمون و شيوعيون مسيحيون ويهود، إلا ان هذه الثقافة كانت اكبر من ان

يتبناها الشيوعيون في بلادنا، انتموا (للشيوعية) نكالاً بالدين وليس أيماناً بأفكارها.

انهى ابي كلامهُ وعيني مفتوحة حتى اقصى مداها من شدة الدهشة، هل هذا ابي!! كيف يتكلم وفق هذا المنطق العلمي!! اين افكاره السلفية؟ اين تشدده لمذهبه ودينه؟ أغلقت اجفاني لثوانٍ ثُم فتحتُها، أردتُ أستيعاب ما أنا عليه، و بعد أن تصنعتُ بعض الجُرأة ...

سألتهُ: لمَ لم تُحلل الامر وتفسرهُ لأتباعك حين كانوا جالسين معنا بهذه الطريقة؟ لمَ لم تحثهم على كره (الشيوعية) بسبب عداءها للإسلام ولا تخبرهم عن فحوى مبادئها وتحثهم على البحث لكشف زيف الافكار (الشيوعية)؟ سمعتك توصيهم بأن تكون فحوى خطبهم ليوم الجمعة القادمة حول مؤسسيّ الحزب الشيوعي كيف كانوا ملحدين ويدعون للإلحاد ويحاربون دين الإسلام.

انهيت سؤالي فانتابني الندم، لمَ قلتُ لهُ هذا الكلام؟ ندمت لأنني انتقدتهُ، ابي لا يحبُ ان ينتقده او يُقومه احد، توقعت بأنهُ سيوبخُني لأنني تماديت معهُ بعد ان تكلم معي وحاورني كما يحاور من يوازيه العُمر والعلم.

نهض، فنهضتُ معه بسرعة ...

قال لي: يكفي بأن نخبرهم بأن (الشيوعيين) كفرة ولا يؤمنون بوجود الله وان لهم اجندات لمحاربة ديننُا، هذا سيفي بالغرض دون اللجوء الى الفلسفة، صعبٌ ان تُفهِمهم قانون (الجدلية الماركسية) وكيف كان ينظر ان لكل نفي نفي، وأن كل شيء مُستمراً في التطور إلا انهُ لن يدوم الى الأبد، لا بد لهُ ان يُنفى وان يصار الى العدم، وأن هنالك تناقضات ابدية تُشكل حلقات احداها اكبر من الاخرى لتمثل صراعات المُجتمع توّلد بدورها نظامهُ الاقتصادي، صعبٌ ان تشرح لهم كيف يتحول (الكم) الى

(كيف)، وأن التغُيرات التي تَطرأ في (الكم) تتم غالبا عبر فترات طويلة ومُتقطعة وفي (الكيف) تتم دفعة واحدة، تذكر دوماً بأن المواظبين على الحضور لصلاة وخطبة جمعة جميعهم في غِنى عن التفكير، يأتون بحثاً عن الأمان، لا تجعلهم قلقين تائهين وتطلب منهم البحث، خذ بأيديهم ولا تكترث لأعينهم المعصوبة، ضعهم على الطريق الصحيح، او الطريق الذي تراهُ انت صحيحاً، كن على ثقة بأن الامر لا يُفرق لديهم لطالما انت من يقول ذلك.

وهو يخرج ...

قال: كن مُستعداً، ستلقي خُطبة الجمعة في الأسبوع القادم، سأرسلك الى مسجد القرية نيابة عني.

وأنا على قيد الدهشة، لم اصدق ما قال، بَقيت كلماته تتكرر على مسامعي لأصدقُها، كيف لي ان ألقي خُطبةً من على منبرٍ عال؟ كيف لي ان اصدق ما حدثني إياه عمّا يملكهُ من معلوماتٍ عن (الفلسفة الماركسية)؟ الغريب من كل هذا، لمَ كان صريحاً معي لهذهِ الدرجة؟ هل كان فخاً ينتظر مني الوقوع فيه؟ هل كان يرُيدني ان أتكلم بحرية لأحدثه عمّا اخبئهُ عنه من حقائق تدحض فقه الإسلام وتطرح قصصه ارضاً؟ ما سمعته منه من علمٍ ادهشني، بدأتُ انظر إليه بنظرةٍ جديدة، كنت اعلم بأنهُ إستثنائي، اعلم ذلك، كلما اراهُ يناقشُ كل من يقف امامه ليقنعه رغماً عن ادلتهِ وافكاره، لم يقف احداً بوجهه ذا يوم ليوازيه بلاغته.

اعظمُ بلاغة، هي أن تُتَرجم ما تُريد قوله بحسب فهم من يستمع إليك، بيد ان تخلط هذه الترجمة بما تشاء من دلائل وقرائن دينية، لتجبر هذا المُستمع من الانصات لك وهو خاشعاً مقتنِعاً اتم القناعة بما سمعهُ، فهو يتذكر جيداً الايات التي تتوعده بالعذاب السعير اذا كذّبَ شيئاً من آيات دينهُ.

يقول قريني: إذاً، كنت تَكُن الاعِجاب أحياناً لأبيك، لم تكن تكرههُ على الدوام، أليس كذلك؟

أتكئ برأسي على يدي بأجفانٍ مُغلقة، فتحتُ عيني فرأيتُ قريني كما يجلس، اغلقتُ أجفاني مجدداً وفتحتُها وأنا حائراً أبحث عن إجابةً لسؤاله، لم اكن اعلم ماهية المشاعر التي كانت تربطني به، تجاهلت ما قال، اتكأتُ برأسي مجدداً لأتذكر ما لا أنفك عن ذِكراه، حبيبتي (مريم)، اسعدُ لذِكر اسمها وكأني طفلٌ يُحركُ قدميه مرحاً على كُرسي حين لا تُلامس أرجلهُ الأرض مُتجاهُلاً لما حولهُ من حياةٍ بألوانٍ قاتمة.

(مريم)، طودٌ عظيم من الجمال، تُغيرُ مجرى أنهار الأرض حين تُصَفف شَعرها، لها وجنتان كأنهما أنصاف قمر مُضيء يظهران في وقتٍ واحد وفي سماءٍ واحدة، تحتار الى ايهما تنظر، تحتار كيف لسماءٍ واحدة ان تحمل قمرين في آن واحد، جمعت كل قواي لأتذكرُها، ينتابني شعوراً يهمسُ بأذن ذاكرتي بأننا افترقنا، تغاضيت عنهُ وتذكرتُ لقاءً لنا في طريقٍ ساكن، وقتما كُنا نلتقي خِفية عن المجتمع، نخشى سلطة ابي ودينه، نخشى مجتمعنا المُتدين، شوارعنا الشيوعية المُتعطشة للدماء والأنتقام، لم اعد التقي بها في الجامعة، منعني ابي من الذهاب بعد سيطرة الشيوعيون على الحكم، لم اعرف وقتها ما السبب، هل كان خائفاً من ان يؤذيني احدهم او يقتلني نكالاً بهِ؟ ام انهُ عَلِم بشأن دخولي للقبو ورأى انعكاس ذلك من أسئلتي التي احاورهُ بها ففكر بأنني لن اجتهد في دراستي للشريعة الإسلامية؟ ام انهُ علِم بعلاقتي (بمريم) فأراد ان يبعدني عنها؟

جمعتنا طُرقات مُظلِمة، نختبئ لنتبادل الغزل، تُتِعب ناظري لو ابتسمت خجلاً، ليس هناك ثمة ارضاً تحتملُ جمالها لو وقفت عليها لثوان، كنت أقول لها بأن عليها أن تُبدل مكانها بين الحين والأخر وأن لا تبق ماكثةً في مكان واحد لفترة زمنية متصلة، اخشى من ان تُزلزل الأرض لو ابتسمت وحركت خصلات شعرها

في آن واحد، اخشى تَشقق الأرض من تحتها حين تَبعث مفاتن جسدها رذاذ الانوثة، أخافُ رمشةَ عيني وأنا برفقتها، أخشى ان يفوتني من انوثتها شيء، جسدها، شعرها، طريقة كلامها، وجنتيها، خصرها الذي يشبه (المغناطيس) وهو ينفر كل شيء من حولهُ يحمل صفات الانوثة، ينفرهُ كما تتنافر أقطاب (المغناطيس) المتشابهة، لا يقترب كل شيء انثوي منها، هي الانثى وكل أنثى غيرها تدّعي الانوثة.

ذات لقاء، وقفت امامها، اضعُ يدي على شجرة كانت تقف بقربها، صرتُ قريباً منها، كدتُ اغرق بين أمواج شعِرها لولا انها اعادت تصفيفه قليلاً، اعشق النظر بعينيها، تمازحني مراراً بأن لا افعل ذلك، تقطع كلامها لتمنعني من مواصلة النظر لأنها ترتبك ولا تستطيع إكمال حديثها، كانت تدّعي ذلك، كما كنتُ ادعي بأنني كنتُ اسمعها، انظر بعينيها حد الثمالة، اتركها تتحدث دون أن اسمع شيئاً، أرى شِفاهِها تتحرك فحسب، اثمل حين اراها وأنا لم اكن اعرف معنى الثمالة، اقف بصعوبة حين اسمعُها، لم اقف امامها يوماً بإتزان، عدم التوازن امامها احدى مُميزات جمالها، في ذات اللقاء، حدثتها كيف اراد ابي مني ان القي خطبة في مسجد قريتنا ..

ابتسمت ثُم قالت: سآتي معك؟

اجبتها ضاحكاً: لو جلستِ امامي، سأحدث الناس عن جمالك وسأنسى موضوع الخُطبة.

ضحِكت حتى برزت مفاتن ثِغرها ...

قالت: خذ الامر على محمل الجد وامتنع.

قلت لها: لا استطيع، الموقف اكبر مني، حدثني بثقة لم يمنحني نصفها من قبل، خِفتُ لئلا يكون فخاً ارادني ان اقع فيه، حدثتهُ وأنا مرتبك، لم أتمكن من ان اقول لهُ (لا)، اردتهُ ان يُنهي

حديثهُ دون ان يسألني مزيداً من الأسئلة، كان شخصاً غير الذي اعرفه.

قالت: وما العمل إذاً؟

قلت: سأذهب، سأطيعهُ الى ان اجد الحل.

اجابتني وملامح المُزاح تعتلي وجهُها: اخبرني كيف ستعتلي المنبر؟

قلت: سأعتليه، لن يكون صعباً.

أبعدتُ عنها بضعة خطوات، وقفتُ على صخرة مُتوسطة الحجم كانت على قارعة الطريق، رفعت يدي اليمنى ...

قلت بلهجة الخطابة: إن الحمد لله، نحمدُه ونستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهْدِ اللهُ فلا مضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، إن .....

توقفت، نظرتُ اليها، وجدتُ على وجهها ابتسامةً لو نظر إليها العالم قبل اربعين عام لما قامت الحرب العالمية الثانية، لها براءة طفل لم يتعلم النُطق بعد.

نزلت من على الصخرة، اقتربتُ منها ....

سألتُها مازحاً: لمَ تضحكين؟ اخرجي خارج المسجد.

كتمت ضحكتها وأنا اخبرُها بأنني ألف احبها، ألف اعشقها، علمتني الظمأ ثم روتني، عرفتُ لمَ يُمرر العاشق لسانه على شِفاههُ لو اشتاق لمن يعشق.

يسألني قريني مُقاطعاً سلسلة الجمال: هل تمكنت من إلقاء الخطبة في المسجد؟

قطع سلسلة ذكرياتي التي كانت برفقتها، لما لا يتركني برفقتها؟ بتُ لا امتلك منها سوى الذكرى، باتت ذكرياتي كِسرة خُبز، واشتياقي لها مدينةً من الجياع.

وقفتُ ثُم سرتُ قليلاً، حدثتهُ عمّا حَدث في تلك الليلة ...

دخل ابي لغرفتي غاضباً، كنتُ قد اعددتُ بعض الاوراق لتكون موضوع خطبتي ...

صرخ بوجهي سائلاً: لمَ لم تسألني عن موضوع خطبة يوم غد؟

كنت سأجيبهُ لكنهُ خرج من غرفتي ..

قال: اتبعني وبمعيتكَ تلك الأوراق التي بيدك.

جلسنا في مكان المخصص للصلاة في منزلنا، جلس ابي أولاً فجلست امامه، اخذ من يدي تلك الأوراق التي اعددتُها وقرأها على عجل، وضعها امامه ثُم نظر لي ...

قال: سبق وان اخبرتك بأنك ستذهب لإلقاء خُطبة بدلاً عني في مسجد القرية، ظننتُ أنك تجاهلت الامر لأنك لم تسألني كيف ستلقي الخُطبة! لم تسألني عمّا ستتحدث! حتى انك لم ترتبك او تخف! اخبرني، هل سبق وان القيت خُطبة؟

اجبتهُ: كلا.

قال: انسى شأن الخُطبة، ستذهب غداً برفقة احد اتباعي، ستنطلقون مباشرة بعد صلاة الفجر، ستركب مع شخصٍ سيقود سيارة حمل لئلا يعرفك احد وستكون برفقتكم سيارتين، كن في سيارة الحمل الصغيرة للتمويه حرصاً على سلامتك، ستعود بعد انتهاء الخُطبة بذات الطريقة.

حركتُ رأسي إيماءً بالسمع والطاعة ...

قال لي: سأعد لك موضوعاً لتحفظه، ستلقي الخُطبة في الأسبوع القادم.

شعرت بالارتياح، رفع عني تلالاً من القلق كانت تجثو على افكاري، لم أنم منذُ أيام وأنا افكر كيف سيكون لي ان احارب فكرهم وعقيدتهم ثم اعود لأعتلي المنبر لأنشرها، كيف لي ان اقولا (كلا) لأبي، انقذني بنفسه.

ادركتُ بعدها ان ابي اذكى من ان يتصرف هكذا، كان امتحان لي، إلا انني لم اعرف نتيجته، هل كان راضياً عني ام لا؟ هل كنتُ عند حسن قسوته؟

ارفع رأسي، انظرُ الى الأعلى، اشاهدُ الغيوم وهي تسير بسرعة غير اعتيادية، انظرُ الى قريني فأجده جالساً ...

يسألني: ماذا أعددتُ في تلك الأوراق؟

قلت: اعددتُ موضوعاً يُطمئن المستمعين بأنهم لا يزالوا سائرين على الطريق الصحيح.

قال: هل كنت راضٍ عن نفسك؟

اجبتهُ: بالطبع كلا، سمعتهُ لأكثر من مرة يقول لزُملائه وهم يتفقون على سرقة عقول الناس، حين يأتون لأخذ التوصيات قبل كل يوم جمعة بأنهُ يقود القطيع ويسير امامه وهم يسيرون خلفه، وما عليهم سوى ان يحملوا بأيديهم عصا صغيرة كي يعطون الاتجاهات الصحيحة لسير القطيع، لئلا يخرجوا عن مسار من يسير امامهم، هذه العصا هي توصياته.

وقتها كنت اظن بأن ابي يوجه لهم الإهانة بهذا الكلام، ولكن حين كبرت عرفت بأن تشبيههُ كان دقيقاً جداً، كان يقصد بأنهُ الراعي لأنهُ المعني بإصدار الفتاوى والبقية ما عليهم سوى تأكيد هذه الفتاوى ومنحها القدر المستطاع من الحجج او القصص

لكي تُتَبع من قِبل من تسري عليه هذه الفتاوى بحكم المكان والنَسبَ.

قال: لم تحدثني عمّا كتبتُ في تلك الأوراق التي لم يقرأها ابيك؟

قلت: وماذا ادراك ما كان بها؟

قال: اعلم عنك كل شيء.

قلت: إن كُنت تعلم كل شيء فلماذا تدعني اخبرك بكل شيء؟

قال: سبق وقلت لك، أنت هنا لتتذكر.

سألته: ولمَ أتذكر؟

قال: لا تسأل اكثر، ستكتشف كل شيء بنفسك وستُجيب عن كل اسئلتك بنفسك.

وقفت ثُم سرتُ بخطواتٍ بأتجاهين مُتعاكسين ....

قلت له: فك هذه القيود من يدي، انها تُثقلني وتُخيفني.

قال: انت من وضعتُها بيدك ولستُ انا.

قلت بنبرة ضجر: كيف؟

قال: ستتذكر كل شيء وستعرف، اخبرني، لماذا لم تؤمِن بحادثة (إبرهة الحبشي)؟

ادهشني سؤاله، كان ذات الموضوع الذي كتبته وبحثت عنه بشكل موجز في الأوراق التي وقعت بين يديّ ابيٍ! تذكرتُ ذلك اليوم، صدَّقت (قريني) بأنهُ يعرف عني الكثير.

انظرُ الى السُحب وهي تسير، اتذكر كيف كنتُ طوال تلك الفترة اخوض حرباً بين آيات القرآن وفقه القرآن، اقارن بين ما جاء في القرآن لأدحض ما قالهُ الفقهاء على الإسلام ابتغاءً لمرضاة الحاكم وكسباً للمال.

كنتُ اقرأ في أوراق اعددتُ فيها بعض الدلائل، كنتُ احاول البحث في (سورة الفيل)، كنت اتصفح بها حين دخل ابي عليّ غاضباً وبحركةٍ لا ارادية وضعتُ الأوراق التي اعددتُ بها الخطبة فوق هذه الأوراق، مسكها ابي وظل يحادثني، لم يعرها اهتماماً، لاسيما وأنني قد أعددتُ للخطبة كلاماً يحث على الايمان ويتخللهُ الدعاء ولا شيء غير ذلك، كنتُ افكر في تفسير (سورة الفيل) وفي تكوينها فأحتار، ابحث في أسباب نزولها فأُصاب بالدهشة، كيف للرب ان يحمي الكعبة وهي مليئةً بالاوثان؟ كيف يحميها وهي مكان لم يُخصص لعبادتهِ للفترة لما قبل مجيء الإسلام؟ كانت الكعبة لعبادة الاوثان فقط و(عام الفيل) كان قبل ولادة النبي او ذات عام ولادته[33]، لا شيء فيها كان لله، لمَ يُدافع الله عن الكعبة ضد معتنقي (الديانة المسيحية)؟ وهي من المفترض ان تكون الديانة الاصح بالنسبة لعبادة الاوثان لأنها تجعل مع الله شريك.

لم ترد قصة أصحاب الفيل إلا في سيرة (ابن إسحاق)، كما لم تُشير السورة الى (إبرهة) او (مكة) او (الكعبة)، بقيتُ طويلاً أُدافع عن وجودها، ولكن هنالك حقائق حين جمعتها لم أتمكن بعدها من إيجاد أي منفذاً يَسمح لي بالخروج بأي قناعةً من تفسير هذه السورة، وجدتُ المسافة ما بين (صنعاء) و (مكة) تُقدر بـ(1053) كم، ويُقال بأنها كانت بحسب مركز (صنعاء) وقتها تقدر بـ(815) كم، هذه المسافة عبارة عن طريقٍ يشقُ صحراء قاحلة وان اهم ما يُفكر فيه أي جيش يسير في هذا الطريق او أي طريقاً اخر هو (المؤن)، من اين جاء (إبرهة) بالمؤن في هذا الطريق؟ كيف لحيوان (الفيل) ان يسير في طريقٍ صحراوي وهو يزن اكثر من

[33] اختلفت الروايات في تاريخ مولد النبي محمد بين الفقهاء، منهم من قال بأنهُ ولد قبل عام الفيل بخمسة عشر سنة وهذا بحسب رأي (ابن عباس) ومنهم من قال بأنهُ ولد بعد عام الفيل بأربعين عام كما رواه (ابن العساكر) عن (أبو زكريا العجلاني) ومنهم من قال انهُ ولد في نفس عام الفيل.

(6) طن ويأكل كل يوم ما يُقارب (300) كغم من الغذاء النباتي، كميةً تجعلهُ يقضي اكثر من (16) ساعة في اليوم في الأكل بالإضافة الى حاجتهُ الى (200) لتر من الماء يومياً وقيامه لما لا يقل عن (4) مرات يومياً برشق الطين على جسدهِ لخفض درجة حرارته، كيف لهُ ان يسير في الصحراء بسرعة سيرهِ التي تتراوح بين (10 - 40) كم/ساعة، فلو احتسبنا سرعته على المسافة التي يتوجب عليه السير بها من (صنعاء) الى (مكة) فكم يومٍ يحتاج؟ هذا إن كان لا يحمل المؤن، وإن كان يحملها فكيف ستكون سرعته؟

يُقاطعني قريني قائلاً: ما السبب الذي جعلك تبحث في هذه السورة؟

قلت: لا اريد الأسباب لأطلب العلم، هذه سورة من سور الكتاب المُقدس لديني وعليّ تدقيقُها قبل الايمان بها.

حركتُ رأسي بين اتجاه اليمين واليسار ايماءً بالحيرة ...

قلت لهُ: الوم الفقهاء على هذه الحيرة، من أين جاءوا بهذه القصة؟ السورة لم تُشير الى (أصحاب الفيل) بأنهم جيش (إبرهة الحبشي) ذاتهم، ولم يشير الى ان مكان الحادثة هو (مكة)، حتى ان الطير في هذه الواقعة كان اسمهُ (ابابيل) ومعنى (ابابيل) هو (السرب الذي يتبعهُ سِرب) أي بمعنى المُتتابع او المُتجمع، قد تكون القصة تكررت في زمن ظهور الإسلام وحجبها فُقهاء بني امية عن التاريخ، وإلا، لمَ يُدافع الله عن اصنامٍ وثنية وعن مكانٍ لا يُعبَد فيه؟ وبالمقابل، لمَ يُقتَل من يتبع الديانة المسيحية وهم الاصح مُقارنة بمن يعبد الاوثان؟

جحافلاً من الوجع تمكثُ في خاطري، منظر السُحب السريعة يُخيفني، اراها بيضاء تارةً وتارةً زرقاء، لم تكن هنالك سُحباً غامقةً تُبشرُ بالمطر، تسير السُحب وليس هنالك رياح، لا اشعر بأي رياح، الطقس غريب.

قلت لقريني: أنا خائف.

اجابني: لماذا؟

قلت: خائفٌ مما قُلت، خائفٌ لأنني شككتُ في قداسة تفسير سورة من سور القرآن، لم انتبه بأنني ميت، كيف لي ان اتفوه بما قلت هُنا، أنا خائف.

قال: وما الفرق! هذا إيمانك ومُعتقدك، بنيتهُ بتفكيرك وسُتحاسب عليه.

قلت: هل سيغضبُ الرب مني؟ هل ما قلتهُ كُفر؟ هل سيُلقى بي في النار؟

قال بهدوء: الحِساب قدراً لا مفر منه، الحِساب هو الدليل والنتيجة التي كُنت تبحث عنها طوال حياتك، الحساب هو الحقيقة التي تتمنى لقائها، ليس بالضرورة ان يكون حسابك هو كُفرك بما كُنت تؤمن به بسبب ما وجدتهُ من ادلة تنقض حقيقة وجوده، قد تكون على صواب، وقد تكون قد ظلمتُ نفسك، لا احد يعلم، كنتُ اظن اننا بعد الموت سنعلم الحقيقة، وجدتُ الامر أطول مما كنتُ اظن، وجدتُ الحيرة هُنا اكبر، ما بعد الموت هنالك انتظار ايضاً، انتظاراً خُصِصَ للقلق وللندم، خُصص للقلق لمن بحث عمّا يوجد خارج مُحيطه ونشأته، وخُصص للندم لمن كان مُطيعاً لمُحيطهُ ونشأته، ومن يعلم، قد يكون هذا المُطيع ينعم براحة البال، فهو الان بأنتظار ما وعدهُ بهِ رجال دينه وليس في انتظارهِ ادنى شك.

قطع قريني افكاري قائلاً: ليس كما تظن، هؤلاء اشد الناس ندماً.

قلت: كيف؟

قال: المُتشددون لديانتهم هُم اكثر الناس انغلاقاً على انفسهم وعقولهم، لم يستمعوا إلا لمن كان من فئتهم كي لا يخرجهم من

الهالة التي وضعها رجال دينهم حول طقوسهم بغية اتباعها دائماً أبداً، قضوا حياتهم وهم لا يستمعوا إلا لمن يريدوا سماعه، لا يقراءوا إلا لما كُتب على سبيل تشددهم، من شدة انغلاقهم، ظنوا بأن ليس هنالك في الدنيا سواهم، يندمون هنا حين يرون انهم اتبعوا دين من بين آلاف الأديان التي وجدتها البشرية من قبلهم.

وأنا لا زلتُ خائف من منظر السُحب ...

قُلت: هل انت خائفاً مثلي؟

اجابني: كلا.

سألتهُ: لماذا؟

قال: لأنني لن أُظلَم هُنا.

سألتهُ: ألا تخف من ان تكون ديانتك من بين آلاف الأديان ليست هي الديانة الصحيحة؟

قال: ليس هنالك ديانة صحيحة وديانة خاطئة، هنالك تطبيقاً صحيح وتطبيقاً خاطئ، فضلاً عن أنني امتلك اجابةً لكل سؤال سيتوجهُ لي، أمتلك القناعة التامة لكل فعل اقترفتهُ، عدا تلك الافعال التي كانت تحت تأثير الغرائز لا العقول، سأخاف لو لم اكن مثلك، أنت ستُسأل عمّا فعلت وستمنحهم الإجابة، لم احدثهُ اكثر، ازداد خوفي، ازداد الشك في داخلي، وكأني أُسير في حدائق تحرُسها كلابٌ شرسة، لم اعد انظر الى السُحب لئلا تُخيفُني، توقفتُ عن السير ذهاباً وإياباً من خلفهن عدتُ الى مكاني واتكأتُ برأسي على يدي.

ذائقةُ العقل تذكرُني بالثقة التي منحني إياها ابي بعد مخاضاً عسيراً من الشك، لكنني بقيتُ في شكٍ من تلك الثقة التي منحني إياها، لم اعلم وقتها ما السبب، كان هنالك شيء في داخلي يترقب كل ما سيحدث، ابي ادهى من ان يَثقُ بي، جلس لساعات يُحدثني

عن طرق إلقاء الخُطبة، كلفني بإلقائها بعد عدة مرات ذهبت فيها الى القرية برفقة زُملائه، كلفني بأن أكون إمام وخطيب الجامع لبعض أيام الجُمع المهمة في الشهر، لم اعرف أهمية هذه الأيام ولم أسالهُ عنها.

وقفتُ لأول مرة لألقي الخُطبة، كان منظراً مهولاً، لم ينتابني إحساساً بالرهبة كمثل تلك الرهبة، صعدتُ الى المنبر وأنا أرى جموعاً غفيرةً جالسةً بأنتظاري، الكل ينظرُ لي ذات النظرة، الكل يترقب كلامي، الكل سيفعل ما سأقوله لمجرد اني سأقوله، الكل على عاتق مسؤوليتي ريثما انزل من المنبر، رأيتُ الناس تجلُس على ارض المسجد وتمسك عقولها الفارغة وترفعها بوجهي كما تُرفع الأواني الفارغة عند طلب الطعام، اراهم بعقولٍ ناصعة الكَسل، عقولاً لم يمسسها التفكير ذا يوم، اراهم يخلعون العقول من رؤوسهم ويرفعونها ألي لأملأها لهم، اسمعهم وهماً وهم يُرددون: "قل لنا ما يتوجب علينا فعله يوم غد"

أقف على المنبر لأكون اعلى منهم ارتفاعاً وشأناً بحكم قيافتي الدينية، فكرتُ بمن صنع هاتين الصفتين كيف اختصر الكثير، بدل من أن يتوجب على الخطيب ان يتكلم بالعلم والأدلة والبحوث الجديرة بالتصديق كي يرتفع شأنهُ بين الناس بالعلم اختصرَتَ هاتين الصفتين كل ذلك، يكفي توافر القيافة دينية وأعتلاء المنبر لتكون الاجدر بالتصديق والإتباع، هذا إن لم تكن الأوحد، تمنيت لو يسألني احدهم عن تحصيلي الدراسي، تمنيت لو يسألني احدهم عن درجة علمي في الدين او في الخطابة، لم يحدث كل ذلك، منذ ان وصلت الى القرية عند الصباح وحتى وقت صلاة والكل يُرحبَ بي ويبتسم بوجهي، فرِحوا بمجيئي، فرحوا اكثر حين اخبرتهم بأن ابي كلفني بإلقاء الخطبة نيابة عنه، لم يسألني احداهم إن كنت جديراً بذلك ام لا؟ لم يسألني احداهم لأنني أبن (حميد الله).

دخلت الى القرية والكل يَود الإمساك بطرف عبائتي، دخلتُ للمسجد فوجدت القائمين عليه قد تجاوزت أعمارهم ضعف عمري، لم يسألني احدهم كم عمرك، لم يسألني شيخ المسجد وهو يدخلني غرفته لأمكث فيها الى وقت الصلاة لأراجع أوراق خطبتي واستعد لمنح الناس المزيد من الطمأنينة والثقة بأننا الوحيدون على النهج الصحيح على هذا الكون، نحن من سيدخل الجنة فقط، وكل ما خلق الله من قبلنا في ضلالة، وكل ما خلق الله من بعدنا يتوجب عليه إتباعنا، كتبنُا وتراثُنا خيرُ الدليل على ذلك.

خضع الكل لي، الكل سَلمَ امرهُ، الكل يريد مرضاتي، يتوددون لي لأبتسم بوجوههم، يتوقون لإبتسامة رضى ولو كلف الامر حياتهم، لأنهم بعدها سيدخلون الجنة، لأنني رضيت عنهم، لم يعلم احداً بأنني تركت دراستي الجامعية في العام الأخير، لم يسألني احدهم هل أنا مؤهل لأكون خطيباً ام لا، لم يكترث احدهم لصُغر سِني لطالما كُنت (أمين) أبن (حميد الله)، أنا غنيٌ عن العلم وعن أي شهادة جامعية، الكل سينصت لي خاشعاً مؤمناً بكل ما سأقوله، لن يسألني احدهم عن أي دليلٍ لكلامي، عن أي تأريخ لأي حادثة سأسردها على مسامعهم، عن مصدر ما سأقوله في كتب الفقه، سأفسر لهم أي آية قرآنية بما اشاء ليصبح قولي هو من قول الرب، لن يجدوا تفسيراً اكثر صحةً من تفسيري لأنهم لن يقرءوا غير ما أملي عليهم، أنا وأمثالي صرنا من الثُقاة بحُكم جهلهم وتقاعسهُم عن التفكير.

أقفُ على المنبر وعلى مسامعي كل كلمة قالها لي ابي، كل ما اوصاني بهِ، بقيتُ صامتاً لثوانٍ انظر في وجوههم المُترقبة، تأملت الجهل في عيونهم، تأملت حتى شعرتُ بأنني تأخرتُ عن الكلام وعليّ ان ابدأ الخُطبة، اوصاني أبي بأن أحذر الناس من العِقاب في اول الكلام، اوصاني بأن اجعلهم في قلق كي اكسب اذهانهم

واضمن انهم سينصتون لي بخشوع حتى انتهي من الكلام، اوصاني بأن الوعيد بالعقاب اول الكلام وتأمُل الجِنان اخره.

انهيت الديباجة الخاصة بالخطبة، صليتُ على النبي وذكرتُ الله وحمدتهُ وأثنيتُ على نِعمه، صرختُ بعدها بصوتٍ عال: "اقتربت الساعة وأنشق القمر[34]" رأيتُ الرهبة تعتلي وجوههم، تحدثت عن العذاب الموعود، عن الحساب، عن الجنة والنار، عن مُعتقداتٍ أنا لا أعتقد بها، ادمى سوط ابي كل كتاب قرأتهُ وكل أوراق جمعتهُا في ذلك القبو لأتمم مواضيعها وأقرأها، لأكتشف ذلك الوهم الذي اعيشُ فيه، انتقد الوهم وأنا اليوم اسكبهُ في عقول هؤلاء الفقراء، يعمل اغلبهم في الزراعة طيلة أيام الأسبوع ليجمعوا قوت يومهم، ليأتوا في نهاية الأسبوع وفي يوم راحتهم لينصتوا لإمام مسجدهم، ليلبوا فروض الطاعة، يلبوا ما على عاتقهم من التزاماتٍ دينية، لينصتوا الى إمام المسجد وهو يتوعدهم بنار السعير ان خالفوه الرأي او عارضوه الإتباع، انصتوا لهُ كثيراً وهو لم ينصت الى مشاكلهم يوماً ما، لم يُحارب (الاقطاعيين)، لم يجبر مالكيّ (رأس المال) لأن يُقاسموا ارباحهم مع الفلاحين، ينظرُ إليهم بكل غرور وهُم بثيابٍ رثة، وهو يرتدي عباءةً من اغلى أنواع القِماش، يحدثهم عن العقاب وحياتهم تحت طوعه أشد عِقاب، ثُم ينزل من على المنبر مُقتنياً عطراً يجعل من كل الجالسين بالقرب من منبرهِ أن يتساءلوا عن ثمنه.

كثيراً ما تساءلتُ عن أسباب وجود صلاة يجتمع فيها المسلمين بعددٍ كبير في مكان واحد ليستمعوا لشخصٍ معين، لا أرى سبباً واحداً من وجودها إلا ان يكون هذا الشخص هو ابلغهم او اكثرهم علماً، او ان يكون زعيمهم او قائدهم او رئيسهم بحكم ما اجتمعوا لأجله، وما يجتمعوا من أجله من الواجب ان يكون نقاش للمشاكل والمُعضلات مرت على هذا الجَمع في الأسبوع المنصرم بُغية إيجاد الحلول لها، بالإضافة الى اخذ بعض

[34] القرآن/سورة القمر/1

الوقت من الخُطبة في تثقيف هذا الجمع وتنويره بما يحمل دينه من علم ومعرفة وأن يعلمهم ما هو واجب عليهم من طقوسٍ وعبادات كي تكون على اتم وجه للتطبيق، فضلاً عن وجود هذا الجمع الذي يمنحهم الإحساس بالقوة لأنهم جمع وليس قلة، يُصلون سوياً ليروا تراصفهم الذي يجعلهم اقوياء كالبنيان المرصوص، كما ان رؤيتهم لبعضٍ مرةً في كل أسبوع وبعد ايامٍ من الانشغال بالعمل وبالمهام اليومية يجعلهم على تواصل دائم بأبناء حَيهم او أقاربهم واطمئنان البعض على البعض في كل أسبوع بالإضافة الى زيادة أواصر المحبة والصداقة بينهم، لم اجد كل ذلك في تلك الجمعة التي القيتُ فيها خطبتي، نفد كل شيء مما كنتُ اظن، بعد أن طَبقتُ وصايا ابي، جعلتهم خائفين من العقاب وهم لم يفعلوا شيء، سوى انهم كانوا طيلة الأسبوع المُنصرم مظلومين، جِياع، يشكون من سوء الخدمات، يعيشون اسوء معيشةً مُقارنةً بشعوب الدول البقية.

اخفتهم من وعيد يوم القيامة بتفسير الآية التي صرخت بها في وجوههم، وددت ان اشرح لهم معنى (الانشقاق) قبل تفسير الآية كما فسرها مُعظم المُفسرون من قبلي، لي وجهة نظر في التفسير اقف فيها على أسباب نزول الآيات قبل الشروع في تأليف قصة دراماتيكية أجعل منها سبباً لنزول الآية، المُفسرون للقرآن بصورة عامة انقسموا لقسمين، بعضهم اخذ مُفردات القرآن ليفسرها وفق معناها الوارد باللغة العربية لكون اللغة العربية وجدت قبل ان ينزل القرآن، وان القرآن نزل لمن يتكلم اللغة العربية ويفقه معناها ليتعلم منه معالم وأصول دين، والبعض الاخر شَرعَ بأخذ معاني كلمات القرآن بما أشار إليه القرآن وقصدهُ حصراً، أي كيفما ورد معنى الكلمة في موضعٍ ما فأنهُ ورد في كل مواضع البقية لأنهُ كلام القرآن ولغتهُ، اخبرتُهم بأن (البخاري) ذكر بأن القمر قد انشق بناءً على طلبٍ من النبي، عندما كان الكفار يُعاندونهُ ويطلبون منه أموراً تعجيزية فطلبوا منه أن يَشق القمر فأنشق

القمر ليغيظ النبي أعداءه[35]، لم اخبرهم بأن عليهم البحث عن دليلٍ علمي لهذه الحادثة قبل تصديق ما كُتِب في تفسير هذه الآيةً، لم اخبرهم بما اكتشفته البحوث العلمية مؤكدةً بأن القمر لا يحتوي على ماء ومسألة انشقاقه مُستحيلة وأن مُعطيات نتائج البحوث المتوافرة تُشير الى أن القمر تكّون نتيجةً لأرتطام كُتلتين لتكون كتلة واحدة، وهذا لا يعني أنهُ انشق، لأن احدث شق في القمر يتجاوز تأريخ حدوثه (100) عام وأن نسبة التشققات في القمر لا تتجاوز الـ(2%) من حجمهُ الكلي[36] أما إن فكرنا بمنطق الفريق الاخر الذي ذهب الى تفسير الآيات بحسب المعنى الوارد في القرآن حصراً، فأننا سنجد أن كلمة (انشقاق) قد وردت في القرآن بمواضعٍ وأشكال عدة تجاوزت الـ(25) مرة، نراها تارةً تأتي بمعنى الحَرث[37] وكأنها تصف اخذ القليل من تراب كوكب القمر وهذا ما حدث بعدما تمكن الأمريكي (Neil Armstrong) من الهبوط على سطح القمر في 21/تموز/1969، وتارةً نراها تأتي بمعنى التفرقة[38] وبمعنى اختلاف الرأي[39] وغيرها من المعاني مثل (شق الانفس) او التعب[40] و(الشقاق البعيد) للتشبيه[41] وغيرها، احتفظتُ في كل ذلك لنفسي حِفاظاً على التراث المُقدس، لم يُسمَح لي إلا بترهيبهم، لم يَسمح لي ابي إلا بما املاهُ عليّ وأنا قادم، نزلتُ من المنبر دون أن اخبرهم بما يُهدِم نصف ما يعتقدون بهِ اليوم، لم

---

[35] روى (البخاري) حديثاً عن النبي جاء فيه: "انشق القمر ونحن مع النبي، فصار فرقتين، فقال لنا: اشهدوا اشهدوا" انظر: صحيح البخاري/ رقم الحديث 4583

[36] انظر: تقرير وكالة ناسا - SP-362 / الصفحة 207/ صورة 217

[37] انظر: القرآن/ سورة عبس/ 26

[38] انظر: القرآن/ سورة الفرقان/ 25

[39] انظر: القرآن/ سورة الانفال /13

[40] انظر: القرآن/ سورة النحل/ 7

[41] انظر: القرآن/ سورة الحج/ 53

اخبرهم بأن النبي قال في يومٍ ما: "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"[42]

قاطعني قريني قائلاً: لم تكن راضٍ عن نفسك، لمَ إذاً رضيتُ بالذهاب وإلقاء الخطبة وارتداء ثياب ابيك؟

فكرت في جوابٍ مناسب ولكنني لم اجد، سألتني (مريم) وقتها ذات السؤال ولم اجد إجابة ايضاً، لمَ ذهبت؟ لم اكن اعلم.

اعتدتُ آنذاك على أن اقول (نعم) لأبي، اعتدتُ على إطاعته مخافة غضبه وسخطه، اعتقدتُ ايضاً بأن هذا الامر سيجعل لي شأن بين الناس لم اعرفهُ من قبل، وددتُ معرفة ماهيته، لما يجعل الناس غير الناس حين يكونوا في مثل هذا الموقف؟ انا نفسي من نفسي عجبتُ! اشعرُ وكأنني اعوض فشلي في دراستي الجامعية بأرتداء (العمامة) و(العباءة) والظهور الى الناس، كان شيءً ما في داخلي يدفعني لخوض هذه التجربة، كنتُ اتدارك فشلي لأظهر الى الناس بأنني ناجح و ذو شأن، تطلب الامر ان اكون ابن (حميد الله) فحسب وليس هُنالك ضرورة لأن أكون حاصلاً على شهادة البكالوريوس في الشريعة الاسلامية.

اجبتهُ: قبلتُ ذلك لأنني وجدتُ الشأن الذي كنتُ احلمُ به، طوال حياتي وأنا اتبعهُ واجلس بجنبهِ واخرج برفقته، كنت كحاجياته، اتنقل معهُ دون ادنى ارادة، هل جربتُ بأن تكون هامشاً وأنت تمتلك قوىً تدفعك لأن تحتج على واقعك؟

كأعمى يشعرُ بأنفاس من يُحِب، كنتُ بين تلك الحياتين المُتناقضتين التقي (بمريم)، أحدثها عن ضجري وازدرائي لأبي ولأفكاره ولدينه ولمذهبه، أخبرها بما استنتجهُ من اخطاءٍ وما أكتشفهُ من خُرافاتٍ في تراث ديني، ديني الذي يشتكي الجمود ويبغض الحداثة، لأعود بعد لقائها لحياتي المعتادة، لأرضخ لأبي

[42] انظر: صحيح مسلم/كتاب الزهد والرقائق/ باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم/ رقم الحديث 3004/ الصفحة 2299

دون ان اتفوه بكلمة واحدة، الثقة التي منحني إياها ابي فجأة كانت سبباً مُهماً لما حل بي، تغيرت مشاعري اتجاهه، تغييرهُ المُفاجئ اتجاهي كان غريباً، بين ليلة وضُحاها اصبح يعاملني وكأنني من مقامه، بات شأني من شأن كل من حولهُ من اتباعهِ ومن مُمثليه، أتذكر جيداً ذلك اليوم الذي كان نصحني به ووجهُني بشأن خُطبة الجُمعة، لعل هذا التغيير جعلني ارضى لأن اكون على شاكلته، ولكن كيف حصل ذلك، وأنا املك هذا الكم الهائل من الانتقادات لأفكاره ومعتقداته!! بكل تأكيد كنتُ تحت تأثير صدمة تغيرهُ اتجاهي.

تغيرت (مريم) بأثر هذا التغيير ايضاً، كنت أخبرها بكل ما حدث وقتما ألتقي بها في تلك الطرقات المظلمة سراً، بدأتُ اقرأ في عينيها سطوراً من الجحود، كانت نظراتها تفوح بالغزل كما يفوح عطر الياسمين في اول استنشاقاً له، تغيرت (مريم) كثيراً، تغيرت ملامح علاقتنا.

التقينا بقلوبٍ مكسوةً بالوجع، بدأ كلامُنا يجرح كِلانا، بدأ حُبنا يضمحل اثر اختلاف افكارنا، طوال الأيام التي جمعتنا كنت ابوح لها بما كنتُ أخاف التفكير به، اتهمتني بالكذب، بدأت تخاف مني، اضفى الخلاف بين طبقات المجتمع صبغتهُ على علاقتنا، كنا إنموذجين مُصغرين للخلاف الدائر من حولنا، كانت (مريم) من عائلة شيوعية ولذويها الانتماء الصريح لحزب (برشام)، وكنت أنا، أنا أوهن من أن أكون.

في عتمةٍ ما، سرنا بخُطًى تقترب بعضها من بعض، نتودد لعِناقٍ لا ينضب، تقربتُ منها، اخذتُ خصلات شعرها لجهة واحدة من ميناء رقَبتها، جعلت سُفن قُبلاتي ترسو على الجانب الاخر، كنتُ ثملاً جداً على ذلك الميناء الناصع البياض، ثملاً من رقتها دون ادنى خمر، اتعاطى من انوثتها القليل في كل لقاء كما يتعاطى مدمنو الافيون ما يكفيهم من خدر، كنتُ امسك بخصرها فأشعر بهشاشة الكون، كُل من حولها خُلق لأجل غاية،

إلا هي، خُلقت من غير غاية لتكون لأجلي، جمالها كان ضد كُل ما أؤمن به، انظر الى قوامها فأرتعش، بعد النظر إليها أرى كل شيء باهت اللون، وكأن الحياة بلا الوان، هي اجمل من قصيدةٍ كتبها شاعرٌ مُشتاق، هي انقى من كل قصد قصدهُ في اصدق قصائده، استنشقتُ من عطرها عطراً كان كأغاني الخمسينيات، لهُ نشوةً في فحواه وليس لمَظهرهِ أي إثارة، لها عِطر يجعلني مُتَلعثم الانفاس، وهي في اوج جمالها ...

سألتُها: ما أسم هذا العطر الذي تقتنيه؟

مع التفاتة صغيرة جعلتها بالقرب من وجهي ...

اجابتني: لا يهُم اسمه، المهم تاريخ اقتنائه.

قلت: يفسد عطرك كُل النوايا الحسنة التي اضمُرها لكِ، يجعل النوايا الصالحة غير صالحة دُفعة واحدة.

توقف الليل مندهشاً من حُسنِها ...

اجابتني: هل تعلم ان بعض النساء لا يستعملن العطر بقصد التعطر؟

نظرتُ لها نظرة شَغف تترقب الإجابة ...

استدركت قائلةً: لتوثيق لحظاتٍ لن تتكرر بعد حدوثِها.

التفتت لي، وضعت كلتا يديها حول رقبتي، عانقتني فشعرت بأن الأرض تتحرك من تحتي، أغمضتُ عيني لأحتفظ بجمال تلك اللحظة، اغمضت عيني لأصدقها، شعرت بأن الأرض تدور حول نفسها بسرعةٍ اكبر مما قُدِر لها، لامس شعرها وجهي فتوقفت الأرض عن الدوران، حل السكون على سطح كوكبنا، وبعد ان وضعت رأسها على كتفي صمت الكون بأثر جمال تلك الحظة، هَمستَ بكُل رِقة وقالت: "لا شيء يحتفل بحضورك كدقات قلبي" عانقتني، عانقتني لتثبت لي صحة كلامها، ظل قلبها يُعانق اضلعي لدقائق تفوق الواحدة منها آلاف الثواني، بعد

العِناق، جلسنا سوياً، اصبح وجه الليل شاحب، شعرتُ بأن شيئاً ما سيحدث، كانت افواهُ نظراتها تقول بأننا لن نستمر اكثر، بين اجفانها، هناك لمحات وداع، لم تبوح لي بشيء إلا ان اجبرتُها على ذلك، جلسنا بصمت، نتبادل نظراتٍ عرجاء، وكأن بيننا فجوةً اخلفها زلزال، كُنا بالقُرب من بعض بحكم القلب وما يكنهُ من مشاعر وعلى بعد اميال من بعضنا البعض بالمظهر والعقل والمبدأ.

سألتهُا: هنالك شيء ما في داخلك، متى ستبوحين به؟

اجابتني بسؤالٍ دون ان تلتفت لي: وما تظُن ان يكون ذلك الشيء؟

قلت: لعلهُ شيء تخفينهُ عني.

قالت: أمين، هل تظن أننا وصلنا الى مُفترق الطريق؟ أم هنالك المزيد؟

لم اجيبها بشيء، جلستُ مُتكاتف الايدي، أتنفس الصعداء ...

سألتني: هل ما زلت لا تنظر الى نفسك في المرآة؟

لم اجيبها، سؤالها يحمل غيوماً من الألم ستُمطر العَتب على ما سأقوله، لأنني تأنقتُ بمظهري ونظرتُ الى المرآة، سبق وأن اخبرتها بأنني ابغض ذقني ومظهري ولا انظر الى المرآة، ولكنني نَظرت، نظرتُ قبل ان اذهب لإلقاء خُطبة الجمعة، كنتُ فخوراً حين اهداني ابي قيافة رجل الدين خاصتي، فاجئني وقت العصر واوعز لي بأن ارتديها وان استعد لصلاة المغرب في منزلنا لأن هنالك اجتماع مهم لمناقشة الوضع السياسي الراهن ولتوجيه أتباعه بنصوص الخُطب ليوم الجمعة المصادف لليوم التالي لذلك اليوم، كُنت أنا من ضمن الحاضرين لأنني كُلفِت ايضاً بإلقاء خطبة، حين سألتني، لم أتذكر وقفةً امام المرآة غير تلك، لم أتذكر غيرها لأهميتها، احتوت على الكثير من المُتناقضات التي

تُشير إليها بسؤالها، تناقضات لم اعُد امتلك لها إجابة، بتُ راضٍ عن ما كُنت ابغض، كيف لي ان اجيبها وأنا ضعيفاً الى هذا الحد، بتُ سراباً يدّعي الوجود، فكرتُ كثيراً في ان أكون من دون ابي، ولكن كيف؟ اين المفر منه وسلطتهُ تسري على كل أراضي الدولة وحدودها، جعل كل الناس يعرفون هويتي من وجهي، وجه ابي يظهر على وجهي فيعرفونني، أنا جزءً منه لا يمكنهُ الانفصال، كل ذلك لم تكترث لهُ حين خيرتني بينهُ وبينها.

سألتني بإستهزاء: لم تحدثني عن ما القيتهُ في خطبتك؟ ألم تُحدثهم عن متناقضات دينك التي حدثتني عنها؟

نظرتُ إليها نظرة امتعاض ثُم اجبتها: كلا.

قالت وفي صوتها نبرة ندم على إستهزائها: ألم تخبرني من قبل أنك رافضاً لواقعك؟ ألم تخبرني بأنك تريد ترك ابيك والهرب من سلطته؟

سألتها: وأنتِ، لم تخبريني كيف لي ان افعل ذلك؟

صمتتَ، التزمتُ الصمت أنا ايضاً، صمتت كُل ذريعة كان بأمكانها ان تُساعدنا، صمتَ كل الكون مع صمتِنا، صمتْنا لدقائق في لقائنا الحالك، ادركنا حجم عجزنا عن تغير واقعنا، سبق وان اخبرتها برفضي لهُ إلا انني لم اخبرها بأنني عاجزاً عن تغييره، الذنب ذنبي.

اتسعت الفجوة التي بيننا اكثر، لم نعد نلتقي لقاءً يشوبه عِناق، اصبحنا دُميتان يدعيان وجود الروح، باتت ملامحِنا باهتة ونظراتُنا بكماء، أصبحت خيارات فراقنا عديدة، اصبح ما بداخلنا يتهم بعضنا البعض بالكذب، أتهِمهُا بالكذب لأنها اليوم تطلب مني ان افعل ما لا اقدر على التفكير به، كنتُ واضحاً معها كوضوح الشمس في ظهيرة فصل الصيف، لم اكذب حين اخبرتها بأنني ارفض الاستمرار بالعيش مع ابي، ولكن كيف لي ان اهرب منه؟ كيف لي ان افكر في ذلك وكل ما حولي يخضع له، كل من

حولي على وشك ان يعبده، هم لا يتبعونه فحسب، كيف اهرب منه وأنا لا أزال هشاً امام جبروته، بادلتني المشاعر وهي على دراية تامة بأنني لن أتمكن من خلع هذه الثياب الدينية التي لا يُسمح لي بارتداء غيرها، بادلتني الاعجاب وهي ترى ذقني الذي اكرهه واكره النظر له، لمَ طلبت مني فجأة ان أكون على غير ما أكون؟

يسألني قريني: هل بادلتك الحب بالقدر الذي منحتُها إياه؟

اجبتهُ: بكل تأكيد، العناق لا يكذب إن كَذب الكلام.

قال: لمَ تتهمُها بالكِذب إذاً؟

قلت: أتريد الحق؟ هي لم تكذب، فكرت في مُستقبلها فحسب، كيف لنا ان نرتبط؟ كيف لنا ان نجمع بين عائلتين ليس لهما تاريخ مُشترك؟ عائلتان لم يتفقا على شيء قدر اتفاقهُما على التطرف لأفكارهُما، بادلتني (مريم) الحُب قدر تعلق الامر بالحاضر، كل الطرق المؤدية لمُستقبلنا مُغلقة، لم نتفق على شيء سوى اننا اتفقنا على عجزنا على التغيير، طلبت مني التغيير دون نفسها، كان علينا ان نتنازل عن الكثير من اجل ان يجمعنا بيت واسرة، كانت تنتظر مني ان آتي بمعجزةٍ في زمن شحت فيهِ المُعجزات، وصلنا لمُفترق طريق دون أن نَسير خطوة واحدة، تجدد لقائنا البائس، نجلس سوياً في ليلة افتقدت لوجود القمر، كان مُحاقاً، عَلِم بأننا سنفترق فلم يأتِ، لم يأتِ كي لا يذكُرني بتلك الليلة التي نظرتُ إليه فيها في دقائق فَتحَت فيها (مريم) اعلى ازرار قميصي لتضع جبينها بدلاً عنها، كان منظر القمر امامي مُشرقاً، كان بدراً ينير دربنا، ليلة فراقنا لم يأتِ، كان خجولاً من تلك اللحظات التي ظل يضمُرها لأجلي.

تركتُ الذكرى وسألت قريني: متى يحل الليل هُنا؟

اجابني: لا يوجد هُنا ليل أو نهار.

قلت: كيف؟

قال: الـ(كيف) التي تسأل بها تجد لها إجابة وفق علوم الأرض، هُنا كُل شيء خارج قدرة فهمك واستيعابك.

نظرتُ في كل الاتجاهات، الى النور وهو يتخلل اغصان الشجرة من فوق رأسي ...

سألته: لا أرى الشمس؟ ألسنا في النهار؟ لم أر الضياء دون أن أرى الشمس؟

وهو جالساً، التفت لي نصف التفاتة، لا يزال ذلك الوشاح على رأسه يمنعني من رؤية ولو القليل من وجهه ...

قال: كُل شيء هُنا بلا توقيت.

خوفي لا زال يزداد، كل شيء من حولي ليس لهُ تفسير، ليس هنالك إجابات لكُل سؤال اسألهُ، يمنعني من النظر الى وجهه، لا زلت اجهل صوته، لا اعلم ان كان ذكراً ام انثى، يمسك بتلك السلاسل التي تنتهي بأغلال حول معصمي، لمَ يحتجزُني؟ هل هو بشر توفى مثلي؟ أم ملاك كُلِف بأحتجازي بأغلالٍ كتلك التي أشار اليها القرآن؟ هل انا مُذنب بجرمٍ ما؟ ما الجريمة التي اقترفتُها؟ كيف مُت؟ ماذا فعلتُ في بقيةِ أيام حياتي؟ اذكرُ أني تجاوزت الخمسين من العمر ولا اتذكر سوى احداث كُنت فيها بعمر الشباب، كيف لي ان استدرجهُ ليتكلم، ليشرح لي لمَ أنا هنا؟

اصطنعتُ السذاجة وسألتهُ: كم عمري الان؟

اجابني: لا توجد اعمار هنا، الكُل هُنا بأعمالهِ وليس بأعمارهِ.

قلت: اعلم اني قد فارقتُ (مريم)، ولكن كيف ومتى؟ لا اعلم.

قال: ستتذكر الان.

تحركت السُحب بسرعة غريبة، ازداد خوفي، بلغ حجمهُ حجم السماء، متى سينتهي هذا العذاب؟ عدتُ أرى نفسي في تلك

الغُرفة البيضاء، أجلسُ ذات الشكل الذي اجلسُ به هُنا، عدتُ لأرى ما فعلهُ ابي بي، اكرههُ اشد الكُره، ابي ليس انسان، تذكرتُ تلك النافذة التي شاهدتُ فيها مكره وكذبهُ وتدليسه، بعدما مرت عدة اسابيع اذهب فيها نيابةً عنه لإلقاء خطبة جمعة.

تمكن ابي خلال تلك الفترة من كسب محبتي وزيادة اعجابي به بعد ان تمكن من تغيير نظرتي اتجاههُ واتجاه مُعتقداته، تمكن من أن يجعلني من اتباعهُ بأمتياز، منحني ثقة كبيرة ومكانة مهمة بين متابعيه، أصبحت لي أرائي الخاصة التي القي بها خلال أي اجتماع لنا في بيتنا، جعلني من ادواته التي يُحرك بها عقول المجتمع، كنت فرحاً بحكم عمر عقلي، اصبحت لي هيبةً اتفاخر بها، خالفتُها في السابق، إلا انها تمكنت من ان تشتريني لما تحملهُ من سِحرٍ خلاب يُدعى (السلطة)، رأيتُ مشهداً جعل من كل الحقائق التي سَلمتُ لها رماداً، لتجيء الريح على غفلةٍ وتجعلها هباءً، في ذلك الصباح المُظلم، لم تشرق الشمس، لم أر نور الشمس باللون الابيض بعد ان فارقتُ (مريم)، كانت ليلة تبكي ليال لقاءاتنا على شكل دموعٍ، اتفقنا على ان نفترق، بعد ان اعترضنا المُحال ونحن في طريقنا الى السعادة، بعد ان اغلقت السماء أبوابها بوجه ادعيتنا.

احبتني كما احببتُها، إلا انني اوهمتُها بذلك الاندفاع الذي اعتلى كلامي في اول لقاء لي معها، ظننتُ اني احسن صُنعاً بذلك لئلا تراني مُتشدداً بحكم مظهري وذقني، وددتُ لأن اكسب ودها، إلا انها كانت تظُن بأنني اخدعُها، اتهمتني بخدِاعها، حين اخبرتهُا بأنني لا اطيق العيش تحت وصايا ابي، ظننت وقتها بأنني قادراً على العيش بمفردي، كانت طوال تلك الفترة تظن بأنني سآتي اليها يوماً لأقول لها: "هيا لنهرب" سألتني في تلك الليلة إن كنت اود الارتباط بها، كان سؤالها مُعلقاً على شرط، والشرط هو ان أكون على شاكلتها، لم تفكر لحظة ان تكون هي على شاكلتي، حين طلبت منها مُجرد انها تفكر في الامر رفضت مع غرابةً

شديدة، اخبرتها بأن ذات تلك الغرابة اقضي برفقتها الليل بأكمله وأنا افكر في حلٍ لمستقبلنا الكَفيف، اوشكنا على الفراق، افترقنا حين لم اجيبها على اخر سؤال لها قبل ان تتركني جالساً وترحل، سألتني: "إن كُنت غير قادراً على التضحية، فلما أحببت؟" تركتني لما تبقى لي من عذاب، اضعُ كلتا يديّ على مسامع مشاعري هرباً من ضوضاء الآسى، تركتني ورحلت دون ان تقول لي "الوداع" بقيتُ انتظرها لسنواتٍ عديدة، أنا ميت الآن ولا زلتُ انتظرها، لا عيش لي من دونها، ولا موت لي ايضاً، كانت لي الحياة، كان وجودها بالقرب مني يُعَرفُني بالسنين التي كُنت فيها على قيد الحياة، عمري لم يكُن سوى ايامٍ احسبهُا وفق يوم مولدي، أما حياتي فكانت تلك الفترة التي قضيتُها معها، هُنا يكمُن الفرق بين (العُمر) و(الحياة).

تألمتُ كثيراً من بعدها، كانت حُبي الأول، اول امرأة المسها، اول امرأة اتحدث معها، اول امرأة من غير نِقاب تنظر لوجهي دون ان تشمئز منه، اول من ينصت لألمي ولمأساتي، الأول والأوحد لكل ما قُلت، لم املك رفيقاً غيرها، كانت الصديق والحبيب في آنٍ معاً، كانت ذلك الصندوق الذي يمتلك كُل اسراري ويحفظها ويصونها، لم اعد امتلك شيء من بعدها، خسارتي برحيلها كبيرة، فُراقُها ادمى كل احلامي، قضيتُ تلك الليلة وأنا اتجرع اقسى أنواع الألم بكؤوس العجَز، لم اكُن قادراً على ان أكون غير عاجز، ما كانت لأحلامي حيلة لتتحقق، عاجز حتى عن ذكرِ اسمها، أنا الذي لم افعل المُستحيل لأجلها، سهرتُ حتى شروق الشمس، كان صباح يوم جمعة مُعتم، ارتديتُ ملابسي الدينية التي فضلتُ وجودها على وجود (مريم)، وقتها لم اعد افهم، هل أنا من اختار ان أكون كذلك؟ ام القدر اختار نيابةً عني؟ أيُعقل أنني بدلتُ (مريم) بهذه الحياة التي اعيشهُا وابغضُها معاً! أيُعقل أنني سعيد من دونها! أيُعقل أنني كنتُ املك الخيار

في الهرب من ابي! لم يمنحني الندم مُتسعاً من الألم لأفُكر، بتُ عديم الخاطر.

ذهبتُ الى القرية في صباح اليوم الذي تلى فراقها، وأنا اجلسُ في تلك الغُرفة التي اعدُ فيها خُطبتي وثيابي لما قبل موعد الخطبة شعرتُ بالتعب، استلقيتُ على اريكةً في إحدى زوايا الغُرفة لأنال قسطاً من الراحة، ظن اتباعُ ابي المُرافقين لي في المجيء والعودة بأنني ذهبتُ الى حرم المسجد، سمعتُ أصوات حركةً غريبة، فتحتُ ستائر الغرفة لأعرف ما الامر، وجدت العربتان اللتان كانتا على الدوام بحوزتي خلف المسجد، كان ابي يجعلني آتي بعربة حملٍ صغيرة للتمويه والحفاظ على حياتي من اية عملية اغتيال، كان يقول لي هكذا، إلا ان جميع نقاط التفتيش التي على مداخل المُدن التي نمر بها لا تجعلنا نتوقف مجرد رؤيتهم تواجدي في تلك العربة، كانوا يكنون الوقار لي ولمكانة ابي، لم أر احداً من افراد الجيش يعترض طريقي رغم استثنائية الوضع الذي نمر به وقتها، وجدتُ عربة حمل صغيرة مُشابهةٌ لتلك العربة التي اتي بها تفتح أبوابها وتنقُل السلاح والقنابل!!!

اخطأتُ اخطاءً لغويةً كثيرة وأنا القي خُطبتي على ذلك الجمع الذي كنتُ احمل لهم السلاح ليتقاتلوا، لم اكن اعلم ما مصير ذلك السلاح، ولما انا اجلبهُ لهم؟ أليس من المفروض اني داعٍ بدين الإسلام والسلام لهم؟ آتي لهدايتهم ام لقتلهم؟ جعلني ذلك الموقف أن أتساءل كثيراً، جعلني اندم اكثر مما أتساءل، تلعثمت وأنا اقول اول كلمتين لي على المِنبر: "السلام عليكم" هذه العبارة التي يتداول قولها المُسلمون على وجه الخصوص عند اللقاء، ما اجملها وما لها من معنى كبير لنشر السلام والطمأنينة، (السلام) كلمة تُعرفها معاجم اللغة العربية حين تقول "سَلِم فُلان" يعني أنهُ (آمن على مالهِ ونفسه)، يتداولها المُسلمون لنشر روح السلام، هكذا قال دينهم إلا ان رجالَ دينهم لم يَقُولوا ذلك، دينهم اوصاهم بنشر روح السلام حين يرى

بعضهم البعض أو حين يدخل أناس على أناسٍ لم يروهم من قبل فأن دين الإسلام أوصاه بأن يقول "السلام عليكم" ليُعّرف عن نفسهُ بأنهُ مُسلمٌ مُسالم يحُب السلام، لتراه يلقي السلام والأمان وقتما حل وأينما حل، تلعثمتُ وأنا أقول هاتين الكلمتين، عن أي سلام اتحدث وأنا اجلب لهم السلاح؟ عن أي معالم دين أتكلم بخطبتي وأنا مُدججاً بالقنابل اليدوية التي يُؤدي انفجار احداها قتل العشرات منهم؟ عن أي سلامٍ اتحدث وأنا ابن (حميد لله)؟

وبخني ابي حين رجعت الى البيت لما شَهدتهُ خُطبتي من أخطاءٍ لغوية، تمنيت لو كان بإمكاني توبيخهُ على اخطائهِ بحق الناس والدين والدولة، طيلة تلك الفترة وهو يستغلني لنقل السلاح الى القرية، لم يكن ليمنحني تلك المكانة بين المُجتمع إلا ليُوهمني بأنهُ يُحبني او يتفاخر بوجودي او لكوني ابنهُ واطيعهُ، كان هُناك ثمة تساؤلٌ يقتلُني أريد ان اسألهُ إياه، ماذا لو فتش الجيش تلك العجلات التي استقلها؟ هل فكر في أنفجار احدى القنابل في تلك العربة بشكلٍ عشوائي؟ هل فكر في عدد القتلى الذين ستُخلفهم تلك الأسلحة؟ عدد الارامل؟ عدد اليتامى؟ عدد المُعاقين؟ حجم الخراب والدمار؟ تساءلت كثيراً ثم التزمت الصمت، التزمت الصمت حين تذكرت ما يحملهُ ابي من آياتٍ قُرآنية تحثُ على القتال والجهاد، لما يحملهُ من وعودٍ بجنانٍ لكل من يستشهد من اجل تلك التفاسير الخاطئة، اعتمدوا قياس الوضع الذي نُزّلت بهِ هذه الآيات على وضعهم في كل زمان ومكان تواجدوا فيه ليمنحوا المُبررات لما يرتكبوا من جرائم، لم يفقهوا يوماً أسباب نزول كلٌ من تلك الآيات كي لا يصطدموا بفجواتٍ زمنية بين زمانهم وزمان نبيهم، يريدون الحروب على الدوام حتى تدوم الغنائم والجواري الإماء، حتى ينعمون بالدنيا وينامون النوم الهانئ لما يحملوه من وعودٍ تعدهم بالجنة، تلك الوعود سينهال ابي عليّ بها لو سألتهُ لمَ تستغلني لنقل السلاح، لو سألتهُ لمَ تقتل بأسم الرب؟ لمَ اوهمتني؟ كنتُ على وشك ان

أُصدقُك وألوم نفسي؟ اخبرتهُ بعد ان وبخني عن سوء القائي للخطبة بأنني كنتُ مُتعب ولم انم جيداً في الليلة التي سبقت ذلك اليوم، تجاهلت الامر بقدر الندم الذي كان على عاتقي وأنا أتذكر فُراق (مريم) في الساعات القليلة الماضية، يا ليتني هربتُ لأجلها، يا ليتني ربِحتُها وضحيتُ بحياتي التي خسرتُها دفعة واحدة، غرني كل الفخر الذي بات الان وهم، كيف لي ان اخبرها بأنني نادماً وعلى اهب الاستعداد للهرب.

بحثتُ عنها، ولكن الأوان قد فات، راسلتها كثيراً ولم اتلقى أي رد، لم اعد التقي بها، وقفت كثيراً امام منزلها لأنتظرُها ولم اراها، ذهبتُ للقائها في الجامعة، وقفتُ امامها عدة مرات ولم تلتفت لي، لم تنظر لوجهي، لم تكترث لوجودي ولأنتظاري، لم تعد تبتسمُ من اقصى مكان تُشاهدني به وأنا آتٍ إليها، لم تعد تجمعنا ليالِ مُضيئة في طُرقاتٍ عتمة، كانت تُضيء من شدة بياض وجنتيها، كانت ليالٍ بطعم قُبلاتها، مُعطرةً بعطر أنفاسها، مُتبرجةً بروعة تواجدها، ملأت عيني دمعةً سوداء يوم رأيتُها برفقته، ذلك الشاب الذي مسك يدها وهي تجتاز الطريق خارجةً من الجامعة، كان بأنتظارها وكانت تتوق لرؤيته، ابتسما سوياً وقتما التقيا، كررا ذات الابتسامة في كل لقاء، راقبتهُما لأيامٍ، أياماً وأنا ابعثُ الدُعاء الى السماء لأن تكون علاقةً عابرةً سأسُامِحُها عليها، احبُها لدرجة ان اغُفر لها ما تشاء من أخطاء، أغفر لها قتلي لو شاءت، بعثتُ الكثير من الادعية الى ان انتهى صبري واعترضتُ طريقها ذات صباح، وقفتُ امامها مُتشحاً بالندم، وقفتُ والرجاء يخرج من نظرات عيني لأن تتفهم ما أنا عليه، لم أفكر كيف ابدأُ الحديث معها، وقفتُ امامها ونسيت من أكون كعادتي، خارج ما يُحيطُنا من شجى، وقفتُ في ذلك الحيز المُحاط بهالة الأشتياق، وددتُ أن اهدي لها ألف وردة حمراء، إلا أن أولئك الذين في الخارج كانوا يقتلون كُل شيءٍ جميل، ابتسمت بوجهي لتقول لي اني غريب، لم تعد ابتسامتها تلك الابتسامة خاصتي، رأيتُ ملامح

وجه ذلك الشاب في ابتسامتها، في انعكاس ضوء عينيها، مدت يدها اليُمنى لتُصافحُني تلافياً لنظراتي الغريبة وأنا اعترضُ طريقها في مكانٍ عام، لامستُ يدها فشعرتُ بوجودهُ، ليس في ابتسامتها، رأيتهُ يمتلكُها، لامس يدي معدن بين اصابعها، وأنا امسكُ يدها عند مصافحتُها، رأيتُ خاتم خطوبة بين اصابعها، رأيتهُ يخطفُها مني ويهربُ بعيداً، رأيتها على كتفه تبتسم فرحاً، تنظرُ لي وهي تبتعد، سمعتها تقول تلك الكلمة التي لم اسمعها منها وقت فُراقنا، حين تركتني جالساً لا أزال على قيد انتظارها، تركتُ يدها بعد هذا المشهد الأسود، صمتت وقالت ملامِحُها ما كنتُ اخشاه، قالت لي: "الوداع"

الفصل الثالث

أيلول /1980 – الغزو الروسي

تحققت نبوءة ابي، أدت الخلافات الداخلية بين الأحزاب الشيوعية الى انقسام السلطة وضعفها، دفعهم طمعهم لخيانة الوطن، كانوا في ابهى صور التطرف للحزب على حساب الوطن، تلك الفئوية التي كُنا ننتقدها في التكتلات الإسلامية باتت الأحزاب الشيوعية تفوقها تشدداً وتَطرفاً، تحققت نبوءة ابي وقتل بعضهم بعضاً ومن ظل منهم على قيد الحياة وقف على حدود (أفغانستان) يُلوَحُ بمقاليدها ليعرضها للبيع.

ساء الوضع بسبب نهجهم غير المقبول على ارض الواقع، فليس هناك منهج من الممكن ان يرى بصيصاً من النجاح وهو يُخالف طبيعة المكان الذي يُطبق فيه، الشيوعيون في (أفغانستان) لم يكترثوا البتة لهذا الشيء، حال حقدهم الدفين بصدد تلك الأيام التي اضُطهِدوا فيها بينهم وبين نجاح منهجهم، من اهم مناهج (حزب خلق) التي خالفت ارض الواقع آنذاك هي ما تم اتخاذهُ من إجراءات بصدد ملكية الأرض والزواج بالإكراه وقوانين الشريعة وبناء سلطة تقليدية في الأماكن القروية، سار الشيوعيون وكأنهم وحدهم على الأرض، لم يُعيروا أي اهتمام بأنهم كانوا يحكمون أمة ذات ثقافة عميقة التدين وذات تاريخ طويل في مقاومة أي نوع من سيطرة الحكومة المركزية[43] نَسوا

[43] John Ishiyama: The Sickle and the Minaret: Communist Successor Parties in Yemen and Afghanistan after the Cold War/ The Middle East Review of International Affairs (MERIA)

تماماً بأن تحت ظل حكمهم شعباً تربى على ان المقاومة من شِيم الشهامة والمُغالاة في حُب الوطن، اياً كانت صور هذه المقاومة، المهم ان لا يسري عليهم أي قرارٍ حكومي، شعبنا كان كذلك، سنوات طوال وأجيال عديدة تربت على سياسة الاعتراض، اياً كان الحاكم فالُمقاومة واجبة، ويستثنى من ذلك الزمان الذي كان فيه الحاكم مُلتحياً برداءٍ إسلامي.[44]

شهور طوال والشعب يغلي غضباً، بدت سياسة التصعيد والحث على حمل السلاح ان تكون علنية، بدأ الكل يجمع السلاح من اجل المُقاومة، بدأت بعض القرى تعلن عصيانها، مُنِعت وضُرِبت قوات حكومية عدة مرات، شهورٌ والشعب ينتظر من رجال دينه أعلاناً صريحاً رسمياً لمقاومة، ألا ان رجال الدين في تلك الفترة كانوا يعدون العُدة والعدد فقط، التزموا الصمت حيال أي قرارٍ صريح بالمقاومة.

لا شك في ان نتائج دراسة إمكانية تطبيق أي نظرية ما هي إلا المؤشر الأول والاهم لتحديد نجاحِها من عدمهِ، في كل المجالات يُعتمد هذا المعيار، إلا في السياسة، ففي كل المجالات حين يضع احد العلماء نظريةً ما فأنهُ، وقبل نشرها، ينظر لكل النظريات التي صُدِرت من قبل في المجال الذي بحث فيه، منهم من رأى فشلها فألتزم الصمت، منهم من رأى فشلها فأجتهد في إيجاد الحلول لأسباب فشلها، ومنهم من رأى نجاحها فأستمر في تطويرها او اظهارها بصيغةٍ تواكب العصر الذي بحث فيه، لتكون نظرية بحدِ ذاتها، وليست منسوخةً او مُشتقةً، لتكون لها براءة اختراع تُسمى على اسمها، لتكون ذا نفع ليشع نور فرضها، في السياسة، تطبيقُ النظرية على الواقع شرط نجاحها، وعدم تقبل الواقع لها هو ليس مؤشراً على فشلها فحسب، بل هو مؤشراً على عدم وجودها في الأصل.

---

[44] Walker, Martin (1993) The Cold War and the Making of the Modern World .Fourth Estate . p.253.

ظلمَ التاريخ من قبل الكثير من النظريات، الكثير من الفرضيات، مُشكلتها الوحيدة كانت إن من اخترعها او تبناها كان لهُ عقلاً سابقاً لزمانه وغير مُلائماً لمكانه، مُشكلتهُ أن لهُ تفكيراً نادراً بين اقرانهُ في المجتمع الذين يعيشون جميعهم بذات العقول على حدٍ سواء، ظلم التاريخ الكثير من قبل، منذُ زمن الخلافات الإسلامية القديمة وعهد حكم الكنيسة وغيرها ومن قبلها ومن بعدها، الكثير من العلماء اتهموا بالكذب والسحر، فَرض مُخترعيها تجربتها على مجتمعٍ لا يتقبل عقلهُ الايمان بها، لعلها جاءت بشيءٍ مُخالف للمعتادِ، او لما تراهُ العين في ذلك الزمان، او لعلها كانت آنذاك دليلاً لكشف أكاذيباً اصبحت شرائعاً مُقدسةً، أو لخرافاتٍ كانت على وشك العبادة.

على مر الزمان، لم تنشأ نظريةً سياسيةً من الفراغ، لم تكن هنالك فرضيات لم تجيء من رحم الحاجة، كل المبادئ والنظريات السياسية ولدت من رحم مشكلة اجتماعية، ليُكتَب لها العمر وتُطبقُ فيه بقدر عمر المُشكلة التي ولدت منها، لتموت في نهاية المطاف مع موت سببها، إلا تلك المبادئ التي تبناها اولئك السياسيون والذين تعاملوا معها كما يتعامل صانع الفُخار مع الطين، تلك التي كُتِبَ لها الخلود لطالما اقرت بأن مواكبة التطور هو سر بقائِها صالحةً للتطبيق وسر ديمومتها.

انجح السياسيين هم أولئك الذين يتعاملوا مع مبادئهم اللائي أرادوا فرضها بالشكل الذي يستسيغهُ مجتمعهم، انجح السياسيين أولئك الذين يقرءون صحف مُعارضتهم قبل صحف مُتملقيهم في كل صباح، ليسارعوا الى كبت انتقاداتها، انجح السياسيين أولئك الذين يضعوا أفكارهم على الواقع الذي يدبروا امره كما يضع صانع الفخار الطين على (الدولاب) وينظر الى تشكّل الفخار اثناء دورانه، يُحرك افكاره التي يريد تطبيقها كما يُحرك صانع الفخار يديه حول كومة الطين، يصنع ما يريد شيئاً فشيئاً، يواكب فكرتهُ شيئاً فشيئاً، يكّونها كيفما يشاء الواقع

وليس كيفما يشاء هو، لا يفكر في صُنِع اواني حجمها اكبر من حجم الطين الذي بين يديه، حين نرى تحكم صانع الفخار بالطين وهو يمنح السُمك لمكانٍ معين ويترك اخر، حين يضع نقوشاً في الزوايا ويترك القاع سميكاً ليستند عليه ما صنعهُ، نتمنى ان نرى من كل سياسي يمسُك زمام أمور اوطانُنا بأن يكون على هذه الشاكلة، يكون وفق ما يجب ان يكون وليس كما ظن ان يكون، سيرى وقتها افكاره الهشة كيف أصبحت صلبة، كمثل الطين الذي على (الدولاب)، سيراها كيف أصبحت صلبةً وذات هيئةٍ وشكل يسر الناظر وتجلب النفع، حين تولد أفكارٍ سياسية ويتبناها سياسي حَسِن النية، فأنها تكون كالمَصل الذي يُحقنُ فيه المرض ليُكافحهُ، اما إن تبناها بُغية نيل رضى دول الجوار فأنها ستكون كاليدين اللتان تُحيطان برَقبة الوطن لتخنقهُ، ترى تغير لون وجهه تدريجياً بسبب هذه الأفكار، يرى سمات الوطن المُتوفاة وهي تعتلي ملامح شعبه، أولئك الخونة ستُلاحقهم لعنة ما تسببوا بهِ من عذابٍ بقدر تلك الأموال التي جناها اغلبهم بصيغة (معونات) لدعم الاقتصاد.

ان تتبنى نظريةً سياسيةً والفقراء تحوم حول ذهنك، فأنك كمثل الذي يستخدم المواد التي استخدمها الفراعنة للحِفاظ على جثث ملوكهم، ستدوم افكارك هذه وسيبقى العمل بها بكل زمانٍ ومكان، سيُكتب لها الخلود بعد موت أصحابها، تدوم تلك النظريات التي جاءت من اجل الفُقراء قدر ديمومة الفُقر، فالفُقر دائم ما دام سيد الناس اغناهم، يستند كل غني على قاعدةً كبيرةً من الفقراء، قُوتُهم (إن وجد) هو دخّلهُ الدائم، سواء كان ناتجاً عن جبايةً او زكاةً او ضرائباً او رسوماً او حتى صدقةً جاريةً، فالناس احياناً يقدمون الصدقات إعاناتٍ لأُناس لهم ما يكفيهم من عيش رغيد في خزائن المال العام.

اصارع طوفان الوهم ثُم اقف صامتاً، احرك بقدمي العُشب الغريب الذي على الأرض، أحركهُ فلا يتحرك، افكر فيما اسرد

لقريني من مُعتقداتٍ تبنيتها وبين ما عشت من أيام تخللها الظُلم، العشب الذي على الأرض غريب، وكأنهُ سراب، انحني بالقرب منه محاولاً امساكه فلا يكون بين أصابع يدي، كل شيء هنا وكأنهُ سراب، سراباً بألوان زاهية، كمثل كُل ما كُنت اؤمن بهِ ولم يُكتب لهُ العيش.

انظر الى كل ما حولي، كل شيء كاليوم الأول لي هُنا، السُحب وضياء الشمس والسهل الاخضر، حتى قريني لا زال يجلس كما هو، لا زال لا يسمح لي بالنظر لوجهه او التعرف عليه، لا زال يحدثني وهو يجلس على سفح تلٍ صغير، يمسك بالسلاسل التي تقيد معصمي، لا اعلم الى اين ينظر، لا اعلم ما يخفي عني، لا زلت الى الان لا اعلم كيف مُت؟ حدثتهُ دون أن يسألني، انظر إليه وهو لم يتفوه بكلمة، اخبرتهُ كيف هربنا تلك الليلة الى (بيشاور).

خرجتُ من الديار تاركاً ارض الوطن وجحيم ابي، خرجتُ مع اعدادٍ كبيرة هربت فزعاً من القوات الروسية التي دخلت أراضينا بناءً على طلبٍ من رئيسنا الذي كان من المفترض ان يحمينا من أي تدخلٍ خارجي، خرجتُ مُحملاً على اكتاف اتباع ابي المُقربين وأنا انزف الدماء بعد ان جلدني ابي ثمانون جلدة، قُسمها عليّ قدر استطاعتي لتحملها، بقيتُ طريح الفراش لأسابيع لم أتمكن من السير خلالها، وما أن وصلت الى (بيشاور) هربت بعيداً عن ابي.

سألتُ قريني: هل تعرف (بيشاور)؟

أجابني: نعم اعرفها، اكمل.

اجبتهُ: لمَ انت غاضب؟

قال: لستُ بغاضبٍ، اكمل.

انتابني خوفاً من غضبه، لما هو غاضبٌ مني؟ وجلٌ أنا من غضبه هذا، أتذكر تلك الأيام التي تلت هروبي من ابي، تذكرتُ لمَ جلدني، خفت لئلا أكون على خطأ وقتها، الاغلال التي على معصمي توحي لي بأن قريني غاضباً مني وهو من سيُحاسُبني، هو المَعني بتحديد عقوبتي، ولكن، كيف لا اظنُ بهِ هكذا وهو يحتجزُني بهذه الطريقة؟ كيف لا وهو مُتمكناً مني لدرجة انني لا أتمكن من الهرب منه، ولا أتمكن من التقرب إليه، واصلتُ حديثي، أكملت تذّكرُ تلك الذكريات السوداء، اخبرتهُ عن تلك الليال المشؤومة، طالت كثيراً، طالت لسنوات، لم أذق طعم الراحة والطُمأنينة بعد هروبي، لم أر يوماً جيداً من بعد تلك الليلة، انتهى (أمين) ذا الوجه النضر، دأبتُ على مُخالفة رأي ابي كثيراً، لم اعد القي الخُطب بدلاً عنه، تمكنتُ من ان أقول لهُ (كلا) مراراً، رفضتُ الذهاب الى القرية في بادئ الامر ذريعة المرض، اخبرتهُ بأنني اشكو من التهابٍ حاد في حُجرتي يمنعني من الكلام بصوتٍ واضح، وفي الأسبوع الذي تلاه اخبرتهُ بأنني اشكو من نزلة بردٍ، كان الطقس صيفاً آنذاك، لم يُصدق اياً من الذرائع التي اقدمها له، غضب مني ولم يفصح عن ذلك، حَركَ رأسهُ إيماءً بسماع ما أقول ثم يُؤشر لي بكف يدهُ لأنهض من جانبه، استمرت تلك الذرائع كثيراً، لم اكن اراه بأستمرار، قضيتُ تلك الأيام مُعتَكفاً في غرفتي افكرُ في (مريم)، كيف بَدلَت حُبي لها بعقد قِران وبعض الحُلي.

التزمتُ الصمت والجلوس وحيداً في غُرفتي، أفكر فيه كيف سيُعانُقها، كيف سيُقبلُها، أنا قبلتُها قبله، لا زلت احتفظُ بنكهتها، نكهة شِفاهِها احلى من ثمر التوت الاحمر في فصل الصيف، أتساءل، يا تُرى هل ستَسكُب شِفاهها لهُ العسل كما سَكبتهُ لي، أم انها ستكتفي بتقبيله؟

لم تأتِ .. انتظرتُها كثيراً، جلستُ أقامر الشعور بالوحدة حول مجيئها، خسرتُ رهاني وارتجيتُها، لعلها تأتي، كنتُ انتظرها في

الوقت الذي كانت تنتظرُ بهِ غيري، راقبتُ منزلها مراراً، اسرقُ اخبارها من جيرانها، من بعض معارِفها، أسأل بكل سذاجةً عنها، لعل ذلك الشاب يكون ردة فعل وتلاشت، لعله كان طيشاً ثم استدل طريق الادراك والعقل، لعلها خجلت من لحظات عناقنا الخَلاب، من لقاءاتنا التي كانت تُعَد في عمري أيام، هي الأيام وكُل ما دونها أضغاث أيام، انتظرتُها، ولم تأتِ، لأقول لها بأنني على اهب الاستعداد لأندم، لأقول لها بأنني لها، ولا شيء سواها بات يهُمني، انتظرتُها حتى وضع الكبرياء يدهُ على كتفي وطلب مني النهوض، لأعود ادراجي، لأبق وحيداً، لأتعلم درساً جيداً في هذه الحياة، لأتعلم بأن الحُب يتكلم بعد ان ينهي المُجتمع كلامه، الحُب اوهن من ان يتفوه بكلمة والقدر ينظرُ إليه بجِدةٍ وامتعاض، صرت من بعدها هزيل، مُتشائم، حقود، مُستَفز، بعدها كرهتُ كل ما حولي وكل من حولي، بقيتُ من بعدها في حياة واحدة، في تلك الحياة التي يتخللها ابي بكل مفاصلها، يُهيمنُ عليها منذُ ايقاظه لي عند صلاة الفجر الى تلك الموعظة لما بعد صلاة العِشاء.

ذات يوم، طلب مني ان القي خُطبة بدلاً عنه، تركتهُ يتكلم ولم اقاطعه، فكرتُ في عذراً اتهرب بهِ منه، طلب من خلال حديثهِ ومن خلال النص الذي كان قد اعدهُ لي جانباً وهو يتحدث عن مكانة المرأة في الإسلام وما يتوجب عليها من طاعة، طلب مني ان احث الناس على مُعارضة الموجة التي اثارتها (أناهيتا راتبزاد)[45] من خلال مقالةً افتتحت فيها جريدة (كابول تايمز) عددها في (28/أيار/1978) والتي أعلنت فيها: "أن الحقوق التي يجب أن تحصل عليها المرأة هي المساواة في التعليم والتوظيف وفي الخدمات الصحية وفي وقت حر لتنشئ جيلاً صحياً لبناء

[45] (أناهيتا راتبزاد/ 1930-2014) شغلت منصب سفير دولة أفغانستان لدى دولة (يوغوسلافيا) بحكم تقاسم المناصب بين الأحزاب الشيوعية وبحُكم علاقتها بـ(ببرك كارمل).

مستقبل البلد"[46] طلب ابي ان نضع حداً بما نملكهُ من فقه يدحض هذه الموجة والتي تُطالب بالمساواة بين المرأة والرجل في مجتعنا الأسلامي، طلب مني ان اضع حداً لهذه (المهزلة) التي كانت نواتُها تلك المقالة على حد تعبيره، كان جالساً امامي وبين يديه ورقةً كُتب فيها ما عليّ ان اقوله دون ان اناقشه، لم أقدم فروض الطاعة هذه المرة، لأنني تغيرت، تغيرتُ كثيراً عمّا قد رباني عليه، لم اعد اطيقه، تغيرت لدرجة انني لم اقدم لهُ الاعذار حين لا أود الذهاب الى القرية، لم احتج بالمرض او بأي وعكة صحية، تغيرتُ لدرجة انني قلتُ لهُ: "كلامك غير صحيح".

نظر لي نظرةً لم انساها، صرخ بوجهي بعد ان رمى تلك الورقة التي يحجب فيها تفكيري وتفكير من سينصتُ لي ...

قال: كيف تتجرأ على قول هذا؟

والغضب الذي أكنهُ له يمكنُني من ابرحهُ ضرباً ...

اجبتهُ: ابي، انصت لي ولو مرة، سأناقشك بما جاء في القرآن، انا لا ادعي ذلك جزافاً.

اجابني: أتريد مُناظرتي؟ ما الذي تفقههُ انت من القرآن لتتجرأ على مناظرتي؟

قلت: افقهُ الكثير.

بعد ان حاول النهوض، عاد الى الشكل الذي كان يجلس به ...

قال: وما حجتك عن عدم طاعة المرأة للرجل؟

قلت: أنا لا اقول بأنها لا يتوجب عليها طاعته، أنا اقول بأن لها الحق في المساواة مع الرجل.

نظر لي نظرة استصغارٍ وأحتقار ...

[46] David B. Edwards: Before Taliban: genealogies of the Afghan jihad.

استدركت على الفور قائلاً: يقول الله في القرآن:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[47] يُشير هُنا الرب الى خلقهِ بشطرين مُتساويين دون أن يفضل احدهما على الاخر إلا (بالتقوى) التي اشار إليها بأشارتهِ (للأكرم)، هُنا نجد المُفاضلة، ونجد المُساواة في الآية:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا}[48] يُريد الله العمل من المؤمن والمؤمنة على حدٍ سواء، وعدم عصيانه وعصيان رسوله وإلا سيكونوا في ضلال، لو افترضنا صحة حثّنا للنساء على اتباع رجالهن اتباع الاعمى، فأين الامتحان الذي وضعهم الرب فيه؟ ألم يطلبُ الرب منهن العمل وفق قناعةً حتى يُحاسبوا على ما عملوا؟

قال بنبرة غضب: أنت تُفسر الآيات وفق ما تشاء، لمَ لم ترجع الى تفسير السلف الصالح لهاتين الآيتين التي تستند إليهما؟ أتريد ان اقول لك ما جاء بتفسيرهما وكيف يجب العمل بهما بحسب فقهنا؟ لعلك لم يتسنى لك الاطلاع عليها لأنك لم تحصل على شهادة جامعية تخولك الجلوس امامي بهذا الشكل والتحدث معي.

اجبته: رجعت الى السلف، وجدت حديثاً ينصُ على أن: "لِلنِّسَاءِ عَشْرُ عَوْرَاتٍ فَإِذَا تَزَوَّجَتْ سَتَرَ الزَّوْجُ عَوْرَةً فَإِذَا مَاتَتْ سَتَرَ الْقَبْرُ تِسْعَ عَوْرَاتٍ"[49] ووجدتُهم يقولون بأن النبي قال: "إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي الدَّارِ وَالْمَرْأَةِ وَالْفَرَسِ"[50] ووجدت (ابي هريرة) يروي بأنهُ سمِع النبي وهو يقول: "يَقْطَعُ الصَّلاَةَ الْمَرْأَةُ

---

[47] القرآن/ سورة الحجرات/13

[48] القرآن/ سورة الأحزاب/36

[49] انظر: كتاب (تذكرة الموضوعات) للفتني/كتاب العلم/ باب الموت/1782

[50] انظر: صحيح البخاري/ رقم الحديث5094 – وانظر ايضاً: صحيح مسلم/ رقم الحديث 2252

وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ"[51] وجدت في (سنن ابي داود) ما روي عن (عمر بن الخطاب) عن النبي بأنهُ قال: "لا يسأل الرجل فيما ضرب امرأته"[52] وجدتُ ما اوصى بهِ السلف نقلاً عن النبي: "علّقوا السوط حتى يراه أهل البيت فإنه أدب لهم"[53] هكذا وجدتُ السلف ينظرُ الى المرأة، لم اجد عنده ما يشير لمساواتها مع الرجل، وجدتُ ما يشير الى مساواتها مع الدواب، وتذكر يا ابي بأنك أنت من منعني من الذهاب الى الجامعة، كنتُ على وشك ان اجتاز المرحلة الاخيرة.

قال غاضباً: أكمل حجتك عن المساواة.

قلت: المساواة واضحة، على المرأة ان تُمتَحن كما نُمتحن نحن، عليها ان تقرأ وأن تبحث لتستدل عن الطريق الصحيح، عليها البقاء على دينها ومذهبها ونهجها لما بعد الزواج لا أن تتبع زوجها بالمذهب والفِكر لمجرد انهُ وليها، ثم ما معنى الولاية؟ ومن هم الاولياء؟ الاولياء بحسب ما جاء بمعاجم اللغة العربية هم: (كل مَن وَلِيَ أمرًا أو قام به) والآية تنص على: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[54] ألا ترى بأن هذه الآية تنصُ صراحة على ولاية بعضهم على بعض؟ ألم تتساءل يوماً لما لا نرضى بأن تكون لامرأة ولاية علينا؟ ألم ينص القرآن على ذلك؟ ألا ترى ان الرب يطلب من كلاهما القيام بالعبادات من صلاةٍ وزكاةٍ واطاعة بصيغة امرٍ لكلاهُما؟ تنص الآية:{وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ

---

[51] انظر: صحيح مسلم/ رقم الحديث 511

[52] انظر: كتاب (سنن أبي داود)/ الكتاب الحادي عشر/ النكاح/2142

[53] انظر: كتاب (المعجم الكبير) للطبراني/ الجزء التاسع/ الصفحة 152- وانظر ايضاً: كتاب (السلسلة الصحيحة) للألباني/ الجزء الثالث/ الصفحة 431

[54] القرآن/ سورة التوبة/71

الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}[55] وايضاً: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[56] وايضاً: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}[57] لمَ لم يشير القرآن الى الرجال فقط؟ وهم بدورهم يُعلمون نسائهم ويجبرونهن على القيام بالعبادات بتفاصيلها وبحسب ما نَسنُ في فقهنا، نُحاسبهن ونقيم عليهن الحدود والتعازير؟ أين الخلل، في فهم النَص ام في تطبيقه؟

قال وعيناه تعتليها نظراتُ الانبهار: يُطبقُ النص كما يُفهَم، ليس هناك فجوةً بين الفهم والتطبيق.

قلت: كلا يا ابي هناك فرق، فأنا الان افهم النص ولكن لا و لن اتمكن من تطبيقه.

قال: بغض النظر عن كونك مُتأكد من أنك على صوابٍ أم لا، اجبني، لمَ لا تتمكن من تطبيقه.

قلت: لأنني ابنك.

ظل مصدوماً ولم يُتفوه بشيء، استمر بالنظر لي فقط، بعدها بقليل ...

قال: أعدتني الى الوراء، الى اكثر من (20) سنة، جعلتني ارى ما كُنتُ اخشاه طيلة هذه السنوات، انهض، سنُكمل حديثُنا في وقتٍ لاحق.

لم اخف منهُ مُطلقاً، لم أعد اهتم ان كان غاضباً مني ام لا، تغير الامر، نهض وأنا انظر لهُ نظرات القوة، لم اخف منه، تجرأتُ على قول ما اريد، لم اكترث ايضاً لما سيحدث، كنت في

---

[55] القرآن/ سورة النساء/ 124

[56] القرآن/ سورة النحل/ 97

[57] القرآن/ سورة آل عمران/ 195

السابق ارتبك من ملامح وجهه وليس من الحديث معه فحسب، الامر اختلف، وكأنني احملهُ وزر هجر (مريم)، فلو كُنا من عامة الناس ولنا مهنة غير مهنة التجارة في الدين لكُنا اليوم مقبولين بين كل الفئات التي نعيشها معها ولسنا مُنغلقين على من نتشابه معهم بالذقن والمظهر، يكون الامر نسبي حين تستمر بالخوف من شيء، الوجل منه في بادئ الامر قد يكون وهماً خاطئ، اي شيء تخافهُ عليك ان تواجهه، أنا لم اكن كذلك فحسب، أنا لم اواجه الخوف في حياتي، انا تربيتُ ونشاتُ عليه، الأمر نسبي، حين تُريد السير على رصيف الشارع بشكلٍ مُتوازن فأنك ستتمكن من ذلك ولمسافة طويلة، الرصيفُ لا يرتفع عن الشارع سوى بعض السنتمترات، ولكن لو جربت السير في ممرٍ بنفس شكل هذا الرصيف يفصل بين جبلين فأنك لن تتمكن من النظر تحتك وليس من السير عليه، هذا إن تخيلت الموقف ولم يرتجف قلبك، الامر صعب بما نراه، الامر نسبي وليس مُطلق، هذا الارتفاع الشاهق وضعهُ ابي بحكم قسوته، بحكم سوطه وتلك العصا التي كان يضربنا بها، وضع هذا الارتفاع الشاهق لي ليزرع بداخلي كل هذا الخوف، لم يكن الذنب ذنبي، ولكن الخروج منه كان يجب ان يكون بأرادتي، لا اريد ان اعيش لما تبقى لي من عمر بهذه الحياة، اريد ان اتخلص من هذا الخوف الذي يحيط بي كأشيائي، سأسير الى ان اتخلص من هذا الجحيم، سأسير وأنا أُفكر بالسبب الذي يفرقُ بيني وبين اتباع ابي من الآلاف من عامة الناس، ابي زرع بي الخوف بحكم تربيته لي ونشأتي تحت وصاياته، هؤلاء الالاف لما تخاف من ابي؟

يُقاطعني قريني قائلاً: غالباً هم مروا بنفس الظروف التي مررت أنت بها ، لا تلمهم، فحين يمرض احدهم فأنهُ يذهب الى الطبيب ليكتب لهُ العلاج وينصحهُ بما يتوجب عليه ليتناولهُ من طعام، لن يُخالفهُ الرأي لأنهُ ليس بطبيب، وحين يحتاج مُهندساً لبناء دار فأنهُ سيلتزم بأستشارتهِ ولن يبني داراً بغير الأسس التي

قال عنها المهندس، الامر كذلك بالنسبة للدين، مَن تُشير إليهم ولِدوا من ابوين بسيطيَن، يبحثوا عن رجال الدين كلما طرأ سؤال على اذهانهم او حين يرومون للقيام بالعبادات التي فُرضت عليهم، كيف لهم ان يُناقشوا رجل الدين بتخصصه وبهالة القداسة التي تحيط حول هذا التخصص؟

اجبته: نعم بالفعل، لأن دين المسلمين دين شخوص، (الشخوص) فيه هم محور الدين، ويدور حول هذا المحور تفاصيل العبادات والمعاملات، أي كيفما يكون هؤلاء الشخوص تكون العبادات والمُعاملات، وبذلك وصل إلينا الإسلام مُتعدداً، وسيبقى مُتعدداً، وسيصل الى من سيجيء بعدنا مُتعدد، لأن ديننا دين شخوص.

قد ندحض هذه الفكرة للوهلة الأولى بالنسبة للعبادات بسبب النُصَ عليها في القرآن خلافاً للمعاملات ولكن نؤمن بوجودها مُجرد أننا نرى ان أصابع أيدينا غير كافية لأن تُحصي اشكال الصلاة والصيام والزكاة او (الخُمس) والحج بين طوائف المسلمين، الاشكال المُتعددة هذه، هي الدليل على ان دين المسلمين دين شخوص، وألا كيف تمكن هؤلاء الشخوص من تغيير ماهية طقوس العبادات، فضلاً عن طقوس المعاملات.

يؤمن المُسلم بحركة ملامح وجه رجل الدين وهو يتكلم قبل كلامه، يبحث عن التقوى في وجهه قبل تصديقه، هذا إن لم يجد صور احدهم في منزله مُبجلةً من قبل ابويه ليورث هذا التبجيل لأولادهِ من بعده، الدين الإسلامي قائماً بحد ذاته على هيئة الحاكم في كل زمان ومكان، على مدى التاريخ الذي مر به المسلمين كان دينهم كيفما كان الحاكم، تكونت المذاهب الخمس لاختلاف الحُكام، ظهرت طوائف عديدة مُشتقة عن الإسلام تارةً، وتارةً أخرى ادعت بأنها تمثل جوهر الإسلام وهي فقط من بين البقية على الصواب وهي (الفرقة الناجية).

في حقيقة الامر، وفي حقيقة التاريخ، وفي حقيقة الوقائع التي مرت في نشأة أي طائفة من هذه الطوائف، وفي حقيقة الواقع السياسي الذي طرأ على نشأة هذه الطائفة، وفي حقيقة الظروف التي أحاطت بهذه الطائفة ودفعتها لأن تتكون، وفي حقيقة كل ما حولها من ممالك ودولٍ وحُكام، وفي حقيقة الواقع الاقتصادي المُصاحب لنشأتها من خلال الإطلاع على واقعها او واقع تجارتها ونسبة ونوعية وماهية المُنتمين إليها، في حقيقة دخّلها قبل نشأتها وبعد نشأتها، في حقيقة كل ما ذلك، نشأت هذه الطوائف.

يسألُني قريني: كيف؟

أجبته: انظر الى المُعتزلة[58] تلك الطائفة التي ما يُثير اعجابي شيءً بقدر اعجابي بنشأتها وعُزلتها عما حولها من بقية المسلمين، كان اصل نشأتها هو رفضها لكل الاحاديث النبوية التي جاءت مُنافيةً للعقل[59] رفضت (المُعتزلة) العمل وفق اي حديثٍ ورد في الفقه الاسلامي لا يتقبله منطق العقل، نشأتهم تُشير صراحةً الى ان بعد (100) عام فقط من ظهور الإسلام اشتكى المُفكرون والباحثون من وجود احاديثاً نبويةً مُنافيةً للعقل والمنطق، يصعب تصديقها قبل العمل بها، او كان اثر العمل بها في ذلك الزمان له اثرهُ السلبي، الأمر الذي دعا البعض منهم الى ترك العمل به ذريعة عدم امكانية القبول بها ورفض العقل لها وهذا ان دل على شيء فأنما يدل على أن سبب انشقاقهم كان ذريعة تُثير انتباه عامة الناس وتُنبههُم لوجود احاديثاً بشريةً اصطبغت بصبغة القُدسية والتي وبلا شك تسببت في سطوع

[58] نشأت هذه الطائفة في بداية القرن الثاني الهجري (80 هـ - 131 هـ) في مدينة (البصرة) في (العراق) في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي.

[59] انظر: كتاب (في الفلسفة الإسلامية) للدكتور ابراهيم مدكور/ الجزء الثاني/ الصفحة 37

نجم هذه الطائفة في تلك الآونة الإضافةً الى رفضهم لفكرة رؤية (الله) في الاخرة.[60]

قال المؤرخون ان لنشأة (المُعتزلة) سببان، سبب ديني وسبب سياسي، وثّق التاريخ السبب الديني بحادثة اختلاف للرأي حصلت ذا يومٍ بين مؤسس هذه الطائفة (واصل بن عطاء) وبين مُعلمه (الحسن البصري) فقرر بعدها الاعتزال عن حلقات تدريس شيخهُ (حسن البصري) بحلقات منفصلة عمّا يدرسهُ، ضربوا لنا من خلالها اروع الصور لحُرية الفِكر وأحترام اختلاف الرأي، ولنرى ايضاً اعلى درجة من درجات البراغماتية، حين ينفصل تلميذاً عن شيخه ليأخذ معهُ فرقة من التلاميذ ليدرسهم بدل شيخه وبالقرب منه في آن واحد، وليحتفظ كلٌ منها برأيه وتلاميذه، اما السبب السياسي، فقد اعزى المؤرخون الى ان بداية القرن الثاني لظهور الإسلام شهد دخول العديد من القبائل الى الاسلام والذي ادى بدوره الى انعكاس ثقافاتهم على ثقافة المسلمين الذين سبقوهم، لتكثر بالتالي الأفكار وتتعدد الاراء في الاحكام الفقهية لتنتج بالتالي طائفة تنعزل برأيها كطائفة (المُعتزلة).

يسألني قريني: هل تظن ان (المُعتزلة) هم الفرقة الناجية؟

اجبته: ناجية!! ناجية من ماذا؟

قال: أليس هنالك حديث يقول بأن المسلمين سيتفرقون الى (73) ومنهم واحدة ناجية فقط[61]؟

قلت: نعم.

قال: ومن هي إذاً الفرقة الناجية؟

---

[60] انظر: كتاب (المغني) للقاضي عبد الجبار المُعتزلي/ الجزء الرابع/ الصفحة 195

[61] نص الحديث على: "وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا:وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصحَابِي" انظر: سُنن الترمذي/كتاب الإيمان/ مبحث: ما جاء في افتراق هذه الأمة/ رقم الحديث 2641

اجبته: سؤالك استدرجك لأن استنتج منك شيء، إن كنت من اهل السماء ولستَ ببشر فما كُنت لتسأل هكذا السؤال! أنت من اهل الارض، انت بشر خُلقِت مثلي، انت حائراً مثلي.

قال بصوتٍ مُستاء: هذا ليس من شأنك، انت هنا لتتذكر.

قلت: سألتكُ مراراً، لما أتذكر؟ ولما انت تُقيدني بهذه السلاسل؟

قال: اخبرتُك بأنني لستُ مالك اغلالك، تذكر، انت من وضعتها حول يديك.

صرختُ بصوتٍ عال: متى سأعرف، أنا سأُجن، كيف مُت؟ لا اتذكر، هل أنا مُت وبيدي هذه السلاسل اللعينة وبُعثتُ معها؟ اجبني.

تركني اصرخُ ولم يُجيبني، احاول التقرب منهُ فأصطدم بحاجزٍ هُلامي، لا يُمكنني التقرب منه، حاولتُ البكاء ولم اتمكن، الموقف صعب جداً، البُكاء اخر مراحل الوجع عند الرجل، لا يستسلم للبكاء إلا بعد اقرارهُ بأنهُ اضعف مما يواجه امامه، البكُاء ملجأهُ الأخير، لما بعد الشعور بألم الموت، هذا الوجع يعرفهُ كل الرجال ولا يعرفهُ كل الذكور، فليس كل الذكور رجال.

تعبتُ من المجهول، كل ما حولي صامت، كل ما حولي جماد باهت اللون، الارض ليست كالأرض، العشب ليس كالعشب، كل شيء هُنا لا يُمكنني لمسه، جسدي ليس بوزنه، شكلي ليس هو، عمري ليس هو، السماء ليست كما السماء، لا زالت السحب تُثير الخوف في داخلي، وقريني اكثرهم غموضاً، الى متى سأبقى اسير بهذه السلاسل؟ متى سأعرف الإجابة؟ متى سأعرف سبب موتي، لمَ انا هُنا؟

توقفتُ عن السير ذهاياً وايابأً من خلف (قريني)، لم يتكلم معي، ظل صامتاً، التزمتُ معهُ الصمت انا ايضاً، الغريب انني لم اعد اتذكر شيئاً.

قال قريني: أرأيت؟ حين اغضبُ كيف تكون الامور؟ ها أنت لا تتذكر شيئاً، احذرك، إن كررت نوبة غضبك هذه، فسُأبقيكَ حائراً الى الابد، لن ادعك تعرف نهايتك التي تتوق لمعرفتها.

اعادني تهديدهُ على الفور الى تلك الغُرفة التي حبسني فيها ابي، حبسني لعدة أيام الى ان انهى ما حُكِم عليّ بهِ من جلدات، بعد ان تعرضتُ لشرف المُحصنات على حد تعبيره ومُسمى عقوبته التي فرضها عليّ وفق احكام الحدود التي نص عليها فقه دينه، كنتُ اتناول وجبة طعام واحدة في اليوم و يتناول ابي كل ما يشتهي، انام على الارض وينام هو على سرائرٍ لها اغطيةٌ حريرية، حدّث كل من اعرفهم بأمري، علموا بمعصيتي وكفري بحسب قوله، اضحيتُ كيهودي يسكُن بين المسلمين بعد فتح مكة.

تؤلُمني ذكرى تلك الايام، أجلسُ القُرفصاء لأنظر الى شكل (قريني) وهو يقف، وقف قليلاً ثم عاد ليجلس على ذلك المنحدر الذي لا اعلم ما يضمُر خلفه، انتبهت لأكتافه، من غير المعقول ان يكون رجل، حجم جسده لا يوحي بذلك، اظنهُ امرأة، او بهيئة امرأة، او انهُ ملاك بجسد امرأة، استبعدتُ فكرة ان يكون ملاك، فليس هنالك ملاك يكترث لمن تكون (الفرقة الناجية)، لم ترد فكرة (الفرقة الناجية) في اكثر الصحيحين إتباعاً (بخاري) و(مسلم)، كما لم ترد في القرآن، لم ترد بدليل قاطع، فكرةً وكأنها مُسابقةً لحل لغُز فكري، يتسابق المؤمنون فيها على إيجاد حلٍ وفق مُعطياتٍ غامضة، ألم يسأل نفسه من أورد هذا الحديث كيف ومتى وما هي أسس هذه الفرقة؟ ألم يسأل نفسهُ كيف سيُفكر من سيقرأ نص هذا الحديث؟ ألم يتصور حجم اليأس الذي سينتابُنا بعد قراءته؟ فرصةً من بين ثلاث وسبعون فرصة للنجاة فكرةً تستحقُ الازدراء.

يقول قريبي: تلوم من أورد الحديث؟! تتحدث وكأنك تتهمهم بأنهم هم من كتبوا الاحاديث، عجيبٌ امرك، هم اوردوها كما تواردها من قبلهم وصولاً الى النبي، ما شأنهم وشأن النص الذي يحتويه؟ أم انك تريد اتهام النبي؟ وتستغل صحابته للنيل منه لأنك لا تتجرأ، أو انك منافق ظاهرك مُضاداً لباطنك؟

قلت: مُخطئٌ انت لو سَلمتَ لفكرة أن كُل الاحاديث صحيحة، دين الإسلام دين شخوص، اخبرتك كيف ينفُر بعضها منطق العقل، ظهور (المُعتزلة) في القرن الثاني للهجرة خير دليلاً على ذلك، لم يمضِ إلا قرناً واحداً على الإسلام وقيل بأن هنالك احاديثاً منافية للعقل، كيف لنا ان نُصدق كل هذه الاحاديث بعد كل هذه القرون، كيف نُصدق وسلسلة الناقلين قد زاد طولها، باتت لكل فرقة من فرق الإسلام نبيها الخاص بحسب فقهها، لها تفاسيرها لآيات القرآن وقصصها الخاصة لوضع سبب نزول كل آية، كل فرقة لها بعضاً من صحابة النبي ظلوا صالحين بنظرها وبحسب ما تواتر في فقهها، وبعضهم الاخر لم يبق صالح، حالت روايات معارك المُسلمين بعد وفاة النبي بينهم وبين ان يُقال عنهم بأنهم صالحين، املك دليلاً من آيات القرآن يثبتُ بأن الله خلقنا لأمتحانٍ صعب، الكل يُمتَحن بحسب زمانه ومكانه، الأرض لم تخلو من الفِتنة في أي زمانٍ مضى، ابحث في تاريخ كل الاقوام والاجيال، أبحث في كل الأديان، ستجد الفتنة، ستجد ان ليس هنالك طريقاً واحداً في الدُنيا حالما فتحتُ عينيك فيها، حيثية ولادتك فيها هو جُل الامتحان، ولدت لتكون الشخص الإضافي لمذهبك ودينك وقوميتك وعرقك، ليخبرك ذويك وأنت في عمر الصِبا بأن هنالك مؤامرات تُحاك من حولك منذُ زمن وان عليك الصمود والحفاظ على دينك ومذهبك من أي اعتداء، يُجهزك كل من حولك بما يؤيد صحة دينك ومذهبك وعقيدتك لتُحارب بها كل من يحاول المساس بتلك الأكاذيب التي جهزوك بها، تكُّن الحقد لكل من يقول لك بأنها أكاذيب، وحين ينفجرُ

حقدك، يعطيك رجل الدين الذي تتبعه اتم الشرعية لقتال من حاربك، ويَعدك بالجنة، وقفتُ كثيراً عند الآية: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}[62] وتحديداً سؤال الرب (أولم تؤمن؟) يخبرنا بأنهُ يُريد منا التشكيك والبحث في كل شيء، ذلك الايمان المُكتسب بعد البحث والشك خير من ذلك الايمان الذي اُكتُسَبَ من منابر يوم الجمعة، وقفتُ كثيراً وبحثتُ اكثر في تفاسير الواردة في هذه الآية، سمعت الكثير من القصص التي تصف لقاء النبي (إبراهيم) بالرب، فسر بعضهم هذا اللقاء وكأنهُ رأى هذا اللقاء عن قرب، وأن سألتهُ كيف عَلِم ذلك وهو لم يكُن موجود في تلك الحقبة الزمنية، هو لم يكن موجود حتى في الزمن الذي رويت فيه هذه القصة عن النبي يأتيك بتفسير يبعدك كل البعد عن آلية التشكيك والبحث التي يُريدها الرب منا، قيافتهُ الدينية وذقنهُ الطويل اجبر الكثيرين على التصديقه، أنا لم اصدقه، أنا استنتجتُ ان الله يريد العبد المؤمن بعد الشك، استنتجتُ ذلك من اختيار الله لنبيهِ (إبراهيم) بعد ان قال (ليطمئن قلبي) ليقول له:{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلناسِ إِمَامًا}[63] تأملتُ (أبتلى)، ثُمَ تأملتُ (فأتمهن)، ثم ايقنتُ لما جعلهُ (إماماً).

في دين المُسلمين هُنالك نبيان وليس نبيٌ واحد، نبي القرآن ونبي الفقه، شتّانٌ ما بينهما، نبي القرآن قدمهُ القرآن لأتباعه قائلاً: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[64] ونبي الفقه قدمهُ الفقه لأتباعه قائلاً: "بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بالسَّيْفِ، حتى يُعبدَ اللهُ

[62] القرآن/ سورة البقرة/260

[63] القرآن/ سورة البقرة/ 124

[64] القرآن/ سورة الأنبياء/ 107

وحدَه لا شريك له، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ"[65]

بدأ الامتحان بوفاة النبي، لمَ لم يوصي بخليفةٍ من بعده؟ سؤالاً لا نجد لهُ إجابة في تاريخنا الذي لا يملك أي مصدر لأكثر من قرنٍ ونصف من بعد وفاة النبي، منذُ مقتل (عثمان بن عفان) لم ينم الاسلام ليلهُ هادئاً، لمعارك (صفين) و(الجمل) و(النهروان) الاثر الكبير في تاريخنا والذي تسبب بدوره الى ظهور هذه العقائد، العقائد المُختلفة كانت مع اختلاف الحاكم، ولأن دين المُسلمين دين شخوص كان أ ....

يقاطعني قريني: لمَ تقول دين المُسلمين؟ دين المُسلمين هو الاسلام.

اجبته: اقول (دين المسلمين) لأفرقهُ عن الاسلام، اريد الاشارة الى الدين الذي ارادوه كيفما شاءوا، اما الاسلام فلا مشيئة فيه، هنالك قُرآن نلتجئ اليه كلما اختلفنا في تفسيره، او كلما اردنا التعرف عليه.

قال لي بصوتٍ مُستاء: اكمل، لمَ توقفت؟

سألتهُ: هل يمكنني ان اسألك سؤال وتجيبني عليه؟

قال: ما هو؟

قلت: هل أنا مُت وأنا مُسلم؟

ضحك بصوتٍ عال، كرر ضحكتهُ عدد مرات وأنا ازداد غضباً ...

قال: اكمل حديثك، ستتذكر كُل شيء.

---

[65] انظر: مسند احمد أبن حنبل/ جامع السنة وشروحها/ مسند عبد الله بن عمر/ الاحاديث (5114) (5115) - أنظر أيضاً: كتاب (الخطيب في الفقية والمتفقه) للخطيب البغدادي/ الجزء الثاني/ الصفحة 73

ارتعدتُ خوفاً من استهزاءِهِ، خائفٌ أنا من هذه الاغلال التي على يدي، استذكر كل ما اتمكن استذكاره لأعرف كيف كانت نهايتي، كيف مُت، هذه الاغلال توحي لي بأنني مُت كافر.

يسألني قريني: لمَ جَلدك (حميد الله)؟

قلت: سَخط عليّ، لم يجلدني فحسب، كانت لعنة مشؤومة، لعنة طالت لسنوات، كانت كلعنة ملكٍ فرعوني فُتِحَ قبره، كيف نطلب منه ان يُسامحنا وهو مُحنط.

سألني ابي عما اذا كنت انوي الذهاب الى القرية يوم الجمعة، كان يفصلنا عنها يوم واحد، كان يختبرني، يمنحني اخر فرصة لأنال رضاه، ولكنني ضيعتها، في الحقيقة، أن في ذلك اليوم لم يعد يهمُني رضاهُ، بعد فراق (مريم) بات الامر سيّان.

خرجتُ من (كابل) وأنا مستلقي على وجهي في سيارةٍ مُخصصة للحِمل، كنت لا اقوى على النهوض والسير وظهري مُدمى، تلقيتُ جلدات من ابي منعتني من السير والنوم لأيام، تكالب عليّ ألمها وألم التفكير (بمريم)، تساوى ألم الجلدة الواحدة منهن ألم التفكير في يد ذلك الشاب وهي تنزع الثوب من اكتافها.

مُستلقي على وجهي في تلك السيارة التي نقلتني دون ارادتي من (كابل) الى (بيشاور)، اتوسط اشياءٍ لا اعرفها، كنتُ بالكاد استطيع رفع رأسي لأرى من خلف السيارة وأنا نائمٌ بعكس اتجاه سيرها، أرى نفسي ابتعد، ابتعد عن كل ما كنتُ احب واكره، أتذكر جيداً كل ما حدث، وأنا انظر من خلف السيارة، كانت مدينتي تبتعد، تبتعد وتصغر، كنتُ أنا من يبتعد، لا حول لي في هذا الفراق، كنتُ أتمنى رؤيتها بالثوب الأبيض، اقف على رُكام كلامي السائغ، أحاول قطف ثمار مطامحي ولا اظفر بخطى سديدة، اتوسد خيبة ماضي لا يقبل التصحيح وأنا اتذكر الحديث الذي دار بيني وبين ابي، وقتُها ولأول مرة حدثني عن

عمي، كانت الأشياء في ذلك القبو عائدة له، الأخ الوحيد لأبي، أسمه (خليل)، كان على شِجارٍ دائم مع جدي ومع ابي، كان مُخالفاً لعقيدتهما، رافضاً لأن يكون على شاكلتهُما، يغضبهُما على الدوام بتلك الكتب الناقدة للأديان، كان يجنيها ليضعها في البيت امام انظارهما الى ان تورط بالإنتماء لجهةٍ سياسيةٍ مُعارضةٍ كانت تُمَول من معسكر حلف (وارسو) حتى قُتِل في احداث (30/حزيران/1970).

هذه كانت القصة، سألته لمَ لم نسمع عنهُ؟ وإن توفي في هذا التاريخ، فلما لا نتذكر جنازته وقبره؟ أجابني بأن عمي ترك العيش مع جدي وابي قبل سنواتٍ من وفاته، ولم يعلموا بوفاته في تلك الاحداث إلا بعد مرور فترة طويلة، سألتهُ لمَ بقيت اغراضه وكتبه وأوراقه المكتوبة بخط يدهِ على وضعها في القبو؟ اجابني بأنها كانت وصية جدي، أوصى الجميع بأن تبقى اغراضه وأشياءه في البيت وألا تُتلف، فقام ابي بوضعها في القبو وتركها وشأنها الذي كان لا يعني احداً غيري، شعرتُ في نهاية كلامهُ بأن جدي كان يأمل عودته، لاسيما وانهُ ترك العيش معه بعد كثرة المُشاجرات، لعلهُ تألم على فُراقه وهجرهُ فظل على امل ان يعود، حدثني عن القبو دون ان يسألني أي سؤال، دون أي يُلمحُ لي بأنني كنتُ ادخله، قال لي بأن قراءة كل شيء امراً مهم وتصديق كُل شيء امراً خاطئ، سَردَ لي مَثل يابابي قديم يقول: "إن كنت تصدق كل ما تقرأ فتوقف عن القراءة فوراً" سرد لي بعدها العديد من الآيات والأحاديث النبوية وبعض المواقف التي مرت به خلال مناظراتهُ الدينية، ثُم وبكل هدوء، وجهِ لي سؤال ...

قال: لمَ تَفصل بين الفقه والقرآن؟

اجبته: لأن القرآن صنيعة الخالق، والفقه تسع اعشاره من صنع البشر.

قال: افهم من كلامك انك لا تثق في الاحاديث الضعيفة وغير المتواترة، جيد، بإمكانك البحث وجمع محصلة من الاحاديث المُتواترة واعتمادها في خطبك وندواتك وحلقات نقاشك في المسجد، بإمكانك ترك الاحاديث الضعيفة وعدم اعتمادها، لمَ تأخذ الحديث الضعيف بجريرة القوي المُتواتر؟

لم اجيبهُ، بقيتُ انظر له بإستياء ...

قال: لمَ لا تُجيب؟

قلت: وماذا افعل ان كان الحديث صحيحاً متواتراً عن السلف الصالح ولكني مُعارضاً له؟

قال: مُعترضٌ على نقلهُ إلينا كحديث؟

قلتُ: كلا، على الأخذ به.

بعد نظرات استغراب، قال: أتذكر حين قُلت لك بأن كلامك يُعيدني الى سنين مضى عليها الكثير؟ كان حديث عمك يُشابهُ حديثك، قرأت انت كتاباته وصرت مثله، يا بُني لا تُصدق كل ما تقرأ، فهنالك الكثير من التدليس في كُتب الدين، ديُننا يبغضهُ الكثيرون، ولهُ أعداء من كُتّاب ومُفكرين كتبوا الكثير ضده، ليشوهوا صورته وليقل عدد المؤمنين به.

قلت: لمَ لا نأخذ مثالاً على ما نقول لنتوصل الى فكرةٍ نتفق عليها، او يتفهم احدنا الاخر، او بالأحرى لأن تفهم ما اروم له فقط، لأنني افهمك، افهمك جيد جداً.

بعد ان كان جالساً خلف مكتبهُ في غرفة المكتبة، نهض وبدأ يبحث في كُتب المكتبة الكبيرة وينصتُ لي ...

قلت: ما أسباب قتل (خالد ابن الوليد) (لمالك بن نويرة)؟

اغلق الكتاب الذي بين يديه ثُم نظر لي بغضب ...

قال: وما اعتراضك حول تلك الحادثة؟

قلت: اعترض على ما قام بهِ (خالد ابن الوليد).

تصفح الكتاب مجدداً ثُم قال: ما روي عنهُ كان ضعيفاً، أثبتت الروايات بأنهُ لم يطبخ رأس (مالك بن نويرة) بعد قطعه.

قلت: أنا مُعترض حول قطع رأسهُ من الأصل.

قال: امتنع عن دفع الزكاة ولم يؤديها.[66]

قلت: وهل حد التقاعس عن دفع الزكاة هو (قطع الرأس)؟

ابعد يديه عن صفحات الكتاب الذي امامه وبقي ينظر لي نظرات تستعر غضباً ...

قلت: لمَ قتله؟ لما اعتدى على زوجته؟ لمَ غضب عليه (عمر ابن الخطاب)[67] ورضي عنه (ابي بكر الصديق) لمجرد إعتذاره؟ لمَ غفر ذنبه ومنع (عمر ابن الخطاب) من رجمهِ[68] أين العدالة التي ارادها الله ورسوله؟ اين ألتزامهم بالآية: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}[69] أتريد ان اكون مثلك؟ اصدق واسلم التسليم الكامل لما ورد في كتب الفقه؟ نعم، سأكون، ولكني سأُسلم لما فيه بكِلا الوجهين، من دمٍ ورحمة، من ظُلمٍ ونصرة للمظلومين، بما فيه من حِكمٍ وأمثال وقِصصٍ خيالية.

ضرب ابي بكلتا يديه على مكتبه حتى كاد يتهشم ...

---

[66] انظر: كتاب (تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء إسماعيل بن علي بن أيوب/ الجزء الأول/ الصفحة 158

[67] قال عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد :"أرياء قتلت أمرا مسلما، ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بالجنادل" انظر: كتاب (البداية والنهاية) لأبن كُثير/ سنة إحدى عشرة من الهجرة/ الحوادث الواقعة في الزمان ووفيات المشاهير والأعيان سنة إحدى عشرة من الهجرة/ خبر مالك بن نويرة اليربوعي التميمي.

[68] كان قول ابي بكر الصديق عن ما ارتكبهُ خالد بن الوليد: "تأول فأخطأ" أنظر: كتاب (حياة الصحابة) لمحمد يوسف الكاندهلوي/ الجزء الثاني/ الصفحة467- وانظر ايضاً: كتاب (تاريخ الطبرى)/ الجزء الثاني/ الصفحة274

[69] القرآن/ سورة المائدة/ 32

صرخ بوجهي قائلاً: تجاوزت كثيراً، ما قلتهُ الان يُخولني بأن اتهمك بالكفر وان اقيم عليك الحد، لعنة الله على تلك الرؤى التي منعتني من حرق القبو.

لم افهم ما كان قصدهُ عن تلك الاحلام، ولكنني بقيتُ مُصراً على اشمئزازي منه ومن عقيدته، واصلت كلامي لأغيظه، بعدها، ندمتُ كثيراً لأنني جادلته، دفعتُ الثمن غالياً، كان من المفروض ان اتركهُ وشأنه، كان من المفروض ان أتذكر ما اسمعهُ منه على الدوام، ان اضع الاعتبارات لإصراره على مصدر رزقه، إلا أُحاربه بالأسباب التي جعلتهُ يجني هذه الثروة العملاقة من المال والجاه، هنالك أناس على وشك ان يعبدوه من حُبهم له، هناك من هم على اهب الاستعداد للتضحية بأنفسهم وبما يملكون اذا طلب منهم فقط.

كُنت أروم لأن يصحى المُجتمع من غفوتهِ الفكرية، ان أُزيل ذلك الورم الخبيث الذي يُسمى (الفقه) من المجتمع يعيش رهن إشارة ابي وأمثاله، لكنني أوهن من ذلك بكثير، آتي اليوم لأحارب ابي به!! يُفترض ان أتذكر على الأقل حديثه عن (الشيوعية)، كم كان كلامه منطقياً وعلمياً، من يتكلم بكلامهِ من غير المعقول أن يكون جاهلاً بما قلتهُ له، هو متغاضي فحسب، مُتغاضي لغاية لم ادركها، ولم أتمكن من ادراكها بعد ان ضربني على رأسي وأغميّ عليّ.

انتهى جدالُنا بعد ان صرخ بوجهي مُهدداً إياي بأنهُ سينزلُ بي أقصى العقوبات حتى اعود الى رشدي، أي رُشدٍ يقصد، وأنا اضحيتُ ادخنة مُتلاشية لنار احتراق قصائدٍ عاشق مُسن.

مُستلقي على وجهي، أتذكر تارة، وافكر تارة أخرى، ماذا حلّ بي وماذا سيحُل؟ ما المجهول المُنتظر؟ الى أين أنا ذاهب، لم اكن اعلم.

تنتابني اوجاع الجَلد بين دقيقة وأخرى، اشعر الان وكأن ذلك البدين يجلدني من جديد، لم أر وجهه، لم اتعرف عليه، بكل تأكيد كان احد حاشية ابي، ضربني بحقد، آلمتني كثيراً تلك الكلمات التي القيتها على ابي، الكلمات التي تتهم القداسة بالكذب تتحول لعذاب ينصب على قائلها، الكلمات التي تُعارض رجال الدين تُرَد بسياطٍ غليظة، اخر ما قالهُ ابي كان: "اخطأتُ حين منحتك الثقة، وأخطأتُ اكثر حين جعلتك إماماً للناس، انت لا تستحق ما انت عليه، لي اولاد غيرك، احدهما كبرَ بما يكفي لأستعين به، وأخر سيُساندهُ وسيعقبه، أنت من الان لم تعد ابني".

ما قالهُ كان نوبة غضب مُزِجت بالكلام والصُراخ، كان ذلك بأثر ما قلتهُ له في نهاية جدالنا، قلتُ لهُ صراحة بأنني لا اتبع نبيهُ الوارد في الفقه واني اتبع النبي الوارد في القرآن، لستُ مُستعداً لتقديم هذا النبي لأناس سأتحمل وزر اعتقادهم الخاطئ، اقدم لهم نبي اختلقوه قديماً ليمنحوا الشرعية لأفعالهم اللائي يريدون سّنها بأحاديثٍ مُختلقة، حاججتهُ في حديثٍ نقلهُ الفقه يسيء الى النبي، هو مُعتمد في كتبهم، إلا انهم حين يُحَاجَجون فيه يتبرأون منه، اتهمني برمي المُحصنات فأقام عليّ الحد بصدد هذا الاتهام بدلاً من حد الكُفر، عَطِف عليّ لأنني ابنه، لم ارمي المُحصنات إلا بما يوجد في كُتب مكتبته التي شهدت جدالنا، كتبهِ التي نقلت كذباً عن (عائشة) لأنها الأقرب لعصر النبي، أنا على قناعة تامة بأن (عائشة) شخصية اختلقها رجال الدين في الدولتين (الاموية والعباسية) لكسب قناعة اذهان الناس، ما أن كتبوا او تناقلوا شيئاً وسألهم سائل عن مصدر القائل، ليقولوا (عائشة)، كيف وهي احاديث لا تُحفظ بهذا العدد وبأي طريقة، ومن السهل جداً ان توجد مُغالطة، ولكن الامر واضح، (عائشة) في كُتب الفقه ليست هي (عائشة) زوجة النبي، هي على الأرجح شخصيةً وهميةً خُلقت للإفتراء على الشخصية الحقيقية، بحكم

انها عاشت أطول فترة زمنية من بعد وفاة النبي، الفرق واضح بين عدد الاحاديث التي نُقلت عنها وبين الاحاديث التي نُقلت عن باقي زوجات النبي والتي لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليدين، اتهمني برمي المُحصنات حين سردتُ عليه ما رواهُ (عبد الله بن الزبير) عن أبيه حين ارسلهُ الى بيت النبي فأدخلهُ الى لحافه برفقة نساءه.[70] استذكر نادماً كُل ما اقترفت، بروحٍ لا تمتلك جسد، ارجع لتلك الأيام التي عشتُها، وحين اتوقف عن الذكرى اعود الى هذا العالم الغريب.

عُدتُ وأنا اجلس مُتكئاً كعادتي، اسند رأسي على يديّ التي تُحيط بساقيّ، عدتُ هذه المرة والظلام يُحيط بالمكان، لا أرى شيئاً، ظلامٌ دامس يُخيفُني كثيراً، اتصور بأن الامر انتهى وجاء يوم الحساب، اتخيل يوم القيامة، اتصور وجهاً غضوب وسط هذا الظلام، اظنُها بأنها سيئاتي، تحوم حولي فتتسَبب بهذا الظلام الموحش، وسط ظلاماً شبيهاً بتلك الليالي التي قضيتُها في السجن، اتذكرُها الان، اتذكُرها جيداً، حُكِم عليّ بالسجن بعد ان القت الشُرطة الباكستانية القبض عليّ لحيازتي مواد مُخدرة، خرجتُ من السجن وقتها وأنا لستُ أنا، كمثل كُل سجين حين يخرج، السجن رحم امٍ نولد بهِ من جديد، خرجتُ بعد ليالٍ عتمة، خرجت وبمعيتي يأس يكفيني لما تبقى لي من عمر اقضيه من غير ان يبتسمُ لي ثَغر.

كُنا قد وصلنا الى (بيشاور)، لنا هُناك منزلاً بديل، منزلاً بذات الخدم والحرس والجواري، لأبي نفوذاً في (بيشاور) يوازي نفوذَه في (أفغانستان) بحكُم أصل قبيلة (البشتون)، إلا أن نفوذهُ كان يسري على الاتباع لا على الدولة، وصلت عائلة ابي الكبيرة الى

[70] نص الحديث على: "أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم في غداة باردة فأتيته وهو مع بعض نسائه في لحافه فأدخلني في اللحاف فصرنا ثلاثة" انظر: كتاب (المُستدرك على الصحيحين) لأبو عبد الله الحاكم النيسابوري/ الجزء الثالث/ الصفحة410/ الحديث رقم 5564

هناك على شكل دفعات، كنت اول الهاربين قبل الغزو الروسي، قضيتُ اياماً في حبسٍ انفرادي في غرفتي، تكرر هذا الحبس في (بيشاور)، الا أنني وبعد ايام قليلة، تمكنتُ من الهرب ليلاً قبل ان يصل ابي الى البيت، هربتُ الى (دارا ادم خيل)[71]، كنتُ لا اقوى على السير بصورةٍ طبيعية، كانت احدى الحُجج التي كذبت بها على احد المارة ليقدّم لي الطعام ويقّلني اليها.

منذُ انقلاب الشيوعيون وأعداد الفارين من (أفغانستان) اللاجئين (لباكستان) في ازدياد، كانت (بيشاور) ملاذنا الامن بحكم الأصل الواحد العائد لقبيلة (البشتون)، كان لأبي هناك جاهاً ليس بالهين، تواجدهُ هُناك أشبه بالحُجر البديل ومركز قيادة بديل لما يدور في (أفغانستان)، قوة نفوذهِ هذهِ دفعتني للهرب قبل مجيئه، كنت اخشى البقاء في البيت او حتى البقاء في إقليم (خيبر بختونخوا) لتواجدهِ هناك، ذهبت الى (دارا ادم خيل)، تجولت لأيامٍ في الطرقات، نمت قُرب النفايات، ذقت مرارة الجوع وحسرة الاستجداء، بكيت دموعاً من الدم ندماً على ما اقترفته، الندم وأنت تأكل من مائدةٍ نظيفة شيء، والندم وأنت تأكل بقايا الطعام من النفايات شيء اخر.، وأنا في طريقي الى العذاب، حلقتُ رأسي وذقني لئلا يعرفني احد، اردتُ ذلك لأعيش بسلام، صار شكلي مُختلفاً عن السابق، لم احلق ذقني منذُ ان بلغت، كانت المرة الأولى التي أرى فيه وجهي نظيفاً من الذقن والدَجل.

لا زال الظلام من حولي، أنادي على (قريني) عسى ان يسمعني ولا يُجيب، لا اعلم إن كان موجوداً أم لا؟ لا اعلم ان كنتُ في ذلك العالم لما بين الموت والبَعث ام انتقلت الى عالمٍ اخر؟ لا أتمكن من الحركة، تحسستُ يدي فوجدتُ السلاسل كما هي،

[71] دارا ادم خيل: قرية صغيرة تقع بين مدينة (بيشاور) ومدينة (كوهات) في اقليم (خيبر باختونخوا) في (باكستان) يعتمد اقتصادها على تجارة تصنيع وبيع الأسلحة غير المشروعة يتم تصنيعها على يد القرويين من معادن الخردة التي يتم تجميعها من أحواض بناء وصيانة السفن باستخدام أدوات يدوية بسيط.

ولكن لمَ هذا الظلام؟ تزامن مع الظلام ذكرى تلك الأيام المؤلمة، لم تكن أيام، كانت سنوات طوال، كان اليوم الواحد منها يُعادل اعواماً في غير الزمان والمكان، انتهى وقتها كل شيء اعتدتُ عليه، وبدأ كل شيء لم ارهُ في حياتي، تناولت من الأطعمة أردئِها، ومن الثياب اوسخها، قاومتُ امراضٍ عدة دون ادنى عِلاج، حتى لون وجهي تغير، لم اكن الوحيد، اذكرُ بأن عدد اللاجئين (الأفغان) في (باكستان) ابان الاحتلال الروسي وصل الى (5) ملايين لاجئ، رأينا شتى أنواع العذاب، كنتُ على شاكلتهم، قضيت برفقتهم ما جنوه من جوع وعوز ومهانة، دفعنا ثمن خيانة (الشيوعيون) المُنادين بالحرية والواعدين بالسعادة.

بعد ان استبعدَ الرئيس الافغاني (نور محمد تراقي) كل الشيوعيين من حوله عن دفة الحُكم، كلف (حفيظ الله) بتشكيل حكومة، كانت أولى القطع التي تُسحَب من الاحاجي المُرتبة بشكلٍ افُقي، هُدِمت بعدها كل اركان الدولة، لم تعد لنا دولة في الأصل، وهو يراها هزيلة، قدم (تراقي) طلباً رسمياً للإتحاد السوفيتي ليتدخل عسكرياً في (كابل)، كان تصرفهُ خُلاصةً لما يُريد قولهُ كل أفغاني حين يُسأل عن قيادات الحزب الشيوعي الافغاني، كانت الخيانة جُل أهدافهم، انتقامهم من الجميع لم يرض شعورهم بالانتقام، انتهى المطاف بهم بأنتقامهم من انفسهم ومن الوطن الذي يجب ان يكون اغلى من النفس، انتهى امر (تراقي) وأعلنَ خبر وفاتهِ بشكلٍ مُبهم في صفحات جريدة (NEW KABUL TIMES) في10/تشرين الأول/1979، ذاعت حكومة (حفيظ الله) بأنهُ توفي اثر مرضٍ خطير واصفة إياه (بالمعلم العظيم) و(القائد)، وما إن مرت اشهر ثلاث ليُطيح اتباع (ببرك كارمل) بحكومة (حفيظ الله) وليشيعوا بعدها سبب وفاة (تراقي) بأنهُ خُنِق بوسادته.[72]

[72] David B. Ed wards: Before Taliban: genealogies of the Afghan jihad.

لا انسى تلك الكلمات التي لقاها رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي آنذاك (ألكسي كوسيگن) ابان تقديم (تراقي) لطلب التدخل العسكري بعد عودتهِ من مؤتمر (حركة عدم الانحياز) في العاصمة الكوبية (هاڤانا) ولقاءهِ (ليونيد برژنيف) في (موسكو) في20/ اذار /1979 "نحن نؤمن بأنها سيكون خطأ قاتل أن نرسل قوات برية، فلو ذهبت قوات برية، فإن الوضع في بلادكم لن يتحسن، بل على العكس، سيسوء، فقواتنا سيكون عليها القتال ليس فقط ضد المعتدين الخارجيين، ولكن كذلك ضد جزء معتبر من شعبكم"[73]

يقول قريني: هناك من قال انها رسالة سُلِمت الى (ببرك كارمل) وليست الى (تراقي) أليس كذلك؟

وضحت لي الرؤيا، انتشر النور من حولي ...

سألته: أين كنت؟ اخافني الظلام كثيراً.

اجابني: لم يكن هنالك ظلام.

قلت: كلا، كان هنالك ظلام، المكان كان كلهُ مُظلم.

قال: هل سُلمت هذه الرسالة الى (ببرك كارمل) أم الى (تراقي)؟

قلت: لم يعدُ هنالك فرق، النتيجة واحدة، تحققت نبوءة ابي وتقاتلوا فيما بينهم ومن ظل منهم حياً لوحَ بمقاليد الوطن ليعرضهُ للبيع.

يسألني قريني: هل التقيت بأبيك بعد هروبك ؟

قلتُ له: لم التقي به على ما اذكر، لا اذكر سوى تلك الأيام البغيظة، سنوات السجن، ماذا حصل بعدها؟

قال: ستذكر.

---

[73] Walker, Martin (1993) / The Cold War and the Making of the Modern World/ Fourth Estate .p. 253

سألتهُ: نحن في أي سنة ؟

لم يُجيبني، كررت سؤالي مرتين ولم يُجيبني، التزمتُ الصمت ولم اتفوه بكلمة، ذكرياتي في السجن كَبّلت لساني، كانت أياماً لا اجد لها الكلمات القاسية الكافية.

يسألني قريني وكأنهُ يسمع همسي: لم حُكِم عليك بالسجن؟

قلت: كنتُ ابيع المُخدرات.

التفت لي نصف التفاتة وكأنهُ يتعجبَ ...

قلت: هذا ما ارادهُ لي ابي.

قال: هل اجبرك ابيك على ان تَكُن تاجر مُخدرات؟

قلت: كلا، أوصى الجوع بأن يُجبرني على ذلك، ألا تستطيع تفهم الامر، قضيت ليالٍ انام برفقة الكلاب السائبة، قضيت ليالٍ لا انام فيها بسبب الجوع.

قال: ألم تكن تعمل في معامل تصنيع الأسلحة؟

قلت لهُ: نعم، عملت لثلاثة سنوات تقريباً، بعد وصولي الى (دارا ادم خيل) امتهنت صناعة وتقليد الاسلحة الاصلية، كان مكان العمل مسكني عند الليل، كنتُ اتوسد احدى الزوايا لأنام بمأمنٍ عن القهر، تعلمت العزف على العود، كنت اعزف عند الليل احياناً هرباً من سُخرية من حولي وازدراءهم لآلات الموسيقى، هم لا يختلفون شيئاً عن شعب (افغانستان) سوى انهم شعب هرمي اكثر، حصلتُ على عملٍ بعد اسابيع من التشرد، عملت في احد معامل تصنيع الأسلحةً، لم يكن هنالك مهنة اخرى في تلك القرية، خلال عامٍ واحد تمكنت من تعلم تقليد الأسلحة الاصلية وصناعة قُطع مُشابهة لقطعها الاصلية، كنت مع جميع الأفغان نُعاني من شحة فرص العمل، عدد سُكان (باكستان) يفوقنا بأضعاف وهم أولى بالعمل بحكم حياتهم المعدومة بالعموم، إلا أن حكومتهم كانت ترى نفسها الاب

الروحي (لأفغانستان) وهذه الأخيرة تُطيعها كالعبد، لم أعلم اين كان يُكمنُ السر!

سافرت بعدها الى (كراتشي)[74] تعرفت على اصدقاءٍ كانوا ينقلون مخلفات السفُن من هُناك الى (دارا ادم خيل)، هربتُ برفقتهم لئلا يعرفني احد من اتباع ابي، رغُم ان شكلي بات غير الشكل الذي يعرفني به الجميع، إلا ان جلدات ابي حالت دون ان أمكث مُطمئناً هُناك، في تلك الأيام، اشتدت المُقاومة صداً للغزو الروسي، اصبح السلاح بشتى انواعه يُنقل بشكل يومي الى (أفغانستان)، بقيتُ طيلة الفترة التي اعمل فيها في تصنيع الأسلحة بدون كلام، اخبرتهم بإشارات يدي في اول يومٍ لي في العمل بأنني ابكم ولستُ أصم، تصنعتُ ذلك كي لا يكتشف امري احد، غيرتُ شكلي وامتنعت عن الكلام، هذه نهاية كل رجل دين يَكتَشف امر دينه.

سنوات علمتني الكثير، عرفت ان الحياة عرض وطلب وأن كل شيء نملكهُ سيُعرض للبيع يوماً ما، عرفتُ ان ليس للحياة أي قُدسية، سندفع ثمن كل ما اقترفناه، صالحاً كان ام لا، سنوات وأنا اندم، اعزف الندم على آلة العود تارة، وتارة اكسوهُ بالأمل، سنوات علمتني كيف الذُل يجعل الانسان هادئاً دون أي ردة فعل، تعلمت ان ضربات صاحب العمل عند الصباح يُقابلها المال والرضا في نهاية اليوم، تعلمت ان أقول (شكراً) بعد كل إهانة القاها، عرفت لمَ الفقراء بمُختلف اعمارهم يحصلون على تجاعيد الوجه، عرفت لمَ الجياع لا يبتسمون، عرفتُ معنى نظرات المُشردين حين يمر بقربهم شخصاً بثيابٍ مُعطرة.

[74] مدينة (كراتشي) عاصمة إقليم (السند) في (باكستان) سُكانها لا يتحثون لغة (البشتو) او اللغة الفارسية (الدري) هم يتحدثون اللغة (الأردية) لأن أصل سُكان هذا الاقليم يرجع الى (الهند).

اقسى أنواع الخسارة هي خسارة الوطن وخسارة من نُحب، كل شيء من دونهما اشد وطأة، كل شيء من دونهما يمكننا ان نَتهم القدر او الظروف المُحيطة بنا بأنهما كانا السبب لفقداننا إياهم، إلا الوطن والحبيب، لن نخسرهم إلا اذا كُنا متقاعسين عن تقديم الروح قُرباناً لديمومتهمُا، علمتني الوحدة العزف على آلة العود[75] تعلمت قول ما اريد قولهُ من خلال الاوتار، سنوات وأنا محروماً من الكلام، لا اتكلم مع احد، تعلمت العزف فهان كل وجعٍ في بداخلي، لم اكن اعرف ان من يتقن العزف يمتلك الدواء لكل داءً في الوجدان.

بدأتُ اتعاطى المُخدرات، هربتُ كما يهرب كل ضعيف بائس من واقعٍ اوهن من ان يفتح عليهِ عينيهِ في كُل صباح، كنتُ سعيداً لَخلاصي من ارتداء الرداء الديني، ارتديت كعامة الناس ثياباً لا تشير لشيء، ولا تعني شيء، اصبحتُ اسير دون ان ينظر لي احد، فرحتُ كثيراً بذلك.

عملت في (كراتشي) في نقل وحمل مادة (الافيون) في السُفن المُبحرة في (بحر العرب) كانت هذه المادة الخام لتصنيع المواد المُخدرة وهي مُتوافرة بغزارة كما تتوافر السجائر، طلب مني ذات مرة رجل مُستطرق ان احمل لهُ بعض الصناديق في الاسواق مقابل اجراً فركضتُ خلفه فَرِحاً لأنني سأتناول طعاماً نظيفاً هذه الليلة، انجزت ما طلبهُ مني وتقاضيت الاجر، ولأنني وددتُ ان أُقبل يديه اخبرني بأنني لو اردت العمل يوم غد فأنهُ سينتظرني لأحمل له الصناديق وبأجرٍ اعلى، وبعد فترة قصيرة بدأ يهديني مسحوقاً صغيراً يضعهُ في كف يدي مع النقود، اتذكر اول مرة استنشقتهُ فيها امامه، لم اعرف سبب عدم اعتراضي، استنشقتهُ بعد إن حثني قائلاً: "استنشقهُ فهو سيجعلك افغانياً سعيداً خِلافاً لباقي الافغان" اشترى طاعتي على الدوام بهذا المسحوق،

[75] آلة العود في (باكستان) لها شكل مُختلف وتُسمى (ره وا فو) كانت تشتهر لدى أبناء قوميات (الويغور) و(الطاجيك) و(الأوزبك).

بدلت بعد حين اجرتي بالهيروين، وبعدها بفترة، بدلت الطعام بالهيروين، صار المُخدر دمي الثاني، كنتُ احتاج إليه كل يوم بشكلٍ أساسي، المُخدرات طريقةً مُثلى لإستعباد الناس من بعد الدين، إلا إن فيها حق الخيار نوعاً ما، في الدين حق الخيار غير متوافر، الدين يُمنَح ولا يُختار، ما نولد عليه هو الاختيار الصائب على الداوم والدليل موجودٌ في كتابُنا المُقدس كُلاً بحسب دينه.

بعد عدة شهور بدأتُ اعمل في توزيع المُخدرات على المُدمنين بين الازقة، دلني احدهم على تاجرٍ يحتاج الى صبيةٍ لبيع المُخدرات في الازقة مقابل اجراً زهيد، كان اسمهُ (مُهاب)، رجلاً ذو وجه مُستدير بأعيُن جاحظة يلبس السواد على الدوام ويضع يدهُ اليُمنى في جيبهِ دائماً، عرفت فيما بعد بأنهُ مبتور الكف، كان الصبية يأخذون منه قدر ما يستطيعوا بيعه عند الفجر ليرجعوا إليه عند المساء ويعطوه المال ليعطيهم أجرهم ويُهدي بعض (الهيروين) لمن كان اكثرهم بيعاً، تركت العمل على السُفن والتجأتُ إليه، كُنتُ أتقاضى على الدوام منهُ الهدايا إن كُنت اكثر صبيتهِ بيعاً أو اقلهم دون أن اعرف السبب.

لم اشعر بالندم بحكم ما رأيتهُ من عذاب، لم اندم بعدما اصبح لي سكني الخاص وثيابي النظيفة، صرتُ اكل ما اشاء وادخر ما اشاء، عدتُ اُصفف شعري واحلق ذقني واهتم بمظهري، لكنني ما زلت لا نظر في المرآة كثيراً، في كل مرة أرى وجهُ (مريم)، اراها في انعكاس وجهي، في مظهري الجديد، في اناقتي التي كنت أتمنى ان القاها بها، يا ليتني التقيتُ بها في زمان غير ذلك الزمان، يا ليتني اراها الآن من دون ذلك الخاتم الذي بيدها، اعتدتُ على العزف عند الفجر، ابدأ في العزف قبل طلوع الشمس بدقائق، وانتهي عن بروزها، اعزف بعد اخذ جرعةً من النسيان تكفيني الى مطلع الشمس لليوم التالي، استنشق (الهيروين) عند مطلع الشمس لأطمئن بأن اليوم الذي سأعيشهُ انتهى، انتهى من دون ألم، من دون الجوع او العوز، من دون اشتياق، من دون حنين،

من دون وجوه، من دون سراب وجه (مريم)، استنشق الخدر لينتهي يومي قبل ان يبدأ، لأنني كنتُ ولا زلت وسأبقى اكره كل يومٍ من دونها.

للعزف سحر يجعلك تمتلك عصا كتلك التي نسمع عنها في قصص الاطفال، كيف يحُرك الساحر عصاه ليُغير الاشياء بسحرٍ لا يُصدق، العزف كذلك، لا بل اكثر، العزف اعظم من ان يُوصف، للعزف بلاغةً كبلاغة معاجم اللغة، يضمُر جُملاً بليغة القصد، هنالك موسيقى للسرد، تسرد لك حكايةً على سبيل الألم، وهنالك موسيقى تقول ما لا يُقال، حين يشتد الوجع على المقاصد، حين يقف اللسان مكتوف النطق، حين يمتلك اليأس حنجرةً صوتية ليصرخ مع كلامك بآن واحد كي لا يسمع صوتك احد، العزف وحده قادراً على ان يتكلم بصوتٍ أعلى من صوت الندم، بالعزف نقول ما لا يُفهم بالكلام، نتحدث عن كُل ما لا نجيد وصفهِ باللغات، بالعزف نَسمَو للغةٍ لا تعرفها سوى الملائكة، او ذلك الانسان الذي يمتلك جسد انسان وروحاً من ارواح أولئك العليين، بالعزف نعبر عن القهر بأبتسامة، نُعيد تذكار ما مضى دون ان نكترث بأنهُ مضى، نستمتع بإعادتهُ الى حياتنا الحاضرة بشكلٍ أنيق كما كُنا نحلم به، بالعزف نحمل اكليلاً من الورد ونتجول بين قبور من فارقنا، احياءً كانوا ام اموات، من مات بنظرنا وهو على قيد الحياة ومن ظل على قيد الحياة بحُبِنا له رُغم موته، بالعزف نُقبّل جبين القدر رُغم ظلمهِ لنا، عسى ان ينظرُ لنا في مُستقبلنا نظرة عطف، بالعزف نُعيد اجمل ذكرياتنا بماهيتها التي كانت، بملامح وجوهنا آنذاك، بأعمارنا مهما كانت كبيرة او صغيرة، بثيابنا التي كُنا نرتديها، بعطورنا، بتصفيفة شعرنا، بحُلينا، بطريقة كلامنا، بجهلنا، بثقافتنا، بوهُمنا، بحقيقتنا، بكل ما نريده، وبحسب ما يشتهي الوتر الاعلى من العود، بالعزف نحيا رغم موتنا الشكلي، بالعزف ننطق رغم وهمنا بأننا بُكم، بالعزف نرتدي ثياباً لا نملكها، نقتني ما نشتهي من حُلي

ثمينةً على مُبتغانا، بالعزف نملك اجمل القصور، بالعزف يدوم الامل.

قال قريني مُقاطعاً: توقعتُ سماع أي شيء منك إلا ان تكون مُدمناً على المخدرات!!

اجبتهُ: لم يستمر الامر طويلاً، وقتما دخلتُ السجن لم أعد قادراً على التعاطي، آل الامر الى تناول (الخشخاش).

قال: ظننتُكَ طاهراً من الذنب؟

اجبتهَ: كيف وأنا انسان؟ مخلوق ليُمتحن، لن تنتهي حياة احدنا ناصعة البياض.

قال: اعترضتُ على ابيك لنقلهِ السلاح الى القرية وهربت من سلطته، لذلك ظننت بأنك ستكون صالحاً، لأنك رفضت العيش برفاه في ظلهِ السلطوي واخترت ان تعيش بمفردك وترى أيام كمثل هذه الأيام التي ترويتها.

سألته: برأيك هل حَرمَ الله المواد المُخدرة؟

قال: بكل تأكيد.

قلت: اعطني آية التحريم؟

قال: ليس من حقك ان تسألني، انت هُنا المَعني بالإجابة عن كل ما يدور في ذهنك.

سألتهُ بُغية أستدراجهُ لإجابةٍ تفصحُ لي عن هويته، لا اعلم من هو؟ ولماذا يكون قريني؟ اتعبتني تلك الاسرار التي يضمرها ولا يبوح لي بها، يمنحني الذكرى بشكل جرعاتٍ صغيرة والحيرة تزداد مع كل أيام اذكرهُا، كنتُ اظن أنني متُ وأنا برداء الدين، اما الان، أرى نفسي مُدمناً معدوماً ومُشرد، كيف انتهى الامر بي؟

هممتُ بالوقوف والسير بخطواتٍ بطيئة، تقربتُ منه ...

سألني: الى ما تُريد الوصول؟

قلت: إليك، أريد ان اعرف من تكون؟

قال: اراك تتحدث من دون خوف، راق لك المكان، أليس كذلك؟

قلت: كلا، عرفت مصيري وسبب هذه السلاسل.

قال: ماذا عرفت؟

قلت: الامر واضح، انساناً عاق لوالديه، مُهملاً لعبادتهُ ودينه، مُدمناً على المخدرات، عليه احكاماً بالسجن، و .....

قاطعني قائلاً: وما علاقة هذا بالسلاسل التي بيدك الان؟ هذا ليس سجن الأرض، اخبرني، ما الذي حصل بعد خروجك من السجن، كم حُكِم عليك؟ اخبرني إن كنت واثقاً، كيف مُت؟

سرتُ بخطواتٍ ابتعدُ عنه فيها، اخذتني الحيرة الى وراء الشجرة، تغيرت مَلامح وجهي لملامح ضَجر، ما املكهُ ظن، ليس سوى ظن، امشي هادئاً أتذكر أيام السجن، ارضٍ رطبة، عَتمة، باردة، قضيتُ ما حُكم عليّ من سنوات، حُكِم عليّ بالسجن لخمسة أعوام بعد أن وشى بي (مُهاب) لأجهزة الشُرطة.

اتذكرُ ذلك اليوم جيداً، ذهبتُ فيه عند الفجر (لمُهاب)، لم يعطني ما اطلب منه من المُخدرات، اعطى لي كمية قليلة لا تكفي لشخصين، اخبرني بأن ابيعها وأن اعود إليه عند وقت الضحى لأخذ المزيد فهو لا يحمل أكثر من ذلك، كان موقفه غريباً إلا أنني كُنت احد صبيته لا أملك شيئاً غير طاعته، وما أن تركتهُ ووصلت الى المكان الذي اقف فيه لأنتظر زبائني، ركض باتجاهي شرطيين وألقيا القبض عليّ، لم أعلم بأن (مُهاب) وشى بي إلا بعد دخولي السجن، حين رأيتُ أمثالي، صبيةً يذهبون الى السجون بدلاً من التُجار لسد حاجة الدولة من الأحكام الجنائية التي تبرزها على القنوات الإخبارية أدعاءً منها بأنها تعمل جاهدةً في مُكافحة

الإدمان والقضاء على تجارة المُخدرات المُتفشية حتى في أجهزة الدولة ذاتها.

قال قريني: لم تخبرني عن آيات تحريم للمواد المُخدرة.

اجبتهُ بصوتٍ يغلبهُ التعب: لم ترد آية صريحة في القرآن تُحرم المواد المُخدرة، جاء التحريم (للخمر) تحديداً، انقسم المُفسرون هنا كعادتهم لفريقين، فريقاً أخذ بالتحريم على أساس المعنى الوارد للكلمة في القرآن حصراً، وفريقاً اخر اخذ بمعناها الشامل في اللغة العربية، منهم من قال ان ورود كلمة (خمر) تعني (خامر الشيء: أي لامسه)، وهنا يشتمل التحريم على كل ما يُذهب العقل سواء كان خمراً من مشروبٍ سائل او على شكل مسحوق او عقاقير طبية او ما شابه لطالما أنهُ لامس العقل[76] وبذلك استنبطوا السبب العام والشامل لتحريم الخمر هو ما يتسبب به من بغضاءٍ وعداوة وهذا خبيث بديهياً، وتحريم الخبائث جاء صريحاً، أما الفريق الاخر ادعى بأن في الجاهلية كانوا يستخدمون كلمة (الخمر) لشرابٍ مُحدد مُتداول وقتها، وليس المقصود بالخمر هو كُل شراباً مُذهباً للعقل والتحريم جاء صريحاً له وقاصداً لجِنسهُ وأن ليس هنالك شُبهة[77] وكل ما يُحرم (غير الخمر) بحكم ملامستهُ للعقل فهو بحُكم (القياس).

سألني: هل استمريت بالقراءة في تلك الفترة؟

اجبتهُ: نعم، واصلت القراءة بعد ان تيسر حالي في (كراتشي)، انقطعتُ عنها بسبب الفقر، فليس من الممكن ان يلتقي العوز بالقراءة في آن واحد، الجوع يجعل غايتك ان تعيش كالحيوانات، تبحث طول النهار عن قوتك الذي يكفي لجسدك للعمل لليوم التالي، لن تكترث وأنت على قيد العوز لأي شيء يخص الماضي والحاضر و المستقبل، لن تكترث لأكثر مما يحتاج إليهِ جسدك

[76] انظر: القرآن/ سورة المائدة/91 - سورة الأعراف/157

[77] انظر: القرآن/ سورة البقرة/129

من قوت، ايقنتُ لمَ الحُكام يجعلون شعوبهم جياع على مدار حُكمهم، ليكونوا في مأمن من ثورة الفِكر، مع الجوع لا يقرأ أحد.

في السجن، كان السُجناء يجتمعون كل يوم بعد الصلاة الظهر، في كُل مرة يلقي احدهم ما تيسر لهُ من الجهل، يسرد الجهل بحريةٍ لأن كل من ينصت له من فئة الجِياع، لم يتطرق على مسامع احدهم يوماً أي حادثةً تاريخيةً لأي شخصيةً تاريخية، كنتُ انظر لوجوههم وهم يجلسون بقربي يكبتون الضجر الى ان ينتهي المُتحدِث، كانوا مُجبرين على الاستماع لأن في السجن اسياداً واتباع، لم يكن هُناك مُستقلين، في السجن مشايخ عدة وعلى السُجناء الجُدد اختيار واحداً منهم، كما الحياة في الخارج، لم يفرق شيء، اجلس كذباً، اصلي برفقتهم رياءً كي يكفون عني، أُراجع ما في ذهني من احكامٍ وآيات، اسمع كلامهم فأتذكر آيات القرآن وأُقارن بينهما، احُرك رأسي وهماً بأنني مُنصتٍ لهم وأنا في جُعبتي ما يُكذب كل افترائتهم، مُجبراً على الصمت، فالمجتمع هناك لا يفرق عن كل المُجتمعات المُغلقة، كان رؤية (دب قُطبي) في شوارع بُلداننا ليس بغرابة رؤية تاركاً للصلاة، لم اخبر احداً بأنني ابن (حميد الله) عشت كأي لاجئ مُشرد بلا أي دليل، ادعي البُكم متى ما صعُبَ عليّ الامر، فعلتها لسنواتٍ في (بيشاور)، دخلت السجن وأنا امنح نفسي كل يوم اسماً جديداً.

خطواتي حائرة والسلاسل من خلفي، انظر الى السماء فأدعو همساً بأن ينتهي هذا الذي يجري، لا اعلم ما مصيري؟ هل انا في الجنة؟ ام في النار؟ ليست النار كذلك، ليست سهل اخضر وسكون، وإن كانت جنة، فأين ما وعد الله في جنانه؟ انا لم اخضع للحساب؟ لا اعرف هل سأبقى مُذنباً؟ ام سيغفر الله لي؟ أنا مُذنب، كل ما سأتذكرهُ لن يكون افضل مما قد مضى، اتذكرُ (شهباز)، صديقي الوحيد في السجن، كان يصغرُني ببعض الأعوام، وثقت به واخبرتهُ اسراري، بحثتُ مراراً عن صديق،

مسألة ان نبقى صامتين في السجن فكرةً قد تؤدي بنا الى الجنون، كان محل ثقة، تبادلنا الثقة والاخلاص، بدأ حديثُنا عن ابي، وتطرقنا الى الحديث عن الدين، عرفتهُ بأنه كان احدى الدُمى التي تقتات على المنابر، كان يعمل خادماً لرجل دين يحتاج الى التعالي، بعد أن مضت شهوراً على تعارفُنا وصداقتُنا، جاء ذات يومٍ واخبرني بأن في السجن رجلاً كبيراً في السن يعرف جَدي، قالها لي عن طريق الصُدفة، سألتهُ كيف تأكد من ذلك، فأخبرني بأنهُ كان ينصت لحديثهِ عن امجاده في السابق وذكر أسم جدي، سُرعان ما تطرقت لأذهاني فكرة ان أسألهُ عن ماضي ابي وجدي، كانت مجرد فكرةً عابرة، تغلغل الفضول في افكاري.

وجدَ (شهباز) ذريعةً نسألُ بها هذا السجين المُسن، ذهبنا للقاءه، كان قد هاجر من (أفغانستان) قبل مجيء (محمد داوود) الى السُلطة، وثقتُ بكلامه، صدقتهُ بعدما حدثني عن تفاصيلٍ تخصُ جدي كنتُ أسمعُ بها في السابق من ابي، وما ان انتهى (شهباز) من الذريعة التي جئنا بها لنسأله بادر بذكاءٍ ليخبرهُ بأننا من أقارب (حميد الله) ونحن من (البشتون)، وقتها نَفرَ هذا الرجل من ذِكر أسم أبي وشتمه، تمالكتُ نفسي لئلا تظهرُ على وجهي أي ملامح دهشة، اخبرني بأن كان لجدي ولدان، الأصغر يدعى (خليل) والاكبر (حميد الله)، كان (خليل) غير راضٍ عن ابيه البتة، كان مُنتمياً للحزب الشيوعي، او يُقال عنهُ كذلك، لأن في (أفغانستان) كان كل مُستاءً من الدين يُعَد شيوعياً على حد تعبير هذا الرجل، انتمى (خليل) لحركاتٍ مُناهضةٍ للتدين، بدأ يعارض ابيه في العلن ويكتب عنهُ في الصحف، وصل بهِ الامر الى ان يهرب من البيت، ولكن بعد فترة وحين وسع نفوذ جدي بفضل ابي، انتقلوا للعيش في (كابل)، قال (بفضل ابي) وبرر لي ذلك بأن جدي كان رجل دين مُسالم، جاء ابي ليفرض الاتاوات بأسمه على الفلاحين، تمكن من جمع المال وشراء السلاح، كوّن وقتها مجموعة مُسلحة تتحرك معهُ وتظهر خلفه اثناء تجوالهُ في

الشارع، انضوت عدة جماعات مسلحة وغير مسلحة تحت رايته.

استمر جدي وأبي وعمي في العيش سوياً في (كابل)، رأى البعض (خليل) في تجمعات شيوعية، ولكن منذ انتقالهم الى (كابل) لم يعد يُعارض جدي امام الناس، اكتفى بالكتابة في الصحف والذهاب الى عملهِ، كان يعمل مُعلماً، بعد عام او اكثر، وبحسب ما يتذكر هذا الرجل، توفي جدي واستولى ابي على كل شيء، من وقتها لم يظهر (خليل)، لم يُشاهدهُ احد، قال الجميع بأنهُ هاجر الى بلاد الغرب، لم يُبحث عنه أحد بحكم سلطة ابي الذي انفرد بالسلطة، سلطتهِ الدينية كانت سلطة قبلية ممزوجة بالسياسة، هو من أدعى وقتُها بأن (خليل) هاجر الى خارج الوطن، ختم كلامهِ وهو يُردد: "حميد الله قتل أخاه".

الفصل الرابع

1992 - الحرب الاهلية

سبقَ في الحُب نُضوجي نُضوجها، جميلة وسكونها اجمل ما فيها، ناعمة، مُتناغمة، انظرُ لها وهي تُصففُ شعرها فيساورني ظناً يُفيد بأنها سقطت سهواً من الجنة، النظرُ في عينيها أبحار الى المَنفى، تأمل وجهها مع شروق الشمس نَغمة، أنظرُ لوجهِها فأستمع لموسيقى، هي لؤلؤةً مكنونة، مكنونةً لدرجة انها لم تُلمَس من قبل، سكونها فحوى لمَعانها البَراق، هادئةً لدرجة الأبداع، في سكونها صوتٌ لطائر الكناري وهو يُغرد تزامُناً معها وهي تتكلم، يُغرد اكثر حين تصمت، تمتلُك بالفطرة أدق تفاصيل الانوثة، وجودها صخبٌ لذيذ، وجودها تحقيقاً للأماني، وجودها لم يعوضني عن (مريم)، إلا أنهُ جعل قلبي يُعيد النظر بنبضه، ظهورها آنذاك في حياتي كان وقفةً على شُرفةِ ليلٍ جديد، ظهرت فأسكتت كل ما مضى من حنين، غطتهُ بوشاح طلّتها البهية، هدأ قليلاً لتأخذني الى ليلٍ جديد، الى أمنياتٍ جديدة، أقف بقربها وأنظر الى ما أملك من حنين لماضٍ لم يمضِ، لذكرياتٍ لم تُفارقُ اذهاني، لأسرى بلا سجون، أسرى يتوددون لسجانهم كي يسجنهم مزيداً من السنين، حباً به، ذكرياتي التي كنتُ احملُها طوال تلك السنين التي مضت، رافقتني طويلاً، حملتُها حتى تَقوس ظهر خاطري، رقيقة هي حتى يكاد يجرحُ بعضها بعضاً، يحذو الحُسن حذو نظر عينيها لو نظرت، في وجهها ينابيع عيون وليس ثمة عينين، لم تُنسيني (مريم)، (مريم) سري الأوحد، حبي الأوحد، (مريم) نغمة لا تُفارق مسامعي، تقف على الدوام على أبواب مسامعي لتمتزج مع أي لحناً اعزفهُ، لأسمعهُم سوياً، تمتزج دوماً

بوجودها وبغيابها، متواجدةً هي لأنني مُخلصٌ لوجودها، تَغيب وأنا مُخلصاً لها، مُواضبٌ أنا على عزفها كلما شرقت شمس أو غربتُ، يغمُرني الفرح لأنني قد احلمُ بها، لا زالت تمكث في روحي، اشم راحة كف يدي فأجدُها، اشمُ رائحتها عبر رحيلها، عبر كل تلك السنوات، اعزف على العود لأشدو لها اخلاص لم يعرفهُ بشر، أشدو لها لينبعثُ عطرها في أرجاء المكان الذي اختلي بها من أعيُن الناس، احياناً كُنتُ اغمض عيني وأنا اعزف لها، فجأة، أشمُ عطرها، ينبض قلبي مُسرعاً، افتح عيني لأنظر الى ما حولي، لعلها آتية وهذا عِطرُها، لعلها قَدّرَت ذلك العشق المُعاق، عشقتُها وأنا مُعاقٌ بما أرتدي وبما اعتنق، مُعاقٌ لأنني كنتُ في عُزلة عن باقي اقراني في عمر الشباب، كان من الاجدر بي أن ايقن بأن هذه العُزلة تشمل العُزلة عن العشق، كان من الاجدر بي ألا اقف لمُحادثتُها في ذلك اليوم الذي ظلت تُحدق فيه في عيني حتى بلغتُ الثمانين من العمر، شعرتُ في تلك النظرة وكأنني عَشِقتُها قبل أن يبدأ التأريخ الميلادي بعَدْ أيامه، اتجاهلُها وهي اكبر اهتماماتي، أعشقُها، كنتُ ولازلت وسأبقى أعشقُها، عشِقتُها حين كان يَسهُل عليّ رؤيتها، عشقتُها في غيابها، عشِقتُها في هجرها، عشِقتُها حين كُنت سيد الناس وعشقِتُها حين كُنت اقتات على القُمامة، غيابُها اثاب، عشتُ وكأنني أكنزُها، وكأنني أكنُها ليوم آت، أكنزهُا لأنها غالية، (مريم) لا تُقدر بثمن، ليست هُنالك اوراقاً نقديةً في عالم تكفي لأن تُساوي عَبقها، غاليةً هي ولا يمكن وصفها، اعجبُ من ذلك الشاب كيف تمكن من اخذها مُقابل حفنةً من المال لا تُساوي قيمة مشط شعرها الأسود، تشتدُ الذكرى فأُخبئ آثار هجرانها، أضمُرُ الغُفران لها، اعزفُ لها، أعزفُ لها حتى تمطرُ السماء بعضاً من ذكرياتُنا، ثُم احملُها كمظلة لأحتمي من الذكرى، أرتديها كنظارة لأرى كل ما حولي بها، وفقها، بماهيتها، كُل الدُنيا من حولي ترتجيها، وكل حلماً حلمتُ بهِ يتوق لطيفها، طيفها المُرتجى المُؤمَل لم يُكترث لصحوٍ أو منام، اهزُ ستائر الانتظار لعلها تختبئ خلفها، لعلها تنتظرني، لعلها تراني وأنا

بغير حال، بغير ذلك الرداء الذي ازعجها، بغير الذقن الذي لا يسمح لي بعناقها، بغير الدين الذي حال بيني وبينها، لعل محرابها يقبل توبتي فنعود لذلك العناق، عناقها يختلف قبلهُ عمّا بعدهُ، في عناقها اكتفي عن كل ما حولي، حين انهض من كِتفها، أنهض بلا روح، تبقى الروح عندها بعد عناقها، اهز ستائر الانتظار وأنادي بأسمها، (مريم)، لعلها تسمع كم عزفتُ لها، سقطت الستائر ولم تأتِ، لم أكُن أعلم بأن الاوان قد فات، تبتسمُ للغيم السائر فوقها، تبتسم فتشرُقُ الشمس لجمال نابيها، كانت طفلة بعمر الشباب، امرأةً لم تبلغ الاسى، لها مرضٌ فقع عين نضارتها، يُريها الظلام لو تأملت، يرسل لها الشيخوخة كطيفٍ لو حلمت بمستقبلها، لكنها ابتسمت حين رأتني للمرة الأولى، جاءت بهيئة صحوةً حين كنتُ اغفو بمطلع النهار، حين كنتُ استحضرُ الليل لو شرقت الشمس، سألتُ نفسي مراراً، ما الذي شدني إليها؟ لمَ هي بالذات؟ (مريم) تملئ كُل حيزاً في الفؤاد، وهي لم تخدش وجودها حين أتت، لا املكُ إجابة لو تساءلت عن أسباب وجودها في حياتي، وكأنني أسألُ نفسي، كيف بدأ الخلق؟

اضع وجهي بين راحتيّ يدي واتكئ بها على ساقيّ، أفكر فيما اضمرُ من حنين ...

يسألني قريني مُقاطعاً: كيف بدأ الخَلق؟

اجبتهُ مُبتسماً: هل كُنت تسمعنُي؟

قال: بكُل تأكيد.

قلت: اصفُ الحيرة بسؤالٍ يبحث كُل البشر عن إجابةٍ له، كيف بدأ الخلق؟ لا تكترث له، كنتُ أُقارن فحسب.

قال: حقاً أنا أسألك، كيف بدأ الخلق؟

أجبته: بدأ الخلق بأنفجارٍ كبير، وسينتهي بشيءٍ يُشابهه.

قال: أيعني ذلك انك لا تؤمن بوجود خالق؟

قلت: كلا، أنا أؤمن بوجود خالق، وهل وجود الانفجار الأعظم يلغي وجود الرب؟

قال: ما اعلمهُ أن الله خلق كُل شيء، وهو بداية كُل شيء.

قُلت مُبتسماً: بالفعل، ولكن ليس كما يظن المُسلمون بأن هُنالك سبعة أيامٍ للخلق قُسِمت فيها مهام الخلق.

يسألني: كيف؟

قلت: يقول المُسلمون بأن النبي ذات يوم اخذ بيد (أبو هريرة) ليشرح لهُ كيف بدأ الخلق فقال: "خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ"[78] اظن بأن من أورد هذا الحديث أراد اختلاق قصةً لنشأة الخلق، من المؤكد أنهُ من أولئك الذين لا يقفون مكتوفي الأفكار إن سألهُم أحداً عن حكُم شيء لا وجود له، اظن أيضاً بأنهُ كان مُتأثراً (بالتوراة).

يسألني قريني: ولمَ (التوراة) بالتحديد؟

قلت: جاء في (التوراة) بأن الخَلق ايضاً كان في سبعة ايام، خلق الله النور في اليوم الاول وفَصل النور عن الظلمة فسمى النهار والليل، وفي اليوم الثاني خلق الله الجلد ليفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد وسمى الجلد السماء، وفي اليوم الثالث أمر المياه التي تحت السماء أن تجتمع في مكان واحد وأن تظهر اليابسة فسمى الأرض والبحر، وفي اليوم الرابع خلق الأنوار أي الشمس والقمر في جلد السماء ليفصل النور عن الظلمة وتكون علامات للأيام والفصول والسنين وفي اليوم

[78] انظر: كتاب صحيح مسلم/ رقم الحديث 2789

الخامس أمر الله البحار أن تفيض بزحافات حية وأن تطير الطيور في جلد السماء، وفي اليوم السادس أمر الله اليابسة أن تخرج مخلوقات حية، أي خلق البهائم والوحوش والدابات، ثم خلق الإنسان ذكرا وأنثى على صورته وشبهه، وقال لهم: "اثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض" وفي اليوم السابع فرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل.[79]

يسألني قريني: لمَ تتهمهُ باختلاق القصص؟

اجبتهُ: لأنهُ كذلك بالفعل، كان (عمر ابن الخطاب) من اشد المُعارضين (لأبي هريرة) بالإضافة الى (علي ابن ابي طالب)، بلغ الامر لعزلهِ بعدما أوكلت إليه (ولاية البحرين)، قال البعض أنهُ سرق من التُجار ابان ولايته[80] كان (عمر) يبغضهُ ويبغض ناقلي الحديث، يقول عن تناقلهم للحديث بأنهُ (دوي نحل)[81] كما قيل

---

[79] التوراة/ سفر التكوين 1: 2/2:2/28: 3

[80] ورد في كُتب السيرة بأن (عمر ابن الخطاب) سأل (أبي هريرة) عن عودته: "استأثرت بهذه الاموال يا عدو الله وعدو كتابه؟" (فيجيبه ابي هريرة): "لست بعدو الله وعدو كتابه أنا عدو من عاداهما" فيسألهُ (عمر): "فمن هي لك؟" فيجيبه: "خيل نتجت وغلة رقيق وأعطية تابعت عليّ" انظر: كتاب (الطبقات الكبير) لأبي سعد/ تحقيق علي محمد عمر/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة 2002/ الجزء الخامس/ صفحة252 – وانظر ايضاً: كتاب (تاريخ دمشق) لأبن عساكر/ تحقيق علي شيري/ دار الفكر/ بيروت/67/370 – وانظر ايضاً: كتاب (سير اعلام النبلاء) للذهبي/ تحقيق شعيب الارنؤوط واخرون/ مؤسسة الرسالة-بيروت/ الجزء الثاني/ الصفحة612

[81] روي عن (قرظة بن الكعب) بأن (عمر ابن الخطاب) سار معهم وهم ذاهبون الى (العراق)، وحين سألهم عن سبب مجيئه قالوا: "أردت أن تشيّعنا و تكرمنا" فأجابهم: "وان مع ذلك لحاجة خرجت لها انّكم لتأتون بلدة لأهلها دوي كدوي النحل فلا تدوهم بالأحاديث عن رسول الله وأنا شريككم" فقال (قرظة): "فما حدّثت بعده حديثاً عن رسول الله" وفي رواية نقلت عن (قرظة) بأن (عمر ابن الخطاب) قال:انّكم لتأتون أهل قرية لها دويّ كدويّ النحل فلا تصدّوهم بالأحاديث لتشغلوهم جوّدوا القرآن واقلّوا الرواية عن رسول الله . صلّى الله

بأن (عمر) حَرق الاحاديث، اظن انهُ فعل ذلك بعد أن رآها تأخذ غير تلك المكانة التي وضعت لها، بعد أن رأى الناس قد اعتمدوا وجودها بدل كتاب الله، وهذا الذي شجع الناقل على التأويل ليضيف ما يراهُ جيداً الى الحديث ليكون مواكباً للعصر المنقول فيه ووفق رضى الحاكم.[82]

اظن بأنهُ اختلق قصة نشأة الخلق مما سبقهُ من تُراث فكري، فهي لم ترد في التوراة فحسب، وردت في آثار الحضارة المصرية والتي تعد اليوم هي الأقدم،[83] كما وردت ايضاً في اثار الحضارة البابلية، حيث كشف الرحالة البريطاني (هنري لايارد) في عام1849 قصة الخلق البابلية (إنوما إليش) في آثار (آشور بانيبال) في مدينة (نينوى) في (العراق)، لعلهُ سمِع بها انذاك، او انهُ اراد تفسير الآية: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}[84] فأختلق فكرة تقسيم الشجر والتربة والدواب على ايام الأسبوع ومنحها اقوال مُتواترة من شخصياتٍ مُبجلة.

يسألني قريني: الى الان لم تُجيبني، كيف بدأ الخلق؟

اجبته: اثبت العلم بأن هنالك انفجار عظيم أدى الى ان توجد (طاقة) أعتمد وجودها بعض العُلماء للأستغناء عن فكرة وجود

عليه وآله وسلّم . وأنا شريككم، فلمّا قدم قرظة قالوا: حدّثنا، قال : نهانا عمر" انظر: كتاب (مستدرك على الصحيحين) لأبو عبد الله الحاكم النيسابوري/ الجزء الأول/ الصفحة 102

[82] روي عن (ابن سعد) عن (عبد الله بن العلاء) قال: "سألت القاسم ان يملي عليّ أحاديث فقال انّ الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب فناشد الناس ان يأتوه بها فلمّا أتوه بها أمر بتحريقها" انظر: كتاب (الطبقات الكبير) لأبي سعد/ الجزء الخامس/ الصفحة188

[83] اشارت هذه الاثار بأن كان هُنالك إله اسمه (اتوم) وقف ذات مرة على احد تلال (الهليوبوليس) فوجد نفسه وحيداً فبصق فتكون إله الهواء (شو) وإلهة الحرارة (تفنوت)، لتنجب هاتان الإلهتان إله (جب) إلهة الارض وإله (نوت) إلهة السماء، ومن ثم انجبت هاتان الاخيرتان إلهة (اوزوريس) إلهة الخلود و إلهة (ست) إلهة الليل و إلهة (إيزيس) إلهة الفجر و إلهة (نفتيس) إلهة الغسق.

[84] القرآن/ سورة السجدة/4

خالقٍ واحدٍ يُعزي إليه وجود الكون، في الوقت الذي ظل البعض الاخر يتَرنُح بين الإيمان بفكرةِ وجوده وبين نقضها، تجتمع الأدلة العلمية بشكلٍ مُتسلسل فيذهب البعض لأن يقول بأن ليس هُنالك خالق، أو ليس هنالك داعٍ لأن يكون خالق، بعد التعرف على عناصر تكفلت بالخلق فلم تَعد هُنالك حاجةً لأختراع وجود شيء خارق للأستناد على قوتهِ بصنع ما لا نقدر على فهم تكوينه، وإن أنقطعت سلسلة هذه الأدلة يذهب الغالب منهم الى فكرة وجود (إله) ليُفسر ما صار مُبهم، لن يتوقف العالم عن البحث، النظريات التي ظهرت والتي ستظهر لن تتوقف، العالم بأسرهِ يبحث، حتى العُلماء الذين قالوا بأن المادة أصل كُل شيء أختلفوا في وصفها، وجدها (أرسطو) فأسماها (الهيولي Heoli) وحين توصل الى اخر ما يمكنه من البحث بحكم إمكانيات زمانه قال بأنها موجودة والخالق استخدمها للخلق، أي ان الخالق لم يخلق الوجود من العدم، كما أكد أن وجودها لوحدها لم يكُن كافٍ لأن يوجد الخلق، يُسلم العِلم بأن هُنالك اربع (قوى) وجدت بحكم الانفجار الأعظم[85] موجودةً على الدوام في الكون ولا تتغير، هذه القوى هي: (الجاذبية)[86] و(القوى النووية)[87] و (القوى النووية الضعيفة)[88] و(القوى المغناطيسية).[89]

قبل ان يُسلم العلم لهذا الأنفجار كانت كل النظريات تُشير الى ان حجم الكون ثابت، ازلي، ليس لهُ نُقطة بداية، وجِدَ ثم تطور، الى ان اتى العالم (انشتاين) ووضع نظريتهُ النسبية عام 1915 ليدحض القول السائد ويثبت انكماش الكون وتمدده، ولطالما

---

[85] الفيزيائي البريطاني (فرد هويل Fred Hoyle) المتخصص في تطوير أجهزة الرادار في الحرب العالمية الثانية هو أول من استعمل تعبير (الانفجار الأعظم Big Bang).

[86] قوة الجاذبية: وهي القوة المسؤولة عن سقوط الاجرام السماوية على الأرض وبقاء الكواكب في مساراتها.

[87] القوى النووية الشديدة: هي القوى التي يرجع إليها تماسك نوى العناصر.

[88] القوى النووية الضعيفة: وهي القوى المسؤولة عن النشاط الاشعاعي للنظائر المُشعة.

[89] القوى الكهرومغناطيسية: وهي القوى التي تحفظ اليكترونات الذرة السالبة والموجبة كلاً بمسارها.

انهُ كذلك فأن لهُ نُقطة بداية، عارضَ وقتها الفكرة السائدة، وكأنهُ جاء بدين جديد، ذهب بعدها ليضع معادلةً ثابتة اسماها (الثابت الكونيFudge constant) ليتغلب على تأثير قوى الجاذبية التي تسببت بنظريتهُ النسبية وليؤيد الفكرة الثابتة بان الكون ازلياً ولا يتغير حجمه، في عام 1929 سمع بأن (ادوين هابل Edwin Hubble) قد توصل الى اكتشاف ظاهرة (الازاحة الحمراء للمجرات Red shift) فسافر الى (كاليفورنيا) للتأكد من انها تدحض ما قال، فوجدها كذلك، اكتشف العلماء بعدها (قوانين الديناميكا الحرارية) التي اثبتت بأن الحرارة تتناقص دائماً وان الكون يبرد، ولو لم يكن كذلك لفقد حرارتهُ وفنى، أكتشف العالمان الامريكيان (ارنو بنزياس Arno Penzias) و(روبرت ويلسون Robert Wilson) بأن الكون مُتماثل (يتمدد ويبرد) وحصلا بأثر ذلك على جائزة (نوبل) عام 1978، وكذلك امكانية تشكل العناصر الثقيلة كالنحاس والحديد باندماج عناصر خفيفة مع بقاء العناصر الخفيفة كالهيليوم والتي يحتاج تشكلها الى جسيمات تحت الذرية والى درجات حرارةً عاليةً مما يثبت بأن الكون نتج عن حادثاً مهولاً مُنتجاً للحرارة، وليس بأحداثٍ مُتكررة ومُختلفة، ويُعزى كُل ذلك للانفجار الأعظم، ولكن لو تسائلنا، ماذا قبل هذا الانفجار؟ لن نجد أي إجابة.

العُلماء هُم اكثر إيماناً بوجود الخالق مُقارنةً بأشد المُتدينين تديُناً، في دين الإسلام خصوصاً، نجد أن الله يأمرنا بالبحث عن نشأة الخلق، امراً لم يكترث لوجودهِ أي حاكم من قبل ليجعلهُ في قائمة الأوامر والنواهي، فهو لم يقترن بأي منفعةً مادية، تأمرنا الآية: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}[90] بأن نبحث عن نشأة الخلق ونتفكر بالعلم، لم يخلُقنا الله لأن نتفكر بأي القدمين ندخل المرحاض.

[90] القرآن/ سورة العنكبوت/20

يُخاطب الله عقول خلقه بحسب امكانيتها في كُل زمان، تتجلى هذه الفكرة حين نرى الله يُخاطب اهل شبه الجزيرة العربية للتأمل في خلق (الإبل)، أمراً لا يتطلب مُختبرات تبحث عن العناصر فيزيائياً أو كيميائياً، أراد الله ان يجعلهم يبحثون في خلق الابل لاسيما وأنها خُلِقت بمميزاتٍ تختلف عن باقي الحيوانات انذاك، يريد الله الباحثين في العلم، يريد المؤمنين بعد الشك، يريد الله عباداً اذكياء يبحثون في أسباب وجود كل شيء من حولهم، يبحثون في تكوينهم، كلاً بحسب زمانه ومكانه، كذلك يشمل الامتحان الصعب وجود الدين في كُل زمان ومكان.

الوجود بدأ بالرب، والخلق بدأ بالانفجار الأعظم، مؤمناً أنا بأن الله وضع القوانين الفيزيائية التي تفسر نشأة كل شيء من حولنا، أنشأ كل شيء من حولنا بالعلم وبالسُبل التي ادركها وسيدركها كل عقل باحث في كل زمان ومكان، تكوّن كل عنصر كيميائي بسبب (التبرد) الذي لحق (التوهج) لما بعد الانفجار، بدأ بعدها الخلق بالنشأة، وجد الله كل شيء بالعلم بدلالة الآية: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}[91] نجد بعد البحث بما ورد في آيات القرآن بأن الله استوى على العرش في اليوم السابع لما بعد خلقه، نجد المُهتمين بالجهل اكثر من العِلم قد فسروا لنا على النحو الذي رواه (ابي هريرة)!! هُنا تكمُن مُعضلة المُتدينين، نُبجل القائل مهما امتلكنا من حقائق علمية، قال ان هنالك (6) أيام ولم يقل في اليوم السابع انهُ ارتاح بعد تعب، ورد في القرآن تفصيل الأيام[92] نجد أن الله بعد ان جعل للأرض قوتاً ورواسي، أستوى

---

[91] القرآن/ سورة الأعراف/54

[92] ورد تفصيل الأيام على النحو التالي:{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)} القرآن/سورة فصلت/12,11,10,9

الى السماء وهي دخان، ثم كوّن منهن سبع سماوات، بعدها اوحى لكل منها امرها، وأشار الى ان لكل سماء مصباح.

احدثُ قريني بفاهٍ مملوءٍ بالتعب، اجيب على اسئلتهِ كعاجزٍ مُثقل بديونٍ مُتراكمة، يكسو الظلام المكان من حولي، لا اعلم ما السبب، اخبرني (قريني) بأن ليس هنالك ليل او نهار في هذا العالم، انادي عليه فلا يُجيبني، الظلام حالك لدرجة أنهُ اقسى من ان يكون ليل، ليس هنالك بصيص نورٍ لقمر او اثرٍ لأي نجم، ليس هنالك ما اراه وما لتُلامسهُ يدي، يتراءى لي فجأة أنني في غُرفة بيضاء، بأغطية بيضاء، يتكرر هذا كلما اسرد شيء أخاف عُقباه، ولكني بتُ أتجرأ على قول كُل ما أؤمن به، بتُ لا أخاف، اتجرأُ بالعلم والمعرفة، ايقنتُ ما قالهُ (قريني) سابقاً بأننا هُنا نعدُ الإجابة لما سنُسأل عليه ومن يملك الأدلة والحُجج لن يكون خائفاً، ممَ سأخاف وأنا ميت؟ ممَ سأخاف وليس هُنالك ثمة فُرصة للتكفير عن الذنب؟ لم تعد هُناك أي فُسحة للاستغفار.

هممتُ بالوقوف، لم اكتفي بالبقاء جالساً، حاولت السير لبضع خطوات إلا ان السلاسل منعتني من الحركة، عدتُ لأجلس كما كنتُ، أنتظر زوال الظلام وظهور (قريني)، او أن تشرق الشمس إن وجدت، أجلسُ في العتمة كما كُنتُ أجلسُ في السجن، كُل عتمة اراها تُذكرني بتلك الأيام، لم أكُن سعيداً وقتما اخلوا سبيلي، كان الوجل يغلب عليّ مع اقتراب موعد اطلاق سراحي، كنتُ أنتظر انتهاء فترة سجني بترقب، لم يكُن لي مأوى لأخرج له، لم يكُن احداً بأنتظاري على باب السجن، لم اشتاق لأحدٍ سوى (مريم)، لم أنفك عن مُتابعة اخبار وطني البائس وأنا في السجن، سمعت بأن فصائل المُقاومة تعددت ومُستمرة في إنزال الضربات القاسية بالقوات الروسية، وان عدد الشُهداء في تزايد، ادت ثورة عارمة لأن تلحق خسائر كبير في الجيش الروسي وان تجبره على الانسحاب من الأراضي الأفغانية، انسحب الجيش الروسي بشكلٍ رسمي عام1989 تاركاً حكومةٍ جديدةٍ

بقيادة (محمد نجيب الله)، سمعت عنهُ بأنهُ كان سياسياً لهُ باعٍ طويلٍ في السياسية، كان شيوعياً إلا انهُ قرر مسك العصا من المنتصف فأعلن بأن (أفغانستان) دولة مُسلمة، وحَكِم وفق ذلك بُغية احتواء الفصائل التي تتواجد بشكلٍ شبه رسمي في الدولة بعدما صار يُعزى لها فضل طرد القوات الروسية، بعدما صاروا (مُجاهدين) اكراماً لديانتهم قبل وطنهم.

كانت بداية الحكومة الجديدة بداية جيدة، اتبع (محمد نجيب الله) سياسة الاتفاق والمشورة ونبذ الاقتتال والعنف، حاول جاهداً (رغُم شيوعيته) بأن يوافق بين الأطراف وان يدعو كل الأطراف للحوار، أراد ان يَعود الجميع الى الوطن ليبدأ من جديد، كان مثالاً لا بأس به في سياسة الاعتدال، حاول لأن يدعو جميع الأطراف المُتنازعة الى الحوار في الوقت الذي كانت جميعُها مُدججة بالسلاح، كانت أولى خطواته توقيع اتفاقية مع الحكومة الباكستانية في 1988/4/14 بشأن الأعادة الطوعية للاجئين الأفغان في (باكستان)، ظن وقتها بأن عودتهم واحتكام مصيرهم للبقاء سوياً على ارضٍ واحدة قد تؤدي بهم الى حلٍ ينتزع من قلوبهم الحقد الدفين الذي اعدهُ بعضهم لبعضٍ ابان أيام مُقاومة الاحتلال الروسي، كان في السجن العديد من الأفغان، كانت حواراتهم تصل الى الاقتتال ايضاً، انعكس كالمُعتاد الوضع السياسي على الوضع الاجتماعي كما يحصل في كل آن، سمعت في السجن بأن الاقتتال بين الفصائل المُسلحة الأفغانية كان اعنف من مُقاومة الجيش الروسي، قررت الحكومة في1990/3/31 رفع الحجز وإعادة مُمتلكات اللاجئين الفارين مُسبقاً من قمع الحكومة السابقة، بُغية نيل رضا الأطراف المُتنازعة وكسب ودهم، سعت الحكومة للكثير من الحلولِ السلمية، إلا انها باءت بالفشل، بعدما تناست بأن النزاع تضمن تدخُلاتٍ أمريكية، كما تضمن ايضاً توافر أموال طائلة ورجال الدين في آن واحد، خرجتُ من السجن دون أن يُرافقُني صديقي (شهباز)، اخبرتهُ

بأنني سأنتظرهُ، قضيتُ برفقته صُحبةً جميلةً، كان صديقاً رائعاً، كان لا يزال هُنالك عامين عليه ان يقضيهما في السجن، اعطى لي رقم هاتفٍ أوصاني بأن اتصل بهِ بعد عامين، ودعتهُ وأنا على امل لقائه، فأنا أكره الوداع، الوداع مؤلم لدرجة أنهُ يُجبر القلب على النبض بدمٍ ابيض.

أياماً شمطاء قليلة في (كراتشي) ثُم أجُبرتُ على مُغادرة (باكستان) بسبب اتفاقية عودة اللاجئين الأفغان، احتدم المصير لأن اعود الى (أفغانستان)، لأعود الى (كابل) بعد هذه السنين؟ تؤلمني تلك المدينة التي نشأتُ فيها، تؤلمني تلك الليالي التي جمعتني (بمريم)، وجدتُ نفسي على أبواب منزل ابي، أرى عقارب ساعتي تتهامس، لعلي أرجع آلاف الخطوات الى الوراء، واقفاً على أبواب من لايُريدني أن أدخل، أريد رؤية من لا يُريد رؤيتي، حاملاً توبةً ناصعةً الندم، أتأمل كل سبب أجبرني على العودة كي أكون على اهب الاستعداد لما سألقاهُ، وقفتُ وأنا اضع احتمالات تبدأ بقتلي، لم يتبق لي حل اخر، حاولت الذهاب الى (دارا ادم خيل) لعلي اجد فُرصة عمل في مصانع الأسلحة فأمسكت بي السلطات الباكستانية وألقت بي على الحدود، أجبرتني على العودة والوقوف بهذا الشكل الذي أنا عليه، فكرتُ في سُبل عرجاء قد تُمكنني من ان اعود ادراجي وألا ادخل لأبي نادماً، ألا اعود الى ذلك السوط الذي جلدني به، ألا اعود لظلمهِ وجورهِ الذي كان يُطعمُني إياه كل يوم، ألا اعود خطيباً ورجل دين زائف يقتُل المُنصتين له بعد ملئ عقولهم بالجهل وأفواههم بالأسلحة والقنابل، كدتُ انهار وأنا اقف حائراً بين الدخول وبين أن اعود أدراجي وانسى بأنني ولدتُ من ذلك الاب، فكرتُ ملياً فلم اجد ادراجاً اعود لها، ارسمُ جدولاً من فيض حزني، ينبع من عمرٍ مضى ويصب في مشيبٍ آت، على ضِفاف هذا الجدول يسكن من يكرهني واكرهه، يستجم بجدول احزني، ينعم بآهاتٍ لا تنضب، إلا حبيبة حين أذكر اسمها، يتوقف سيل هذا

الجدول، ينحني طيفها بالقرب منه فتُلامس احدى خصلات شعرها منبعه فتكتمه، طلبتُ من الحُراس الواقفين على الباب بأن ينادي احدهم ابي ليسمح لي بالدخول، سألت احدهم وأنا اترقب ملامح وجهه بجشع، اترقب كُل حرف سينطق به، خفت لئلا يقول لي بأنه ميت، تقربتُ من وجه الحارس ...

سألتهُ: هل ابي على قيد الحياة؟

وضع احدى يداهُ على سِلاحهُ ودفعني بالأخرى ...

اجابني وهو نَفور: ومن يكون اباك؟

معهُ الحق، ثيابي الرثة توحي لناظريّ بأني ابي ادنى من ان يكون (حميد الله)، خرج اخي غير الشقيق، نظر لي بأشمئزاز ...

قال: من انت؟

قلت: أنا اخوك، أنا (أمين).

اعتلت ملامحهُ نظرات كرُه ...

قال: ادخُل.

دخلتُ الى الدار، كان على كُل جِدارٍ فيه وجهٍ عبوس، وكأنهُ قبراً بإنارةٍ وستائر فضية، تلفتُ في كل الاتجاهات لأبحث عن (امي) فلم اجدها، طلب مني ان انتظرهُ في غُرفة الضيوف، بعدها جاء لأخذي الى غرفة ابي، دخلت وجِلاً من أن اراهُ وبيده السوط، دخلت وأنا اضمر القليل من الغِبطة لأنني وجدتهُ بعد كُل هذه السنوات على قيد الحياة، عانقني عناق ابٍ صادقٍ في عَطفه، كان سعيداً لرؤيتي سالماً بعد كُل تلك السنوات، كان يظن بأنني مُت في تلك الاحداث، شَكّل هُروبي من المنزل احداثاً لم تكُن في الحُسبان، جلست بالقرب منه فطلب ابي من اخي ان يتركنا بفردنا، نظر لي اخي نظرة بذات الكراهية ثم خرج.

قال ابي: كيف اتيت من (باكستان) الى هنا؟ من كان برفقتك؟ وأين كُنت ....

قاطعتهُ من دون أن انظر الى وجهه، قلت: أين امي؟

قال: رحلت.

قلت: الى اين؟

قال: عادت الى (قندهار) بعد استشهاد اخيك.

نظرتُ إليه مُندهشاً فوجدتُ دمعةً صادقةً بصدقِ عناقهِ تنزل على لحيتهِ، حدثني عمّا فاتني من احداث، او بالأحرى عمّا تسبب بهِ هُروبي الذي استغلهُ ابي للخلاص من مناوئيه بعد ان اتهم كُل من كان يوازيه السُلطة ويتقاطع معهُ في الأفكار بخطفي، انتقم ابي من الأشخاص الذين كان يُبادلهُم الكُره والحقد والصراع على السُلطة خلال حربهم مع القوات المُحتلة، أدى ذلك الى اتساع نفوذه، ولكن مع انتهاء الحرب انفجرت قنبلة موضوعة على جانب طريق كانت تستهدف مسير القوات الروسية وهي تلوذ بالفرار أدت الى وفاة اخي وهو مُتنقلاً بين اطراف (كابل)، قبض أصابع يدهُ اليُسرى على بعضها ورفعها غاضباً وقال لي بأن انتقامه كان ليحرق أراضي (كابل) بأكملها لو كانت بفعلِ فاعل.

سألني عن تلك السنوات، كيف قضيتها، كيف عِشتُ بها، اخبرتهُ بأنني كنتُ أعمل مُزارعاً في احدى الحقول وارعى الحيوانات، اعمل عند الصباح في الحقل وأتقاضى مبلغاً قليلاً لقاء خدماتي المُقدمة لأن صاحب الحقل كان يمنحني الطعام وحق المَسكن، قرأتُ في ملامح وجههُ عدم القناعة، ولكنهُ تغاضى، حزنت لفراق اخي الشقيق، تركتهُ وهو لا يزال في عُمر الصبا، كَبُر والتحق بالموت، رحلت أمي بسبب تلك الحادثة، اخبرني بأنها حزنت على فُراقي كثيراً، طوال تلك السنوات وهم يظنون بأنني خُطِفت من منزل ابي في (بيشاور) بسبب قلة الحرس وكثر تنقلهم بين (بيشاور) و(كابل)، عجبتُ لهذا

السيناريو، هل أنا تسببتُ به ام اختلقهُ ابي للخلاص من مناوئيه؟ خفت اسأله لئلا يسألُني لما هربت منه؟ هو على علِمٍ كامل بأسباب هُروبي، ولو سألني، لحدثتهُ عن السوط الذي جلدني به.

يسألني قريني: هل اشتقت لتلك الحياة بعدما هربتُ منها؟

سألتهُ عن أسباب الظلام الذي يتكرر فلم يجبني بشيء، ادعى عدم وجودهُ، وأنها مُجرد أوهام تعبثُ بي، اردت ان أقول لهُ ان ليس هُنالك عبثاً بقدر ما اعيشهُ الان، تارةً أنا ميت وتارةً أنا على قيد الحياة، اسمو بذكرياتي فأهيم أملاً لأعود الى الدُنيا واعلم ما اقترفتهُ وتسببت به لكي أُبعثُ بهذه السلاسل، فجأة أرى نفسي هُنا دون أي سببٍ يُفسرُ لي كيف أنا مُت، لم اشتاق لتلك الأيام، أنا لم املك ملاذاً آمناً سواها، الدُنيا من حولي نار تستعر ومُستقبلي باتَ كأنفاس عجوزٍ تحتضر، لم اكنُ اعلم بأن هُنالك سجناً اخراً بانتظاري، طلب مني ابي بأن لا اخرج من المنزل خوفاً لئلا يراني احداً من اتباعه او احد اعداءه فيُنكشف كذبه وخداعه أمام من اتهمهم بخطفي وقتلي، لم اكن اعلم بأنني كنتُ خارجاً من سجنٍ لآتي لسجنٍ اخر.

وقتما تنام وأنت مُنكسر، فأنك من المحتَمل ان تستيقظ بوجهٍ غير وجهك، الانكسار يجعلك خالياً من القيم، تُصبحُ أنت لست أنت، تُمسي وانت لست أنت، كثيراً ما تُسلبُنا الحياة حق الخيار، الأمر قد يحدث في مُختلف اعمارنا إلا ان نظرتنا إليه قد تختلف، في عمر الشباب قد نَلوي يد الظروف القاهرة التي تطرأ على حياتنا، أما في عمر الكهولة فأننا قد نُصافحها، سرقتُ بُرهةٍ من الزمن ونزلت الى القبو، وجدتهُ خالياً، لم تعد هنالك كُتب او أوراقٍ لعمي، دققتُ في اركان القبو فلم اجده قد تعرض لأي اعمال تخريب، لاحظتُ وللمرة الأولى بأن بعضاً من أرضيته في أحدى الزوايا لازالت تُراب، وجدتُ ذلك الشُباك الذي كُنتُ ادخل منهُ خلسة، ظلَ على شاكلته، لم يُثير انتباه أي احد بأنهُ لا يُغلق بشكلٍ كامل، كنتُ ادخل واخرج من خلالهِ لخارج المنزل

دون ان يشعر بي احداً، عرفتُ بعدها بأن ابي، وحال عودتهِ الى المنزل بعد انتهاء الحرب، قام بإخراج محتويات القبو وإحرقها بنفسه.

مرت ثلاث سنوات من السكينة والعُزلة، بَعدتُ فيها عن ابي، ولكن كانت هذه المرة تحت وصايته، كوخٌ صغير في جبال (الهندكوش)، وسط مزرعة صغيرة تعود مُلكيتها لأبي، ابقى برفقتي (خالد)، كان أحد حُراسه من اجل حمايتي وتوفير احتياجاتي شريطة ان لا اتواجد في أسواق (كابل)، فترةً هادئةً لولا حنيني (لمريم) ومرارة عزف لها، ذات ليلة مليئةً بالنجوم، جمعني هذا الكوخ بها، شيء لم اكن اتوقعه، لقاءً حتى لم أتجرأ على الحلم به، قبلتُها ثُم اتكأت على كتفي وأنا اعزفُ لها.

في تلك الفترة الهادئة اعتدتُ الذهاب الى (كابل) بين الحين والأخر لأرى ابي برفقة (خالد)، رأيتُ (مريم) على الطريق وأنا عائداً (لكابل) ذات مرة، كبُرَت وبرفقتها طفلين صغيرين، طلبتُ من (خالد) التوقف والعودة حيثُ رأيتها لنقّلها برفقتنا، فعلَ ذلك، جلست (مريم) في المقعد الخلفي وبرفقتها طفلين، لم التفت لها، لم اتفوه بكلمة، طلبت من (خالد) ان يسألها عن وجهتها الى اين، ليتمكن من ايصالها حيثُ تريد، وجلتُ من أن اكلمها، خفت ان أقول لها (اشتقتُ لكِ) من دون وعي، كانت تسكُن في حيٍ على اطراف (كابل)، بَقيت نظراتي تتبعُها حيثُ وصلت، عرفتُ أين تسكن، موقفاً كان هديةٌ من القدر، طلبت من (خالد) ألا يخبر ابي بما حدث، فعل ذلك بالفعل، كان مُخلصاً لي، مرت أيام واثبت لي اخلاصه، ذهبتُ لبيتها مرتين او ثلاث، اترقبُها عن بعد، انتظرها لعلها تخرج، لعل القدر يعطف عليّ ببعض دقائق أحدثها فيها، أحدثها عن شوقٍ لم ينضب، لعل الظُلم يستثني بعض الأيام ويجمعني بها، وددتُ أن أقول لها بأنني لازلت أعشقُها.

انفجر الشوق ذات يومٍ قُبيل غروب الشمس فطرقتُ بابها، فتحت لي الباب وحدقت فِي عيني، لم تتعرف عليّ ...

قالت لي: من أنت؟

قلت لها: كيف حالكِ يا (مريم)؟

خرج طفلين من داخل المنزل وتشبثا بها، كَررت سؤالها....

اجبتُها: أنا (أمين).

ظلت تُحدقُ في عيني وأنا غارقاً في ذلك البحر الذي بين اجفانها، نسيتُ انها تزوجت، نسيتُ ان أخاف لئلا يخرج زوجها فيراني معها على الباب، بكت، أهَدرت دمعتان من اغلى الدمع الذي على سطح هذا الكوكب، عيناها اغلى من ان تبكي لأجل بشر، حزنتُ كثيراً لبكاءها وحزنتُ اكثر حين رأيتُها تعيش بمستوى غير المُستوى التي اعتدتُ أن أراها عليه، رأيتُها مُتعبة، متعبةٌ بذلك التعب الذي يتسبب بهِ الفُقر، أنا اعرفهُ جيداً.

تغير حالها خلال الحرب، توفيّ والداها سوياً اثر قصف منزلهُما بقنبلةٍ، تدهور دخّل زوجها بسبب الحرب، بعد ان كان يملك شهادةً عُليا في العلوم اصبح يعمل ناقلاً للمحاصيل الزراعية بين القُرى، اجبرهم الفقر على أن يسكنوا خارج المدينة.

رؤية عينيها بعد اشتياق كان هولاً من اهوال يوم القيامة، تزعزع كُل غضبٍ بداخلي وتحول الى حُبٍ يُضاف الى حبي القديم لها، ظننتُ بأنني سأراها بوجهٍ عبوس، إلا أن ذلك لم يحدث، عرفتُ وقتها بأن الحُب الأول لأي امرأة هو شريانُها الابهر، لن تتمكن من استئصاله ما دام قلبُها ينبُض، عُدنا وعاد الزمن الجميل بنا الى ما قد مضى، عُدنا بلقاءٍ اخر على سفح الجبل، تحدثنا عمّا مر بنا وعمّا مررنا به، كان كُل شيء من دونها يختلف، التقيتُها فأصبح لون السماء اغمق، وشكل البحار اعمق، التقيتُها فاكتشفتُ أن الأرض واقفةً، لولا وجودها لما حدث التوقيت،

هي دقات القلب ودقات الساعة، هي الضياء لو حل الصباح، هي النسمات العذبة في أناء الليل، هي مُجمل النجوم لو ابتسمت، هي الحُب لو تطرقنا للحديث عنه، هي عُصارة انوثة ما على الأرض من نساء، هي صفوة الجمال وخُلاصته في كُل ما قد خُلِق من قبلها ومن بعدها.

يقول قريني: وما الفائدة من لقاءها؟

رفعتُ رأسي ونظرتُ له، ايقنتُ بأنهُ لم يُجرب الحُب اطلاقاً، هذا سؤال لا يُوجه لعاشقٍ سيء الحظ، يسألني وأنا اتوق لطيفها لأكثر من عقدٍ كامل.

اسيرُ وأنا احتضن الذكرى بكلتا يديّ، اجر خلفي السلاسل، سرت بخطواتٍ لأصل الى بركة الماء واجلس بقربها، وكأنني أُخبئ (مريم) عنه، اتذكرُها ولا اريد من يُقاطعُني، التقينا ثلاث مرات، مرة على سفح الجبل، ومرة في ذلك الطريق الذي شهِدَ فرُاقُنا، ومرة في منزلي الصغير.

سرتُ معها في طريق الأمس، هي من طلبت ذلك، اصطحبت ثيابها عِطراً قديم حمل بقايا الأمس، أعاد ذكِرى شِفاهٍ حمراء، سرنا و ثيابنُا مُتبادلة، ارتدت هي الزي الإسلامي وأنا خلعته، تغيرنا عمّا مضى، بات الامر ضادّ لما كان، أصبحت (مريم) ترتدي الزي المعمول بهِ بحسب شهواتُنا التي لا يُمكن كبتُها، ترتدي العباءة حالها حال بقية النساء لئلا يتم رجمها بالحجارة، أصبحتُ ارتدي أنا ما اشاء، فأنا مُختفي عن الأنظار ولا يكترث لوجودي احد.

سرنا في ذلك الطريق بخوفٍ شديد، سرنا لدقائقٍ نستذكُر فيها ما فاتنا من حُب، وقفنا وكأن الأرض انقلبت على عاقبيها، كنتُ التقي بها وأنا افرض عليها ثياباً لا تُعجبُها، كانت تراني لأجل ما اضمر، عرفت كُل ذلك وأنا انظُر بعينيها، ادققُ انظر بمفاتن جسدها الذي لا يزال قوامهُ، أتلذذ بجسدها برُغم ما يلوذ بهِ من سواد.

جالساً بقرب بُركة الماء احدثُ (قريني) عمّا تمتلكهُ (مريم) من مفاتنٍ تأسر نظر اشد المؤمنين إلتزاماً، كيف حافظت على جمالها وقوامِها طيلة تلك السنوات، لم تُغير تلك السنين من مفاتنها شيء، استبدلت بريق عينيها بالحُزن فقط، انظر في بُركة الماء فلا أرى وجهي، انتابني الفزع، نظرتُ بأتجاه (قريني) ..

سألته: لمَ لا أرى وجهي؟

اجابني: لأنك روح، والروح لا انعكاس لها.

قلت: لكنني رأيتهُ مُسبقاً؟

قال: غير صحيح، خِيل لك ذلك.

سألتهُ: اين دُفن جسدي؟

قال: لا اعلم.

قلت: هل هُناك عذاباً في القبر؟ هل الجسد يحيى بعد الدفن؟

قال: لا اعلم، هل تؤمن أنت بعذاب القبر؟

قلت: في السابق كُنت لا أؤمن بعذاب القبر، أما الان فأنا على يقين تام بأن لا وجود له؟

قال: كيف لا تؤمن بوجود عذابٍ للقبر؟

قلت: حين تمعنا الآية: {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا}[93] نفهم انها جاءت على لسان المتوفون وهم راقدون، والرقود يعني الهدوء والسكينة، او بالأحرى هو السُبات الذي لا يشوبهُ شعور، إذاً ليس هُنالك عذاب وفترة المكوث في القبر هي فترةً معدومة الزمن، أما في الفقه فقالوا في تفسير هذه الاية ان هذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد[94]

[93] القرآن/ سورة يس/52

[94] انظر: كتاب (تفسير القرآن) لأبن كثير/ الجزء السادس/ الصفحة581

كما قالوا عن لسان أولئك المُتوفين انهم ظنوا ذلك لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياما[95] ولكن حين بحثتُ اكثر وجدتُ عدة دلالاتٍ تؤكد خُرافة (عذاب القبر) فضلاً عن ان القرآن لم يذكرها لا من قريب ولا من بعيد وإنما هي تأويلاً من فقهاء الفقه، اقف عند الآية: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَت}[96] فأجد التسلسل الزمني (تنفطر السماء، تنتثر الكواكب، تتفجر البحور لتتبعثر القبور ومن ثم تعرف كُل نفسٍ ما قدمت وأخرت) اجد بأن ليس هنالك ثمة إشارةً لعذابٍ في القبر والقرآن ينصُ صراحةً على وجود يوماً مُحدداً لإيفاء الاجر: {وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[97] إذاً ، لا عذاب قبل الحساب.

سألني قريني: لمَ تبرأت من دينك؟

شعرتُ بخوفٍ شديد، هذا ما كنتُ اخبأهُ عنه، لم أود التطرق لتلك الفترة، خائفاً من الإجابة على سؤاله، تلعثمت بحروفٍ غريبة، وأنا في السجن، نكرتُ وجود الله كثيراً ، وقتُها كنتُ اجمع وأقارن ما بجعبتي من دلائل تثبت وجوده فلا اجد، فكرتُ مراراً بتلك الأساطير القديمة التي كانت مصدراً لكلمة (الله)، لطالما ظننتُ بأن فكرة وجود الله مُرتبطةً بفكرة أن القرآن مُعجزةً إلهية، وكأنني اشترطتُ على نفسي حالما اجد ان القرآن من صُنع بشر فأنني سأكُف عن الاعتراف بوجود الله، كانت مرحلة صعبة، إلا أنها أنتهت ولم تدم، كنتُ وقتها لا أنام الليل، قضيت فتراتٍ طويلة في السجن وأنا انام بشكلٍ عشوائي، خفتُ كثيراً وأنا اتهرب من كل الصلاة، أوهم من معي بأنني انجزتُ صلاة الجماعة بعد ان وصلتُ لها مُتأخراً، شهور طوال وأنا افكر في الطبيعة فأجدُها

[95] انظر: كتاب (فتح القدير) للشوكاني/ الجزء الرابع/ الصفحة531

[96] القرآن/ سورة الانفطار/1,2,3,4,5

[97] القرآن/ سورة آل عمران/185

اوهن من ان تتحدى الرب في الخلق، وجدتُ ان فكرة خَلقنا بسبب الطاقة الموجودة في الطبيعة منذُ الانفجار الاعظم فكرة لها ادلةً علمية واضحة، أما فكرة ان ليس لخلقنا غاية فأنها فكرة في مُنتهى السذاجة، ما تحملهُ هذه الدُنيا من صِعاب ومن مشاكل وقتالٍ وحُروبٍ وأفكارٍ ونظرياتٍ وأكاذيبٍ وخُرافاتٍ وحقائقٍ تظهر بأنها زائفةً بعد تطور العلم وأكاذيبٍ تصبح مذاهب واديانٍ وتكوّن وتطور وموت وحياة وظلم وعدل وصراعات وممالك ودول وحضارات تنتهي وتُنشأ، كُل هذا يصبح بعد الموت هباء!! فكرةٌ ساذجةٌ بالفعل.

حيثيات الامتحان الصعب الذي اثبتهُ لنفسي تُنقضُ كلُ فكرة تدّعي بأننا خُلِقنا من العدم لنذهب الى العدم، ما يجدهُ العلُماء من نظرياتٍ تمحي وجود الرب بسبب الطاقة التي تولدت على هذه الأرض هو من خلقها، المُشكلة في الاديان وليس في الرب، وغالباً ما تكون الأديان بحد ذاتها ليست مُشكلة، المُشكلة في شكلها وهي آتيةً إلينا في كل الأزمنة.

لم يشهد أياً منا حادثة نزول الأديان، نتصارع في هذا الكون في أياً منا يتمكن من العودة الى الوراء اكثر ليكتشف الجواب للسؤال الأهم، (كيف بدأ الخلق؟) كلما تطور العلم تظهر لنا نظريات تثبت لنا ما كان عليه ما قبلنا من حيوان ونبات وإنسان وحضارات، العلم يتطور بناءً على كُل تناقض، ولولا التناقض لما توصلنا الى اي تطور، فلو طُبِقت فكرة تطور العلوم على الاديان، أي لو تطورت الاديان كيفما تطورت العلوم لما وصلنا الى هذا الكم الهائل من الجهل، لهذا الكم الهائل من الاختلاف في الرؤى، حتى بات كل دين ينقضُ كل دين جاء قبله او يجيء بعده، كان من الاجدر برجال الدين ان يؤمنوا بتطور الاديان حتى تواكب كُل عصر، لا ان يلتزموا بأحكامٍ انشأتها كُتبٍ بلغ الفرق بين زماننا وزمانها آلاف السنين، الامر لا يطول العبادات هُنا، ولكن، متى ما كان الشأن شأن المُعاملات فالأجدر ان يكون العمل وفق قانون

وضعي، الامتحان صعب، ورجال الدين جعلوه أصعب بآلاف المرات، أن يصل إليك الدين مع العلم الذي بحوزتك لتتبعهم في آن واحد فأن هذا بحد ذاته جُل الصعوبة، الديانات كافة وجدت بهذا الشكل، تأتي إليك بصيغةٍ مُبعثرة وعليك أن ترتبها بحسب قناعتك وتربيتك ومستوى العلم الذي وصل إليه جيلك، لا مجال للتقاعس عن ذلك، ولا مناص عن ذلك ذريعة أنك ولدت على الدين الصحيح.

عانت (الديانة اليهودية) مثلها كمثل بقية الاديان من وجود كتابٍ مُقدس وبرفقته كتاب تفسيرٍ للكتاب المقدس، مُقتبساً لقُدسيتهِ من الكتاب المُقدس بحكم الاثار المتروكة على مسامع مُعتنقي هذا الدين، المُشكلة في إتباعها وطول عدد اتباعها، فاليهود ذاتهم مُختلفين في عدد اليهود في العالم، منهم من يعتنق اليهودية مُؤمناً (بالتوراة) فقط[98] ومنهم من لا يَعتبر اليهودي يهودياً إلا إذا آمن (بالتلمود)[99] بالإضافة الى (التوراة).

في (الديانة المسيحية) الامر سّيان، تُعاني هي الأخرى من كُتبٍ مُقدسةٍ بحكُم قِدمها وانعدام مصدرها، هذه الديانة لا تملك كتاباً ينص صراحةً بأن هُنالك كتاب سماوي مقدس نُزل على نبي دينها، السبب الرئيسي الذي دعاهم لتأسيس (علم الاهوت) والذي كان لهُ الدور الكبير في الحد من القُدسية التي اعُطيت لنصوصٍ اتُبِعَت بحكم جهل المُصلين وحذاقة أساقفة الكنائس، لهذه الديانة الكثير من الاناجيل، الاناجيل الاربعة الأهم جميعها كُتِبت بعد وفاة (المسيح) بعشرات السنين، بعد ان ورد في (سفر

[98] يقصد هنا الاسفار الخمسة التي نزلت على النبي موسى.

[99] التلمود: وهو كتاب دراسة في التوراة يحتوي على نقاشات لحاخامات اليهود حول شريعتهم اليهودية وعلى أعراف وقصص موثقة من التراث اليهودي ويعتبر مصدر أساسي للتشريع، ويتكون من جزئين، (الميشناه משנה Mishnah) وهي النسخة الأولى المكتوبة من الشريعة اليهودية والتي كانت تتناقل شفويا، و(الجمارا גמרא Gemara) وهي شرح او توضيح (للميشناه) هو بالاحرى تعليقات الحُكماء اليهود على ما جاء في (الميشناه).

العهد القديم) بأن المسيح ابن الله وهو من ضحى بجسدهِ على الصليب ليُطّهر اتباعه من الذنب ثم دُفِن وقام بعد دفنهِ بثلاثة أيام[100] اكدت البحوث أن اقدم نص لأسفار العهد الجديد تعود الى القرن الثالث، اي أنها كانت مكتوبة باللغة اليونانية، وأن الاناجيل الأربعة الاهم كُتبت جميعها بعد وفاة (المسيح) دون ان تُشير الى اي مصدر يسبُقها ليُشير بأنهُ نُزّل على النبي بصيغة وحي، كُتب انجيل (مرقس) ما بين الاعوام 60-65م تزامناً مع حُكم (نيرون) الجائر، يُقال بأن المسيحيون الذين كتبوه كانت اصولهم وثنية[101] أما انجيل (لوقا) فأنهُ كُتِب ما بين الاعوام 70-80 م، تزامُناً مع حصار (أورشليم) وتدمير (هيكل سليمان)[102] كما لاحظ الباحثون بأنهُ كان موجه بالتحديد إلى إحدى الشخصيات النبيلة اليونانية التي تدعى (ثاوفيليوس)[103] ومما يثير الانتباه أن هذا الإنجيل هو الوحيد الذي احتوى على مقدمة شأنه شأن كثير من المؤلفات اليونانية في تلك الأيام[104] أما إنجيل (متى) هو الثالث تاريخياً، يُرجح الباحثون بأنهُ كُتب ما بين 80-90م والإنجيل الرابع هو (يوحنا) والذي اختلف عن باقي الاناجيل بكونه لم يهتم بسرد الاحداث[105] قدر اهتمامه للخُطب والصلوات[106]

---

[100] انظر: رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح 15/ الأعداد 1-4: {1 وَأُعَرِّفُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِالإِنْجِيلِ الَّذِي بَشَّرْتُكُمْ بِهِ، وَقَبِلْتُمُوهُ، وَتَقُومُونَ فِيهِ، 2 وَبِهِ أَيْضًا تَخْلُصُونَ، إِنْ كُنْتُمْ تَذْكُرُونَ أَيُّ كَلاَمٍ بَشَّرْتُكُمْ بِهِ. إِلاَّ إِذَا كُنْتُمْ قَدْ آمَنْتُمْ عَبَثًا! 3 فَإِنَّنِي سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي الأَوَّلِ مَا قَبِلْتُهُ أَنَا أَيْضًا: أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الْكُتُبِ، 4 وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ}.

[101] انظر: رسالة بطرس الأولى 5/13

[102] انظر: كتاب (المدخل للعهد الجديد) للقس فهيم عزيز/ دار الثقافة المسيحية/ القاهرة/ الصفحة 339

[103] انظر: إنجيل لوقا 1/3

[104] انظر كتاب (المدخل للعهد الجديد)/ المرجع السابق/ الصفحة 233

[105] انظر: كتاب (المدخل للعهد الجديد)/ المرجع السابق/ الصفحة 255

[106] أنظر: انجيل يوحنا/الفصل 17/ صلاة يسوع الكهنوتية.

الدين الإسلام هو الاخر لهُ كتابهُ المُقدس ولهُ فقهاً يُفسر هذا الكتاب منتحلاً صفة التقديس منه ...

قاطعني قريني: ألم يأتِ دين الإسلام ليكون اخر الأديان، وليكون الناسخ لما قبله وعلى الكل إتباعه؟

أجبته: أجد من بين دلالات الإسلام (التسليم الى الله)، اجد أنبياء وغيرهم كانوا مُسلمين قبل وجود الإسلام[107] مقابل ذلك، يستدل فقهاؤنا بأن الدين الإسلام، الذي ولدوا هم ونحن عليه هو الذي على صواب ولا دين غيره، بدلالة الآيتين: {إن الدين عند الله الإسلام}[108] و{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[109] دون ان يفكروا قليلاً بمعنى كلمة (الإسلام) الوارد في القرآن وكيف لأنبياءٍ جاءوا قبل آلاف السنين ان يتبعوا ديناً هم ينشئون معالمهِ كل يومٍ بصيغةٍ تُلبي مُشتهيات الحاكم في كُل زمانٍ ومكان يعيشون فيه.

أرى أصل الإسلام في الآية: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[110] الأصل في العامل المُشترك بين هذه الأديان، الأصل هو الإيمان بالله واليوم الاخر والعمل الصالح، الأصل في أوامرٍ يأمر بها الله موجهةً الى الكُل في كُل زمانٍ ومكان، قال (الذين امنوا) ليُشير الى

---

[107] انظر: قول النبي سليمان: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} القرآن/سورة النمل/30 - وقول النبي ابراهيم: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} القرآن/سورة البقرة/131 - وقول النبي (يوسف): {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} القرآن/سورة يوسف/101 - وقول الجن: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ} القرآن/سورة آل عمران/52 - وقول الحواريون:{نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}القرآن/سورة آل عمران/52

[108] القرآن/ آل عمران/19

[109] القرآن/ آل عمران/85

[110] القرآن/ سورة البقرة/62

اتباع دين النبي (مُحمد)، و(الذين هادوا) ليُشير الى مُعتنقي الديانة المسيحية اتباع النبي (موسى)، و(النصارى) ليُشير الى مُعتنقي الديانة المسيحية اتباع النبي (عيسى) نسبةً الى مكان ولادتهِ الذي تشير إليه كتب تاريخ في مدينة (ناصرة) في (فلسطين)، وأخيراً يُشير الى (الصابئين) وسُميّ بهذا الاسم كُل من (صبأ) (بحسب اللغة العربية) عن الديانات التي نزلت بعد دينه، أي لم يعتنقها، يُطمئنهم الرب في القُرآن من أي خوف دون ان يجيز قتلهم أن لم يعتنقوا (دين الإسلام)، نجد أن دين الإسلام كالديانات الأخرى هرماً يعلوه الاعتراف والإيمان بوجود الله واليوم الاخر والالتزام بالعمل الصالح، وتتسلسل بعده تعاليم الاديان البقية كلاً بحسب زمانه ومكانه، بحسب ما نولد عليه من دين ومذهب، بحسب الحروب والنزاعات في زماننا ومكاننا، بحسب شاكلة الحاكم ونسبة مخافتهِ من الله، التسليم الى الله هو الإسلام، الاعتراف بوجوده واليوم الاخر هو الإسلام، الفتوحات والجواري والإماء وتعدد الزوجات وغنائم الحرب والسبي ومُفاخذة الأطفال ليست الإسلام، الإسلام هو جزء من منظومة الأديان التي نُزلت، جزء من الأديان التي لحقنا بإقتناء آثارها لنشهد تطورها ومواكبتُها والأديان التي لم نشهد لها شيء لاندثارها.

يسألني قريني: وهل الأديان تندثر؟

اجبته: أنا أؤمن بأندثار الأديان، هُنالك أدياناً اندثرت لعدم استمرار اعتناقها أو لسُخط الحُكام عليها، في كُل زمانٍ كان هُنالك دين، لا أؤمن بأن هُنالك أناس ولدوا وماتوا دون أن يشهدوا ديناً مُعيناً، كل الاقوام السابقة شهدت عدة مُبشرين وانبياء وأديان بيد أن الوضع السياسي كان المؤثر الأكبر لبقاء هذه الأديان وديمومتها، مؤمناً أنا بأن (الله) أشار في كُل كتابٍ سماوي أو في كل كتابٍ افقدناهُ نحنُ صفتهِ السماوية بأن هُنالك وجوداً لخالقٍ عظيم أدت أرادتهُ لنشأة هذا الكون ونشأة كل ما يحتويه، الكُل

يُمتحن ليُحاسب بعد موته، لم نُخلق للعدم لنعيش في عبث وثم نموت فنُنسى، الحاكم والوضع السياسي الذي طرأ على كُل دين كان كفيلاً لأن يبقيه (دين) او لأن يفقدهُ قيمتهِ السماوية ويجعلهُ يندثر وألا يتبق منه سوى الاثار، ولكن، يبقى الرب واحد وما يُريدهُ منا مُحدد، البعَثُ واحد والموت واحد والحياةُ لمرة واحدة فقط، هنالك حساب، هنالك بعث، هنالك قيامة وخلود إلا ان الأديان بهيئتها التي وصلت بهِا إلينا كانت أضعف من أن تَصِفها.

يقول قريني: كيف لدينٍ أن يندثر؟ لم يندثر أي دين من قبل، الى الان توجد الديانة اليهودية والمسيحية ودين الإسلام وستستمر، لم يندثر أي دينٍ من قبل.

اجبته: الأديان التي شهدتها البشرية كثيرة، المُندثر منها لم نتعرف عليه ولم نرى منهِ سوى الاثار، ولو استمر البعض بأعتناقها وحملوا كتاباً يؤمنوا بأنهُ سماوي لدامت الى هذا اليوم، لكُنا من مُعتنقيها لو ولدنا ونشأنا عليها، اشتراك الأديان فيما بينها وأوجهُ التشابه بين عباداتها وأركان الإيمان بها يُثبت أن الأديان بُعثِت بمشيئة واحدة وغاية واحدة، تسلسلها وتواتر هدفها ما هو إلا دليل على ذلك، ولكن رجال كُل دين ذهبوا الى تكفير بعضهُم البعض بدل التفكير من الغاية الواحدة التي تجمعهم والتي تُمثل فحوى عبادتهُم لربٍ واحد سوياً على مر كُل هذه الازمان.

أنظر الى الديانة (الصابئة) ستجدها رغُم تاريخ وجودها الذي يرجع الى آلاف السنين قبل الميلاد تلتقي مع الدين الإسلامي بأن لها إله واحد لا شريك له وهو (الله) ولهُ (أسماء حُسنى) لهم وضوء وصلاة وصيام وزكاة وصدقة[111] لها هي الاخرى كتاب اثري

[111] تشير المصادر التاريخية بأن الديانة الصابئية تعود الى النبي (أدم) والتي اورثها من بعده الى ابنه (شيت) ثم (ادريس) ثم (نوح) ثم (سام بن نوح) ثم الى (يحيى بن زكريا)، كما تشير الى أن اصل تسميتهم بـ(صبا) أي اصطبغ أو غَطس رأسهُ بالماء (بحسب اللغة الارامية) وغطس الرأس بالماء هو احد طقوسهم.

من دون مصدر، يسمى (كنزاربا) أو (الكنز العظيم) وجد بعد مئتيّ عام بعد الميلاد، يدّعي اتباع هذه الديانة بأن هذا الكتاب مُنزل على نبيهم، تلتقي هذه الديانة مع بقية الديانات، (الابراهيمية) تحديداً، في تحريم الخمر والفسق والكذب ومُعاشرة ازواج الغير والتصنت من خلف الابواب وتحرم الحسد والتفرقة ونشر الشر وإتباع الباطل وتحرم عبادة الشيطان، كما تُشير الى وجود يوم قيامة وحساب وبَعث للأجساد لتُحاسب، وهنالك خلوداً في الجنة وهنالك خلوداً في النار، هذه الديانة كغيرها من الديانات كانت خاضعة للوضع السياسي ابان وقت انتشارها في ارض (العراق) وتحديداً في مدينة (بابل)، اضطهادها من قبل الفرس الساسانيين[112] ادى الى قلة عدد مُعتنقيها، كان الامر جيد في زمن حُكم (الملك ادشير) الذي رضى على هذه الديانة وجعلها تُعتَنق وتنتشر، إلا أن الامر لم يدم مع مجيء الملك (بهرام الأول) عام 273م الذي رضى على (الديانة الزرادشتية) فقط، فأضطهد بالمُقابل (الصابئين)، اضطهد ايضاً الديانة (المانية) المُنتشرة وقتها بعد ان قام بإعدام (ماني) مؤسس هذه الديانة بتحريضٍ من الكاهن الزرادشتي الأعظم (كاردير) واضطهد ايضاً الديانة (الهندوسية) المُعتنقَة آنذاك، على مر الازمان، تتضح لنا تسلسل فكرة توحيد إله واحد وهو (الله) في كل هذه الاديان، جميعها اشارت لفكرة وجود خالق واحد ولهُ التعّبُد، جميعها تسمو بالروح وتُشير الى خلودها، جميعها تحثُ على الحق وتنبذ الشر، تُشير الديانة الزرادشتية هي الأخرى على وجود عِقاب وعذاب في الاخرة وتنبذ سبع رذائل وهي النفاق والخديعة والخيانة والجُبن والبُخل والظلم وإزهاق الروح، فيها (5) صلوات[113] (الزرادشتية)

[112] الإمبراطورية الساسانية أو الإمبراطورية الفارسية الثانية (226 – 651 م) ويرجع تسمية الساسانيين بهذا الاسم الى الكاهن الزرادشتي (ساسان)

[113] الصلوات في الديانة الزرادشتية: صلاة الصبح (كاه هاون) وصلاة الظهر (كاه رقون) وصلاة العصر(كاه أزير) وصلاة الليل (كاه عيون سرتيرد) وصلاة الفجر (كاه اشهن).

اول ديانة اشارت الى وجود نساء جميلات في الجنة تُسمى (الحور).

(الهندوسية) ايضاً تؤمن بوجود الله، تصفهُ بالمقتدر وقدراته نصَ عليها في (الفيدا) احدى كُتب تراثها، ومن طقوسها (الحَج) فهو يحدث (4) مرات في كل (12) سنة ويتنقل بين أربعة مواقع ولمرة واحدة كل (12) سنة في مدينة (الله آباد) في ولاية (أوتار براديش) في شمال الهند.

الديانة (المانوية) تُشير الى التوحيد ايضاً، تعتمد على عقيدة الخلاص (الفداء)، وأداة الخلاص هي (غنوص Gnose) والتي تنص على ان الخلاص من الجهل هو بالمعرفة، فلذلك هو بحاجة للمخلص والذي سُمى (يسوع)، تُشير الى أن الجسد ورغباته شر، لأنهما يمنعان الروح من الخلاص، تشجع المانوية على الزهد والرهبنة، (المانوية) الديانة الأكثر شبهاً (للمسيحية).

تتضح لنا معالم تأثر هذه الأديان بالحاكم السياسي ابان وقت انبثاقها، حين نرى رضى الملك (بهرام الاول) كيف أدى الى ازدهار الزرادشتية في ذلك الوقت، كما أن لمؤرخ تراثهم (كاردير) الفضل الكبير في ديمومتها، بعد ان أرخَ نصوصهم والتي أدت الى ترجمة ديانتهم وتطورها مع تطور اللغات[114] أما الديانة الصابئة، فالفضل يعود في ديمومتها الى (زازاي) مؤرخ تراثهم الديني، كما يعود الفضل الى عمل الصابئين وقت حُكم (الساسانيين) ككتبة ونُساخ أهتموا باللغات وأصبحوا همزة الوصل بين الاقوام العربية والآرامية وبين الفرس الساسانيين، من ثم نالوا استحسان الجيوش اليونانية التي غزت (العراق) لتتخذ من مدينة (بابل)

[114] بعد أن كان (الزرادشتيون) يتحدثون اللغة (الافستية) وهي لغة ذات صلات وثيقة (بالسنسكريتية) اصبحوا يستعملون في العموم لغة داري (مختلفة عن الداري الأفغانية)، وفي الهند يتحدثون اللغة (الغوجراتية) اما في (سوريا) و(تركيا) و(أرمينيا) و(كردستان العراق) فأنهم يتكلمون اللغة (الكردية).

عاصمة لها تحت قيادة (الاسكندر المقدوني)، فقاموا بترجمة اساطير وعلوم بابل إلى لغة الأغريق، لنشهد بالمُقابل انحسار الديانة (المانوية) وقلة اتباعها لعدم توثيقها، على العكس من (الديانة الهندوسية)، فهي اليوم ثالث اكبر ديانة في العالم بعد الديانة المسيحية ودين الإسلام، لقبولها في (الهند) ورضى الحُكام لها على مر تاريخ دولة (الهند).

يقول قريني: الديانة البوذية هي الاخُرى كتب لها الخلود، في (أفغانستان) لهم معابد وتماثيل عملاقة؟

أجبته: نعم بالفعل، إلا أنني أرى الديانة البوذية ديانةً غريبةً، أناس يتبعون شخصاً ولد ما بين القرن السادس والرابع قبل الميلاد دون أي دليل لوجوده امر عجيب، ليست هُنالك اي ادلة او اثار لوجود (بوذا)[115] إلا أنهُ يملكُ ما يكفيه ليكون نظيراً للأديان المُتبعة في الوقت الحالي، أتساءل دائماً، لمَ لم يكن بوذا ليس نبياً؟ ما الذي ينقُصهُ ليدّعي النُبوة؟

يقول قريني: لعل عدم وجود كتاباً مُقدساً في هذه الديانة كان السبب.

---

[115] ورد في المصادر التاريخية بأن (بوذا) ولد سنة 568 ق.م. **(**انظر: كتاب بوذا الأكبر للدكتور حامد عبد القادر/ الصفحة 40**)** وقال اخرون سنة 563 ق.م. (انظر: كتاب أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم للدكتور هنري توماس) ويقول البعض الاخر ان ولادتهُ كانت في (سندهارتا) عام 563 ق.م. (شاهد حياة بوذا فيلم الوثائقي نُشر على موقع YOUTUBE في 2013/3/31) ويُذكر بأنهُ كان من أسرة نبيلة، كان أبوه ملكا صغيراً في تلك البلاد، تربى بوذا في الرفاهية، كان يعيش كما يعيش أبناء الملوك في نعيم عظيم، توفيت أمه (مايا) وهو في السابعة من عمره فربته عمته، تزوج صغيراً وحين بلغ السادسة والعشرين، هجر زوجته مُتجهاً إلى الزهد والتقشف والتأمل في هذا الكون، انتهج نهجاً خاصاً يتخلص الإنسان به من آلامه، دعا الكثير من الناس لنهجه هذا بعد تركه للقصر الملكي وهو في سن 29، عاش لمدة ست سنوات بلا مأوى ومات وهو في الثمانين من عمره (انظر: كتاب أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي/ الصفحة 142) هذه روايات لما قبل بداية التاريخ الميلادي بكثير إلا أنها لا تزال تُروى الى الان.

اجبته: لعله كذلك، الغريب ان الكثيرين أشاروا الى ان (بوذا) ليس اسم شخص، او أسم علم وإنما هو دلالة على الحكيم أو المستنير أو ذو البصيرةً نافذة، تُشير الاساطير الهندية الى أن وجود هذه الديانة احدث حرباً اشعل فتيلها الإمبراطور الهندي (أشوكا) تسببت وقتها بمقتل اكثر من (100000) شخص، بعدها آمن هذا الامبراطور بالديانة البوذية وصدق من يدّعي بها ورحبَ بنشرها ليعلن اعتناقها من قبل الامبراطورية بكامل ساكنيها، كانت هذه الحادثة السبب الرئيسي والاهم لانتشارها بقوة في وفترة زمنية قياسية، تأثرت نشأة الديانة البوذية، كباقي الأديان، بالوضع السياسي الراهن آنذاك، فلولا رضى الامبراطور لما انتشرت، ولو قُتِل مُعتنقي هذه الديانة بالكامل في تلك الحرب لما كان لها وجود او ذكِرٍ في وقتنا الحاضر، اكد الباحثون بأن هنالك (6) أشخاص على الاقل قد سبقوا (بوذا) بذات الديانة وظهروا بذات الشكل وبذات القصة، وتُشير الاساطير البوذية الى ظهور شخص يدعى (مايتريا) في اخر الزمان[116] الامر الذي قد تسبب بديمومتها بالإضافة الى رضى الحُكام لها، في الوقت الذي أشار فيه كثيرون الى أن شخصية (بوذا) لا تتعدى أن تكون شخصية خيالية لا وجود لها، اخترعتها القصص والاساطير القديمة.[117] عبادة (الشيطان)، هي الاخرى وجدت منذُ قديم الزمان إلا انها لم تدوم لعدم رضى الحُكام وعامة الناس لها، فذكر (الشيطان) في الغالب امراً منبوذ والدليل أن الـ ....

قاطعني قريني قائلاً: لم أعلم بأن هُنالك عبادةً للشيطان!!

أجبته بهدوء: أليس من المفروض أنك مَلَك وتعلم كُل شيء؟

اجابني: لم اخبرك بأنني ملكَ، أنا لستُ من الأُنس ولا من الجن.

---

[116] انظر: كتاب الموسوعة العربية العالمية/الصفحة 224

[117] انظر: كتاب (مقارنات بين الأديان/الديانات القديمة) لمحمد أبو زهرة/ الصفحة 99

سألته: من أنت إذاً؟

قال بصوتٍ ضَجِر: أكمل حديثك.

توقفتُ عن السير، جمعت السلاسل بقربي وعُدتُ اجلس مُتكئاً على الشجرة ...

قلت: عبادة الشيطان موجودةً قبل وجود الإسلام، ودليل وجودها جاء في القرآن، بقول النبي (ابراهيم) لأبيه: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ}[118] حتى الإلحاد ليس وليد اليوم، فهو فِكراً تبناهُ كثيرون ممن كانوا يؤمنوا بقوانين الدهر، أي الطبيعة، يدّعون بأنها هي من أنشأتهم و إليها مردهم، مع نفيهُم لفكرة وجود خالقٍ يُعزى إليه وجود الكون والخلق، كان اسمهم (الدهريين) وقد ذكرهم القرآن بقوله: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[119] تشترك جميع الديانات التي حدثتُك عنها بحقيقة واحدة لا مناص للتغاضي عنها، أصل جميعهُن اساطير وكُتُبٍ وجدت كتُراث وتم تصديق ما تحتويه واعتناقه بحسب انتشارها جُغرافياً، اعتناق الاديان ليس بالشيء الهين، هنيئاً لمن كان غافلاً عن نشأة دينه.

يسألني قريني: لم تبرأتَ من كُل افكارك هذه ورجعت الى التشدد؟

التزمت الصمت، انحنى رأسي وأنا اسير باحثاً عن شعورٍ اخر غير الندم ليُعبر عمّا في داخلي، لا املك ما اقول، كثرة البحث أحياناً تجعلك في طريقٍ مُظلم لتكون على يقينٍ تامٍ بأنك تائه.

يقول قريني: (أمين) لمَ تغيرت بعد وفاة أبيك؟ لمَ اشتركت في الحرب؟

---

[118] القرآن/ سورة مريم/44

[119] القرآن/ سورة الجاثية/24

اسمع صوت رعد هائل، اصطبغت السماء باللون الأحمر، وكأن شيئاً ما قادم، وكأن السماء تكاد تنفجر من الغيظ، ظننتُ بأن الجو الماطر هُنا يكون كذلك، استمر صوت الرعد حتى بتُ لا اسمع قريني ولا يسمعُني، خائفٌ جداً، أصرخ ولا يُسمعُ لي صوت، اختبأتُ خلف الشجرة لأحتمي تحت أغصانها مما ستُنزِل بهِ السماء، جلستُ القُرفصاء أضع كلتا يدي على آذاني خشية صوت الرعد، وضعتُ رأسي بين قدميّ وجاهدت لئن أبكي ولم أتمكن، أنا خائف، عادت بي الذكريات الى ذلك اليوم الذي جلست بهِ أمام ابي وهو يلتقط انفاسهُ الأخيرة، بعد ان ابدى رضاهُ عليّ طيلة الفترة التي قضيتها في الكوخ، ثلاثة أعوام او اكثر ونحن لا نرى بعضنا إلا في مراتٍ تُعَد على أصابع اليد، نتبادل السلام فقط، لم نعد نتطرق لتلك المواضيع التي كُنا نختلف فيها، ابدى رضاه بعد ان خضعت لسجنهِ في ذلك الكوخ النائي بكل ود بُغية ان تفلح مصالحه الدنيوية والاخروية.

دخلت لغرفته، كان على فراش الموت، شاحب الوجه، تلونت شفتاهُ بلونٍ غامق، حدثني بصوتٍ غليظ ...

قال: كم تمنيت أن اموت وأنا مُطمئناً على عائلتي وأسمي، اخذت مني هذه الطُمأنينة.

جلستُ بقربه، أنظر له نظرةً لا تُشير لشيء، ساكناً لدرجة أني لا أبالي بأن هذه اخر أنفاساً له في تلك الحياة.

أستأنف حديثهُ بصعوبة قائلاً: تمنيت أن تكون أنت وريثي وليس أخاك، جعلتني اعتمد عليه وهو يتبعني لاهثاً، اردتُ ان يكون خليفتي فقيهاً مثلك، ذكي، يفقه ما يقول، قوي الشكيمة، قوي الحُجة، مُطلعاً على ما لا يُعنيه قبل ما يُعنيه، اخاك ليس بشجاعتك، بعد قليل ستنظر على باحة الدار من نافذة الغرفة، سترى آلاف البشر يتمنوا لو أعيش اكثر، يتمنوا لو أن احداً منهم يستطيع ان يُقدم لي ما تبقى من عُمره، اغلبهم على اهب

الاستعداد لأن يضحوا من أجلي بأغلى ما يملكوا، جميعهم كانوا خلال سنين الحرب درعاً يُحيط بصدري لئلا يُصيبني مكروه، استشهد بعضهم وهو يحميني، لا يعلموا بأن أولادي طائشون، احدهم لم يطع اوامري وتحرك من دون علمي في الحرب ظناً بأنهُ شُجاع حتى لقي حتفه، وأخر يظن أن رجُل الدين هو الأقوى بحمل السلاح دون أن اراهُ ولو لبرهة يمسك كتاب ليفقه من دينه شيء، ويُطالب مني الآن ان اعلنهُ خليفةً لي، وأخراً هرب وتركني لأكثر من ثلاثة عشر عام ليحدُث بسببه ما حدث.

أمسك بيدي، يده باردةً كقُطعة ثلج، وبصوتٍ اكثر غلاظة...

قال: ستعلم بعد حين، أن للجهل عِدةَ نِعَم.

سَعَلَ قليلاً، أخذ شهيقاً عميقاً ولم يُخرجه من صدره، نظر الى احدى زوايا الغُرفة، ثم عادَ لينظرَ لي دون ان ترمش عيناه.

أجلسُ مُتكاتف الايدي، أنتظرتهُ ليواصل حديثه، أنصَتُ لهُ وهو ساكناً جداً، لم يتفوه بشيء بعد تلك النظرة، كما لم يُمت قرير العَين، آثر بي أحتضاره، حزنتُ على فُراقهُ بعد أن قضيتُ عُمري ابغض النظر لوجهه، كان موقفاً مُروعاً، الموت لهُ رهبةً مهما كان شكله هادئاً.

ظهرتُ الى الناس خلال جنازة ابي، رحب بي صغيرهم وكبيرهم وهم يتذكروا الفترة التي كُنت اذهب بها الى القرية لألقي خُطبة الجمعة، عرفتُ وقتها بأن اخي الأصغر لم يتقن القاء أي خُطبة ولا حتى إلقاء نصيحةً صغيرةً لتجمعٍ بسيط في المسجد بعد صلاة المغرب، كشفتُ كذبتهِ التي اختلقها في الدقائق التي دخلتُ بها المنزل بعد عودتي من (باكستان)، أكتشفت خلال جنازتهِ بأنهُ كذب عليّ بشأن ظنهُ بهربي من منزله في (بيشاور) بأنني كُنت مُختَطفاً من احد اعداءه، لم يكُن لذلك وجود، أختلق أبي هذه الكذبة لأعيش بمعزلٍ عنه، ظننتُ أنه قد فكر في عارٍ قد يلحقُ بأسمه وسمعته لو ظهرت برفقته مُجدداً، وما أن انتهت

جنازته وسألت وجوه الناس عمّا حصل في السنين الماضية فأكتشفت انهُ كذب عليّ، أراد عزلي عن حربه التي خاضها، وعن تلك الحرب التي كان يُحشدُ لها.

اشتدت النزاعات الداخلية بعد وفاة ابي، توهج الصراع على السُلطة، اضمحلت تزامُناً مع هذه الصراعات قوة حكومة (محمد نجيب الله) حتى بات المُسيطر على الشارع مليشياتٍ بإنتماءاتٍ دينية، كانت قوة وتسليح الأقطاب المُتنازعة من رجال الدين اقوى من الحكومة بكثير، حاول (محمد نجيب الله) جاهداً لأن يُرضي هذه الأقطاب بعد فشل مُحاولات المُصالحة بينهم، أراد مُشاركتهم في الحُكم حتى لا تكون القيادة (دكتاتورية) من قُطبٍ واحدٍ من هذه الأقطاب، وإلا تكون البقية مُتنازعة فيما بينها لتكون مُعارضة للقُطب الحاكم، كانت نواياهُ تغفل حُب السُلطة من قِبل المُتدينين، وتغفلُ ايضاً لعنة غنائم الحرب عند تقاسُمها، كانت المُعضلة الكُبرى هي أن كُل من هذه الأقطاب تدعي احقيتها في تولي السُلطة بعد أن وسوست بإذنها دولةً من دول الجوار التي كانت تُمولُها وقت الحرب داعيةً إياها بأن تُلوح بعدد شُهدائها وما قدمتهُ وقت الحرب كي تُمنح قياداتها حفنةً من الوزارات وليُمنح ذوي شُهدائها حفنة أموال.

اتفقت هذه الأقطاب على صيغةٍ لدخول (كابل)، وهذه الصيغة هي أن يكون (صبغة الله مجددي) رئيساً لمدة شهرين، ثم يليه (برهان الدين رباني) لأربعة أشهر، وبعدها تذهب رئاسة الوزراء إلى (قلب الدين حكمتيار) ووزارة الدفاع إلى (أحمد شاه مسعود)، تأزم الوضع السياسي مع أستلام (برهان الدين رباني) للسلطة، رفض وقتها (قلب الدين حكمتيار) الدخول إلى (كابل) وقبول صيغة التراضي، تزامُناً مع ذلك اشتدت خلافاته مع (أحمد شاه مسعود) بشأن تسليح الفصائل وسيطرتهُ على وزارة الدفاع، وصلت الأقطاب المُتنازعة إلى نقطة مسدودة، بدأ (قلب الدين حكمتيار) ويعاونه (عبد الرشيد دوستم) في قصف (كابل) ومع رد

قوات (أحمد شاه مسعود) على هذا القصف انفجرت الحرب الاهلية.

مع اشتعال فتيل الحرب الاهلية وبدء قصف (كابل) ذهبتُ مُسرعاً بمعية (خالد) الى منزل ابي، وجدت اتباع ابي يحملون السلاح مُتأهبين للحرب، كم جميل لو يُفكر المُتدين المُسلم وقت الحرب بأن الوساطة واتباع الطرق الدبلوماسية في حل النزاعات السياسية كم هي افضل من تداول آيات القتال التي نص عليها دينه الذي حرم القتل وخراب الديار، حاولت الحوار مع اخي وقتها إلا أن الامر لم يفلح، كان الوضع اشبه بحريقٍ يلتهم كل شيء، رأيت النيران في عقول مُثيري الفِتن ورأيت أصعدة الدُخان تخرج من كل منشأة حيوية في (كابل)، اطحنت الحرب الاهلية كُل البُنى التحتية في (أفغانستان)، لم نتوصل لحلٍ غير الحرب، توقعتُ هذا مع رؤيتي لأخي وهو يرتدي عمامة أبي، جلسنا وتحدثنا ولم نصل لشيء، اخبرني بأن تخاذُلي وهروبي ابان الاحتلال الروسي كفيلاً لأن يلحق العار بي، وبحكم هذا فأني لا أصلح للقيادة، كوني جبان يلوذ بالفرار وقت القتال على حد قوله، ونحن نتجادل وسط اتباعنا المُقربين من المشايخ شَهَرَ بكذبتي بشأن وقت بقائي في (باكستان) بأنهُ كان فراراً من الحرب، بعد أن اخبرت الجميع بأنني كنتُ اعمل على نقل السلاح لأبي من (دارا ادم خيل).

اصبحنا شقين، كُل شقٍ يحاول حمل اسم أبيه لوحده، صرتُ نداً له بعد قرار اتخذتهُ بناءً على كُل مرارة ذقتُها في حياتي، جمعت كُل السنين التي قضيتها من قبل خانعاً تحت سوط ابي، نابذاً لرؤيتهِ في كُل صباح، تذكرتُ مرارة الأيام التي قضيتُها في السجن، مرارة الاكل من القُمامة، التشرد والنوم وسط الكلاب السائبة، ثلاثة عشر عام وأنا لا أنام مملوء المعدة، الذلة تحت وصاية ابي كانت مرارتها اكبر، قررتُ بأن أكون (رجُل دين) بحسب ما يرضي المجتمع، لم يكن لدي خيارٍ حينئذ، لا امتهن

غير تلك المهنة وليس لدي مأوى غير أملاك ابي، ليس لدي أسم احمله فتعرفني الناس، ليس لدي ما انفقه إلا اذا قُلت أنا أبن (حميد الله)، ايقنتُ وقتها بأن مُحاربة الظروف شيء لا نفع له إن لم يكن لنا مأوى خارج هذه الظروف، الخلاصة تكمُن في عدم إمكانية نقدنا لمُجتمعٍ نعيش فيه ولا نقدر الهرب منه، إن كُنا نرى بأن مثوانا الأخير في مجتمعٍ لا مفر منه فالأصلح ألا نقرأ كتاباً ينقُده، لعنتُ عمي، لعنتُ قَبوه، لعنتُ كُل كتابٍ قرأته، لعنت التاريخ والكُتاب، لعنت المُثقفين والمؤرخين، رددت أسماء الكُتاب وبصقت على مؤلفاتهم، ما أروع الجهل حين يكون لُقمة عيش وما اتعس العلم حين يجعلنا ننام وسط القُمامة.

ذهبتُ الى (قندهار)، تجمع حولي اتباع ابي في مسجد قريتنا، تذكرني اغلبهم ومنحو لي التبجيل اللائق لأن أكون زعيمهم وسط الحرب الاهلية، تمكنتُ من أن أُسس قاعدة جماهيرية تُضاهي تلك القاعدة التي يرتكز عليها اخي في (كابل)، بدأ القتال، ابرزتُ الأفكار التي تعلمتها في تصنيع الأسلحة حين كنت أعملُ في مصانع الأسلحة، ابرزتُ ما افقههُ من احكامٍ من فقه الإسلام ليكونوا تحت رهن اشارتي، تبنيتُ خطاباتٍ تدعو للوحدة الإسلامية والوطنية، اردت جمع الصف المُنشق بالدين إن لم يجمعهُ الوطن، وجدتُ في نهاية المطاف أن الدين بإمكانه ان يجمع اشخاصاً من مُختلف الأوطان، ولكن الوطن لا يمكنهُ ان يجمع اشخاصاً من مُختلف الأديان، الوطن لم يَعَد اتباعهِ بالملذات ولم يُهدد خصومه بالسَعير.

اردت إصلاح ما افسدتهُ السياسة، ناديت في خُطَبي لعدم الاقتتال، دعوت لحمل السلاح بوجه الغرباء الذي دخلوا البلاد بعد تحريرها مُدّعين بأنهم هم من حرروها، طلبت توحيد الصف، ناديت مراراً بأن حكومة (محمد نجيب الله) لا بأس بها لطالما جمعت مكونات الشعب، تحترم الدين في الغالب، أقرت بأن (الإسلام) هو دين الدولة رغم شيوعيتها، دعوت لأن نتجه

لإعمار ما خلفتهُ الحرب السابقة، لا أن ننجر لحربٍ جديدة، الخطابات المُحايدة تجعلك وقت الحياد وَهناً، هنالك أمور عديدة في الحياة لا يُسمح لك فيها بالحياد، الحياد فيها يُسحق، لأنهُ حمّال أوجه، كل طرف تقف امامه سيراك غريمه، في الحياد لن يسندك احد، الحياد منبوذ وقت حروب الاهلية.

اشتد القتال، خلال أشهرٍ قليلة خسرتُ الكثير من رجالي، لم أتمكن من الصمود اكثر في (قندهار)، كل من حولي اعظم وادهى مني في أمور الحرب والقتال، بقائي تلك السنوات في (باكستان) جعلني انسى الكثير من الطُرقات والمدن في (كابل) و(قندهار)، وصل بي الامر الى ان استسلم وألوذ بالفرار الى ذلك الكوخ النائي، استسلمت وأنا ادعو للسلام والحياد لأن هذه الحرب ليست ضد مُحتل، هذه الحرب أهلية، وفاء (خالد) لي أنقذ حياتي ذا يوم، ذلك الرجل الهُمام الشُجاع الوفي، لم اكن اعرف سر حبهُ ووفائه لي، كان مُخلصاً لي، يعرفني على حقيقتي جداً، كان قريباً مني، يجلس برفقتي في الكوخ، ينصت لي حين اعزف العود عند شروق الشمس، يجلب لي ما اشتهي من كُتب دون أن تُثير انتباههُ عناوينها، ايقظني بعد ليلتين من هروبي وطلب مني ان اتخفى وسط الزرع المُجاور للكوخ، غطى جسدي بأقمشة وعُشب، لم اعرف السبب، بقيت اسأله وأنا اخرج راكضاً من الكوخ، طلب مني إلا تظاهر بأي حركة، بقيتُ انظر بصمت، وجدت ثلاث رجال يأتون بسيارتهم بقرب الكوخ، نزلوا فأضرموا النار به، لم يبرحوا المكان حتى تصاعدت النيران واحترق بالكامل، بقيتُ مُندهشاً مما حصل، عاد بعدها لينقُلني بسيارته الى بيتٍ يبعد بعض الكيلومترات، ادخلني وطلب مني ان ابقى بداخله الى الصباح وأن لا افتح الباب لأحد، استغرق هذا الامر بضع دقائق، تركني ورجع بسيارته مُسرعاً، عاد مُنهمكاً بعدما حل الصباح، جلس بقربي وأخبرني بما خطط لهُ اخي لقتلي بدمٍ بارد، ارسل رجاله ليضرموا النار في البيت وأنا في داخله حتى يكون الامر وكأنهُ

غير مُفتعل كي لا يخسر اخي جزءً من اتباعه بعد أن ينتابهم الشك بأنهُ هو من قتلني اثراً للنزاع والاقتتال بحربنا الاهلية، ولكي يحمل اسم ابي لوحده من دون شريك، بقيتُ مُندهشاً مما حصل، اندهشتُ اكثر مما قام بهِ (خالد) لينقذ حياتي، ما كنتُ اعرف أي كلمات شكرٍ تكفي لأن اشكره، ما كنت اعرف، هل كان عليّ ان افرح ام احزن، اخبرني بأن الوقت الذي كُنا نتكلم فيه كانت جنازتي تسير الى المقبرة، كان يعلم بهذا المُخطط، اخبرهُ احد اتباع ابي بما سيقومون به، لم يُخبر اخي (خالد) خوفاً من أن يشي به نظراً للفترة التي قضيناها سوياً وظناً منه بأنهُ سيُرجح كفتي لكفته، من حُسن حظي بأنهُ عَلِم بالمُخطط قبل تنفيذه بليلة واحدة، تمكن من خلالها من جلب جُثة كانت مُلقاة على اطراف الطريق، كان الكوخ على سفح جبلٍ في منطقة نائية، وكانت اكثر الجُثث تُرمى على جانبي الطريق، تمكن (خالد) من وضعها تحت السرير لتحترق بدلاً مني، كنتُ نائماً و جُثتي تحت سريري، سارت جنازتي وأنا على قيد الحياة، لم يجعل (خالد) احداً من الرجال يدخل الكوخ إلا بعد ان اكتمل احتراقهُ، كان قد خطط لهذا حتى ينال رضى اخي، اخبرهُ رجالهُ بذلك ففرح وكَرمَ (خالد) على وفائهُ له، كان ادهى من تُكتشف افعاله، بقي (خالد) ومن معه الرجال يُشاهدوا احتراق الكوخ بالكامل، وما ان اصبحَ رماداً جاء لينقُلني الى المكان البديل، أقام لي اخي جنازة تُليق بأسم أبي، بعد أن تفحص الجثة عند وصولها اليه، شاهدها كُومةً سوداء مُتفحمة، لم تكن بحجمها الكامل بسبب الاحتراق، كان هذا ما يروم لهُ (خالد) لئلا يُكتَشف امره، أنتهى وجودي في الحياة وأنا على قيد الحياة.

انظر الى الأعلى، أرى السماء بلونٍ لم اراهُ من قبل، خائفٌ من هذه السماء الحمراء، سحُب غامقة تبعث الخوف والقلق، منُهارٌ بلا جسد، روحٌ تنتظر عقابها وحسابها، كيف سيكون عقابي؟ هل سيلقون بي في النار، ما الذي اقترفتهُ بعد ذلك؟ أجد قريني واقفاً

أمامي، على مقربة مني، مد لي يده، يطلب مني النهوض، اخذ بيدي وسار معي الى مكانه الذي يجلس فيه منذ ان رأيته اول مرة، انظر الى وجهه فلا اراه، الوشاح يحجب وجهه، اراه اقصر مني بقليل، يرتدي ملابساً بيضاء تغطيه بالكامل ووشاحاً كبير، أسير بخطواتٍ خائفة برفقته، اختفى ذلك الحاجز الهُلامي الذي كان يمنعني من التقرب منه، أرى مُنحدراً ليس بإرتفاع عال، من بعده هُناك اشخاص واقفين بصورةٍ غير منتظمة، تتصل أيديهم بسلاسل تُشابه السلاسل التي تقيد معصمي، نظرت (لقريني) فوجدتهُ يمسُك بالسلاسل ايضاً، كان (قريني) يحول بيني وبينهم....

سألته بنبرة خوف: من هؤلاء؟

قال: هؤلاء ضحاياك.

نظرت لهُ فأنهالت عليّ الذكرى، تذكرت ما اقترفتهُ بعد أن شرعَ اخي بقتلي، ارتجفت خوفاً، صرخت ثُم هدأت، أتمعن وجوههم، أرى قصصهم وهي تحوم حول ذاكرتي، تمطر احداثاً مُروعة، ما فعلتهُ بهم كان شيئاً مروع.

يسألني قريني: عرفت من هؤلاء؟

التزمتُ الصمت والذكرى تنهال عليّ بأيامٍ عجيبة، كنتُ فيها خلافاً لكل ما ادعيتُ بهِ من مبادئٍ وقيم، كنتُ أظنُ بأنني بقيت على شاكلة (أمين) الباحث عن الحقيقة مهما كان ثمنها، (أمين) الذي قضى سنواتٍ عِجاف لئلا يتحكم باطلاً بعقول الناس، لئلا يُردد على مسامعهم أكاذيب تُراثهم المُقدسة، (أمين) الذي رفض رفاهية العيش مقابل استغلال سذاجة الطبقة المُنهمكة في المُجتمع، التزمتُ الصمت لأنني رأيت ذلك الفلاح الذي كنتُ اسرق منه نصف أرباح محصوله، بعدما كان يستيقظ لزراعته وحصاده وقت بزوغ الشمس وأنا اتناول فطوري عند الظهيرة.

وسط هذا السكون المُمل، اتجرع مرارة حقيقة تلطخ يدي بدماء الكثيرين، قتلت، أقمتُ الحدود الشرعية، أخذت الجزية، رجمت، قطعت الايادي، فرضت التعازير والعقوبات، فرضت الزكاة بغير نسبها وأخذت من الغنائم ما اشاء، فعلت كل ما يأمر به تراثنا الجائر، وضعتُ جانباً كُل ما كتبهُ (عمي)، قلت لنفسي وقتها "كل ما قرأتهُ مكتوب بخط يده، هو شيوعي، والشيوعيون كَفرة وَجُبَ قتلُهم فهم مُرتدون عن الدين" اقترفت كل ذلك بعد ان قتلني اخي، بعد أن قَتَلَ (أمين) وجعلني شخصاً اخر، اسماً اخر، مبادئ وقيمٍ أخرى، غرائزٍ ونوايا خبيثة، تساءلت، لمَ قريني يحول بيني وبينهم؟ لمَ يمسك السلاسل قبل أن تصل إليهم؟ عرفتُ لمَ السماء مُحمرة، عرفتُ ما كانت تُخبئهُ لي، سمعت صوت الرعد مُجدداً، تحركت بشكلٍ لا إرادي الى الخلف، كان الصوت قوياً، صوت لا تتحملهُ الاذن البشرية، هلَعت ورجعت لأختبئ خلف الشجرة، ظل أمام انظاري وجهاً لشخصٍ اعرفه، كان من ضمن ضحاياي، عدتُ سريعاً لمشارف التل لأتأكد، تمعنتُ وجهه جيداً فوجدتهُ هو .. كان أخي.

الفصل الخامس

آب / 1996 - سيطرة حركة طالبان

رأيتها والغيوم تحوم حول رأسها، وكأنَ الخريف لم يُفارقها منذ عقودٍ من الزمن، وكأن الكون بدأ من عينيها وأنتهى عند حدود ملامح وجهِها، رأيتُها خُلاصةً ما قيل من شِعرٍ بحق النساء، كوكبٌ دُري غطى وجهه الخِمار، ثيابها السوداء ليل تأمل في خاطر عاشقٍ اعتاد البوح اناء الليل، النظر لها سُهد في ذلك الليل، التمعُن فيها من اسفل قدميها الى أعلى مفاتنها تيه فيه، رؤية وجهِها كرؤية نجمٍ في ذلك الليل أو كالوصول إليه، اسعدني فيها شيئاً لم اجدهُ من قَبل، شيءٌ لم أعرف ماهيته، شيءٌ ما يَشدُني إليها، لم اعرفه، ظهرت لتُعيد لأيامي معنى الأيام، وجدتُها فأحببتُها منذُ النظرة الأولى، احببتُها دون ان تُبادلني الحُب، هي على الدوام خائفة، خائفة من كُل شيء، تخشى كُل شيئاً ساكناً من حولها او ذا روح، لم اكُن اراها بوضوح، كان هُنالك ثمة غِشاءٍ على عيني اسمهُ (مريم)، لم اتقن فصاحة الكلام برفقتها طوال تلك السنين، ظلت (مريم) تجثو بحنجرتي، اشتياقٍ لها كان كوابل الرصاص الذي يشهدهُ ليل (افغانستان) أبان الحرب الاهلية، أعواماً وأنا لم انفك عن الشعور بكف يدها وهو يُلامس كف يدي ليُوقظني فجأة من النوم، اكتمُ ضجيج قلبي لو آنست بعضاً من طيفها، لأقضي سنواتاً تزوجتُ بها غيرها، لم اخبرها بكُل شيءٍ مضى، لم أُعرّفها من أنا، عرفتني بأسمٍ جديد وهيئة جديدة، وقتها لم أكُن (أمين)، أصبحتُ (المُلا آخوند).

كنتُ اراقبها في كُل يوم وأنا ابعُد عنها خطوات من الأسئلة، لمَ تظهر وقت الفجر وترحل قبل ان تتم الشمس بزوغِها؟ لم أكن

اعلم، كنتُ اراها حين اهرب من عالمٍ يُحيط بي يُسمى (الحياة)، اهرب في ساعات الصباح الأولى، لأعود الى الزمنٍ كُنت فيهِ (أمين)، اجلس على ضفة نهر (هريرود) بعد انهائي لصلاة الفجر، كُنت احد ولاة مدينة (هُراة)[120] بحسب نظام حركة (طالبان) بعد أن عدتُ (لأفغانستان) بموجبهم، بحسب ما يرتدون وما يدّعون، انتميت لهم في (باكستان)، عُدتُ لارتدي ثوبي الذي تخليتُ عنه في السابق، شَهرت سيف ما افقههُ في فقه الإسلام لأكون احد قادتهم الباسطين نفوذهم بعد الحرب الاهلية، كنتُ اختلي بنفسي وبنبات (القنب) لأتعاطاه عند الفجر، اخذ قسطاً من الراحة من شخصيتي التي ابغضُها، ابتعدُ قليلاً عمّا أنا عليه، عمّا وضعتني به الحياة رغماً عن انف مبادئي وكُل ما اعتقد، اجلس على طرف النهر مُتخفياً لما قبل طلوع الشمس وأغادر مع شروقها، لئلا يراني أحد، فبالأمس اقمت الحد الشرعي على من يُدخن السيجار.

أصبحت المَعني بحياة الناس وموتهم، أصبحت المُحييّ المُميت، الواهب المانع، النافع الضار، أصبحت المُفوض من عند الخالق في تلك المدينة الأفغانية التي لها حدوداً نبغضُها مع (ايران)، جاءت بي الحركة إليها لأقمع افراداً حاولوا أن يقاوموا فتوحاتنا، او نفوذ (طالبان)، فلنا الحق في أن نطلق التسمية التي نشاء، هكذا كان الامر على مر التاريخ، أرسلوني إليها وتم تعييني والياً عليها لفترة، جاء الامر بمنفعة لي لأبتعد عن (كابل) وعن أخي وذكرى أبي، عن كل من يعرفني، وعن تلك التي لا زالت تنبض بين اضلاعي .. (مريم)، كنتُ اراها في كُل يومٍ وهي تقطفُ من الأرض عشب ينبتُ بسيقان قصيرة، تسير بخُطىً مُحاذية للنهر، يَتبع ناظري سيرها بدقة، لفتت انتباهي ذا يومٍ حين رفعت

[120] هُراة: مدينة أفغانية تقع غرب أفغانستان يمر بها نهر هريرود والذى يتدفق من وسط البلد، تقع على مقربة من الحدود الايرانية.

الخِمار عن وجهها لتتذوق عشب ما، رأيتُ وجهها فساورني الشك بأنها ملاك من غير صولجان أو أجنحة.

كان اسمُها (بروين)، تنتمي لقبيلة (هزارا) الأقلية من بين قبائل (أفغانستان)، أقليةً ليست ذا ضرر على الأرض بقدر ضرر ما تبقى من طوائفٍ شاركت في حربٍ أهلية اقتلعت الرحمة من اصغر طفلٍ ولد فيها، تحدثتُ معها مرةً واحدةً ثُم تزوجتُها، هلعت عند رؤيتي للمرة الأولى، وفي المرة الثانية كانت خائفةً اكثر، بعد أن جَمعتنا غُرفةً بأبوابٍ مُغلقة، اعتدنا على بعض بعد أيامٍ قضتها تجلس القُرفصاء في أحدى زوايا الغرفة، كانت في عُزلةٍ تامة وجئت أنا لأشاركها عُزلتها، كانت حياتي برفقتها جميلة، اتكأتُ على كتفها طوال الليال التي جمعتنا، عرفتُ وقتها معنى كيف أن يكون للروح شريك، كانت (بروين) جاريةً لأحد قادة الحركة في مدينة (هُراة)، طلبتُها للزواج على عَجل دون أن اعرف السبب الذي شدني إليها، كان يحُق لي أن اتزوج الكثير وأن اسبي الكثير، حقي بموجب النهج الذي اتبعهُ والذي يُجيز لنا امتلاك الجواري والإماء بعد فتح كُل مدينة، بغض النظر أن كانوا مُسلمين أم لم يكونوا، فإسلامُنا كان من نوعٍ خاص، كانت عذراء رغم كونها جارية، الامر الذي لم أسأل بشأنهِ وأنا اخذها من سيدها، جعل مني هذا الامر أضحوكةً بين اقراني من الاسياد، فسيدُها لا يتقرب منها، كانت مملوكةً من أجل ان تعمل فحسب، كانت لا تصلح للزواج او للشراء، اعطاني إياها سيدها دون ثمن، بعد أن عرفتُ بأنها مُصابةً بمرض (السل الرئوي) فهمتُ لمَ لا يتقرب منها احد، فهمتُ ايضاً لما وصفها سيدها بأنها: "لا تساوي شيئاً" فمرضها كان مُعدي، سألتُ نفسي مراراً، هل كُنتُ اعطفُ عليها حين تزوجتها؟ أم أنا أحببتها بالفعل من بعد (مريم)؟ لم اجد إجابةً لهذا السؤال، أتذكر دائماً بأنني أُعجبتُ بها قبل أن اعرف بمرضها، كانت شبه أنسان، تزوجتُها والكُل يُحذرني من مرضها مُعديٌ لئلا اتقرب منها، لكنها لم

تجدني كذلك، وجدتي الزوج الحريص على اسعادها وعلى الاهتمام بمنحها ما تستحق من عناية ومن مكانة تُذكرُها بأنها (امرأة)، إحد صنفيّ البشر، وليست مُباحة للبيع وللاضطهاد، وكأنني اردت إرضاء ما اضمر من مبادئ وأنا اتزوجُها، أطُبق شريعة الغاب والتفت إليها لأُطبق حقوق المرأة التي تُنادي بها كل امرأة مُتحررة في دولٍ تبتعد عنا بالكثير، فنحن ومن يُحيط بنا نتفحص اختيار الدواب عند البيع والشراء اكثر من التفكير عند أمتلاك امرأة، كانت كثيرة البُكاء، تجلس القُرفصاء في زاوية غُرفتها وتلوذ بالدمع، تخاف من كُل شيءٍ من حولها، العُزلة التي وضعها فيها أولئك البشر انتزعت منهم صفة البشر، ليكونوا ادنى من أن يكونوا بشر، هذه العُزلة كانت مرضها اكثر من مرضها (بالسل)، زرعت بها العُزلة خوف التقرب مني، خشية أن اقتُلها إذ نقلت لي العدوى، هكذا اخبروها وهي في طريقها لتُزَف إلي، وهي تضع تحت خِمارها قطعة قِماش تكبتُ أنفاسها لئلا تُعدي أحد، كانت تجمع عند الفجر عشب ينبتُ على ضفة النهر، تتناولهُ ليُساعدُها في تحملُ مرضها والتنفُس بسهولة، لم تكنُ تملك ثمن العلاج، هذا إن توافر العلاج، فسيدها لم ينفق عليها شيء لأنها لا تساوي شيء، كان مرضها إنموذجاً للأمراض التي شاعت وقتها والتي كان علاجها لا يُكلف صندوق عِتادٍ نتبادل رصاصاته لقتل بعضنا بيد أننا اخترنا شراء الأسلحة بدل الادوية، فالفتوحات أهم من أي شيءٍ في حياتنا الفانية.

عشت برفقتها سنواتٍ جميلة، اخرجتُها من عُزلتها، تمكنتُ من جَلب العلاج لها حتى تحسنت حالتها لأشهر إلا أنها لم تُشفى تماماً من المرض، وقتما رأيتُها كان اوان عِلاجها قد فات، اكتشفتُ أن السعادة من الممكن ان نجدها ونحن في طريقنا إليها، قد نجد السعادة في اجتهادنا في أمرٍ ما ونحن نجتهد فيه مُعتقدين بأن السعادة تضمُر في تحقيقه، قد تكون لحظة الظَفر به هي جوهر السعادة، ولكن من المؤكد أن الطريق الذي شققناه

من اجله كان مغمور بها، كانت (بروين) جُل السعادة التي ابحث عنها، كانت سعادتي برؤيتها سعيدة، وكأنني اهرب بها من كل ذنب اقترفته، أعيش برفقتها كما كنت مع (مريم)، اريد معها العُزلة، أكون شخصاً اخر غير الذي أراه وتراه، كانت تراني على غير ما أمر به وأنا خارج غُرفتها، تظنُ بأنني وفي لها حين لم اقترب من أي جاريةً تخدم في البيت، كانت تظن بأنني وفي لأنني لا امتلك (الإماء) في الوقت الذي اشرح فيه شروط امتلاكها ونِكاحِها حين أُسألُ عنها، ارتكبت كل فعلٍ فاحش اجازه تُراثُ فقه دينُنا، ارتكبت كل شيء يذبح كرامة الانسان وحقهُ في حُرية العيش، فعلت ما توجب عليّ لأن أعيش حياة رجال الدين الفارهة، فعلت كل ذلك لأجل أن أعيش بعد ان قتلني اخي وأنا لا أزال على قيد الحياة.

ساعدني (شهباز) لأن أعود الى (باكستان)، كان شتاء عام 1994، اتصلت به وأنا في الكوخ الذي خبأني به (خالد)، بعد ان انقذ حياتي وخلصني من جور اخي، كان يعلم بما يروم إليه اخي، تمكن من جمع اشيائي وكُتبي التي احتفظ بها ووضعها في كوخٍ أخر لم يبتعد كثيراً عن مكان سُكنايّ، كان قد اتى بهن وعاد بعدها ليوقظني لأهرب قبل مجيء اتباع اخي لحرق الكوخ، كان رقم هاتف (شهباز) في قصاصة ورق من بين هذه الكُتب، سألته وقتها لمَ لم يجعلني اقضي تلك الليلة في الكوخ إن كان اخي يُريد قتلي؟ لمَ خاطر بإبقائي حتى ما عاد لنا الوقت الكافي للهرب؟ اجابني بأنهُ عرف بما نوى عليه اخي ولكنهُ لم يعرف وقت تنفيذ العملية، عَلِم قبلها بقليل من خلال شخصٍ غريب اتى إليه حاملاً رسالة مُغلقة كان قد كتبها له من كلفهُ بأن يشي له بأخبار اخي، كان احد اتباع ابي المُهمين، تحرك سريعاً لنقل اشيائي وعاد لأخذي بعد أن اخرج الجُثة من تحت السرير ووضعها على الفراش، كساها بالأغطية لتكون بهيئتي وأنا نائم، دخل اتباع اخي برفقته الى الداخل لرش (البنزين) ليتأكدوا من أنني نائمٌ بالفعل في

الفراش، اكتملت وقتها لديّ صورة ما رأيتهُ من الخارج، حين رأيت كُل شيء يحترق، حتى أنا.

اتصلت (بشهباز) من خلال رقم الهاتف الذي اعطاهُ لي في السجن، بعد عناءٍ طويل تمكنتُ من أن احدثهُ عبر الهاتف، بعد أن اجابني على الهاتف احد اقاربه واخبرني بأنهُ لم يعد في (كراتشي) وأنهُ في الوقت الحالي يعمل في (بيشاور)، اعطى لي رقم هاتفٍ أخر لأتصل به وبعد أيام تمكنتُ من الاتصال به، اتفقنا بأن اتي إليه قرب الحدود عند الليل ليتمكن من اخذي الى داخل (باكستان) بالخفاء، تمكن من ذلك الفعل، إلا أنني لم أتمكن من معرفته حال رؤيته، كان برداءٍ عسكري وبعجلة عسكرية!! كان من أوائل المُنتمين لحركة (طالبان) الموعودة للسيطرة على (أفغانستان) كان يقطن في مُعسكر التدريب خاص بهم في احدى ضواحي (بيشاور)، فئة قليلة لا تتجاوز العشرات من المُتدربين، دخلت الى المُعسكر برفقته فعجبت شديد العجب، كيف لسجينٍ بأن ينتمي للجيش حال خروجه! عرفت بعد أن قصصت لهُ ما حصل لي، بأنني كُنتُ في اول مُعسكرٍ لتدريب القوات الخاصة لإنهاء الحرب الاهلية الأفغانية والسيطرة على (كابل)، عجبتُ للأمر كثيراً، كُنا نسمع ونحن في السجن عن (طالبان) ونفوذها في (باكستان)، ولكن، ما علاقتهم (بأفغانستان)؟ لمَ يجتمع في هذا المُعسكر الكثير من الأفغان تحت قيادة باكستانية؟ الاعداد كانت في تزايد يومي، وكأن احدهم أمرهم بالتطوع للجهاد، كان غالبية المُلتحقين بهذا المُعسكر من طلبة المدارس الدينية، كان الدافع لقتالهم (ديني)، السبب الذي جعل المُعسكر الواحد يتضاعف بأقصى سُرعة وأعداد المُنتمين تتزايد بشكلٍ ملحوظ، بدأ الامر يزداد غرابة، أرى نفوذ (شهباز) يزداد يوم بعد يوم، اغلب من هُم في المُعسكر يمتَثلون لأمره، لم يكن ذلك السجين الضعيف الواهن الذي اعرفه، وكأنهُ ورث القوة والنفوذ فجأة.

احمل معي كتبي التي اعتز بها لما تسببت لي من خراب في حياتي، أبقيت على بعضها برغم كل ما مررت به، لم اتنازل عنها ولم اتثاقل عن حملها، كانت وكأنها دوائي لو أُصبتُ بالحيرة والشك، لو بحثت وسط الجهل عن أسباب ظلامه، كانت الوهَج الذي يُنير عُقلي المُتسائل على الدوام، ستبقى الكُتب هي البيرق المحمول ومنارةً على شاطئ كُل مُجتهدٍ مُتسائل، في أول ليلة لي هُناك، دخل عليّ (شهباز)، أبتسم خفية حين شاهدها وهي تُحيط بسريري الذي أُشارك به غُرفته الضيقة، كانت تسع لسريرين فقط، حرك رأسهُ إيماءً بالدهشة واخبرني بأن عليّ النوم جيداً لنتحدث عند الصباح عمّا مر بي، اتكأتُ برأسي على الوسادة ألماً، كل ما مضى عليّ يُؤلمُني، اين أنا؟ وما آل بي؟ غداً من سأكون؟ من أنا بعد أن قتلني أخي؟ بماذا سأخبرُ (شهباز)؟ كيف سأقول له بأن هذا الذي أمامك، لا وجود له.

افتحُ عيني فأجد (قريني) يقف في مكانه المُعتاد، يمسك بيده السلاسل قبل أن تنحدر الى أولئك الذين قَتلتهم، يتحدث معي ولا اسمعه، يتحدث معي بكلماتٍ مُبهمة لا افهمُها، تجاهلته، اغمضتُ عيني واتكأتُ برأسي على الشجرة كما كنتُ اتكأ على نافذة زُجاج السيارة التي نقلتني الى حدود (باكستان)، انظر بحُزن من خارج النافذة، انظر الى وطنٍ لم يكُن لي وطن، الى أبٍ لم يكُن لي أب، الى حبيبةٍ لم تكُن لي حبيبة، انا لوحدي الآن، بتُ لوحدي جداً، حتى نفسي فارقتني بعد أن قتلني أخي، بتُ بلا أسم وبلا هوية، وأنا في أوج ضياعي افتقدُ (مريم)، شاركني معها مُتهكماً لم يعلم بأن أنفاسها هي احدى أسباب جمال الطبيعة.

أغمضت عيني لأحتفظ بها بين اجفاني، عشقتها حد الجنون، امتلكُها حين يكون الشوق وقت ذروته، احتفي بها وقت لا املك سواها، افتقدُها وقتما تكون بين يدي غيري، استلقيت على الذكرى، افترشت شعرها، تغطيتُ بأنفاسها، تناولت نظراتها شيئاً فشيئاً، (مريم)، تلك التي لها عينين لا يُنظَر إليهما على

عجل، تمتاز بحَسنةٍ على احد طرفيّ شِفاهِا، يعجز النظر لها تزامُناً مع حركة شِفاهِها، لها شِفاه جميلة يغار الصمت من حديثها، حتى حزنها كان جميلاً، بُكاؤها كان كاللآلئ ويحَسدُ مدامِعُها السُرور.

استأنفتُ ما كُنتُ احوم حول ذكراه، اغمضتُ عيني على سريرٍ غريب افكر في اخر مرة جلستُ فيها برفقتها، اجمل لقاءٍ كان بيننا ولكنهُ كان الأخير، زال غُبار الرحيل برياح الواقع، اكتشفنا بأننا التقينا في زمنٍ لا وجود لهُ، التقينا خارج حدود وجودنا، وقتما امتزج الوجود بالعدم، جلسنا ننظر الى لوحة لم تُرسم بعد، نتأمل شيئاً كان يجب أن يكون، ننظر الى الواقع بنظرات خجل، نخجل مما صنعناه بحالنا، نجلس ونحن لم نعُد نحن، لم نكن على ما كُنا عليه، اردنا أن نكون ما وددنا ان نكون، ما اقسى تلك الأحلام التي نحلم بها دون أن ننام.

كان وقت الغروب، زارتني في الكوخ الذي كُنت اقطُن فيه بعيداً عن ابي، فتحتُ الباب بعدما سمعت احداً يطرقه، رأيتُها امامي بأبهى صورها، انظر في عينيها ومن خلفها منظر الشمس وهي تغيب، وأنا مُندهش من مجيئها بادرت الشمس لأن تشرق من جديد، نست غروبها وعادت لتشرق مع مجيئها، نظرتُ في عينيها ملياً بدل الترحيب بها، رحبتُ بها بما اكُن من مشاعر، بقيت على قيد الدهشة الى ان ...

قالت: ما رأيُكَ بهذه المُفاجأة؟

اجبتها: ما رأيُكِ أنتِ بمجيئك بعد كل هذه السنين؟

رأيتُ ثغرها الباسم فمحوت سنين جحودها، رحبتُ بمجيئها، دَخلت بُخطى توقد الشمع أمام سير خُطاها، مرت بجانبي، أستنشقتُ رحيقها وهي تدخُل، جلسَت ونَظرت لي وأنا لا أزال على قيد الدهشة، هُنالك شيئاً ما زاد المكان قداسة، صار مسكني وكأنهُ كنيسةً في يوم الأحد، تضُج بالترانيم المُقدسة التي

تهيم بها الروح حال سماعها حتى وأن كانت بكلماتٍ مُبهمة لمن لم يعتنق (المسيحية)، جلَست بعد أن دفعت الندم خارجاً وأنا اغلق الباب حال دخولها، دار بين اعيُننا حديث لأكثر من عامين وهي لم تمكث إلا ساعات، اشتقت لها حد الشفقة على نفسي، آلمتني برحيلها الذي محى بريق مجيئها، لكنني لم اخبرها بما اكُنهُ لها من لوم، خبأتُ كل الكلام بعد أن ازالت الخِمار عن وجهِها، بعد أن تركت مكانها لتجلس بقربي اكثر، خبأتُ كُل اللوم بعدما رأيتُها تُخبئ سنين بيضاء بين ضفائرها، لم اكُن أتوقع أنها تحمل الألم الى هذا الحد، وكأن جمالها كان يُجلَد كل ليلة، شعرها اختلط باللون الأبيض، لم يتبقى من ليل شعرها إلا القليل، حدثتها عمّا مر بي من دونها، منذُ أن رأيت خاتم الزفاف بين أصابع يدُها الجميلة والى هيامي بها الان، حدثتُها كيف كنتُ اقتات على فُتات الطعام في القُمامة، كيف كنتُ افترش ورق الجرائد لأنام مجهول الهوية، كيف كنتُ مُخلصاً لعذاب الاشتياق لها وقت لم ألمس امرأة غيرها، شرحت لها كيف يُمكن لنا أن نعيش اشباه حياة ونموت اشباه موتٍ في آنٍ واحد، حدثتُها عن مَرارة رؤية بقايا العِشق في زوايا الأمس، اوصيتُها لو أنها دعت ربها فعليها أن تطلب بأن لا يجعلها ترى قيمة شيءٍ بعد زواله، نفضتُ من وجداني غُباراً تراكم من شِدة العُزلة، غُبار اليأس ظل يُغطي كل أمل نوى لقائِها، فوضى الأفكار شغلت نظرات عيني وعينها، لمَ الآن؟ لمَ هذا الوقت بالتحديد؟ ما الغاية من عودتها وأنا مُقبلٌ على الموت؟ جاءت في اخر يومٍ كان لي قبل أن يقتلني اخي.

رُغم أنني لم أنفك عن الظن بأنها جاءت لتعطف عليّ، بقيَت الغِبطة تعتلي كل نظراتي لها رداً على عطفها إن وجد، الأرض على مدار كُل هذه السنين من النظرات لم تكُن تحملُ غيرنا، شعرتُ وقتها بأننا نملك كُل شيء ونستغني عن كُل شيء في آنٍ واحد، الأرض واقفةٌ لأننا التقينا، الأرض تدور لأننا تبادلنا العناق، ليس

هنالك وجعاً قدر وجع استذكار نشوة اول سَلام، نحنُ حبيبَين مضى على حبهُما فقدٌ و لقاء و هجر و صحراءً من الندم.

سألتُها: كيف قضيتِ السنوات التي مضت؟

اجابتني: كُنت اراك في كُل الاماكن، كُنتَ حَليف كُل الأزمنة.

وقفَت، ثُم سارت وسط مسكني بخطواتٍ تتناثر منها الانوثة ...

قالت: كُنت أظن أن الحُب يتكرر، وجدت الحُب كشهر الصيام، ليس هُنالك يوماً كاليوم الأول منه.

اعتصَر الفؤاد لندمها، مجيئها كان كفيلاً لأن يجعلني احبُها من جديد، لا بل كفيلاً لأن احب كُل ما كُنت اكره دون قيدٍ او شرط، ليس بجمالها امرأة، لم أر من قبلها بشراً يتوارى عن النسيان فلا يُنسى منهُ شيئاً، هي اكبر من أن يمحو ذِكرها نبات (القنب) ساعة الفجر، اتناولهُ لأكون على اهب الاستعداد من ذكراها طوال اليوم الذي أنا على أعتابه نادماً على كُل يومٍ مضى قبله، أجد نفسي بعدها مُتكئاً على (العود) لأعزف لها، لأقول لها بأنني ألف احُبها، أحبها، مهما مَر زمان مُر المذاق، احبها، مهما صببت لهيب الهجر على جسد الوفاء الرافض لجحودها، أحبها، كلمةً اصرخُ بها بوجه كل يومٍ حُرمتِ بهِ منها، اصرخ بها من شدة فُقدانها البهي، من شدة حَسرتي على من اتاح لهُ لمسها من دوني، احترق لها شوقاً وأنا اقولها، احبها، احبها كثيراً جداً، قدرَ قلة حيلتي .. احُبها.

سألتها: لمَ هذا الشعر الأبيض بين مفاتنكِ الخلابة؟

قالت: بعد أن تزوجت، لم أكمل دراستي في الجامعة، وعدني زوجي بأنهُ سيسمح لي بأستئناف دراستي بعد الزواج، إلا أنهُ أخَلف وعده في صباح اليوم التالي، منعني من الخروج بعدها اطلاقاً من البيت بسبب احداث الحرب.

سألتُها بنبرة الشَمت: هل هو من المُتشددين الإسلاميين؟ أم أنكِ اخترتِ الشخص الخطأ؟

جَلست بالقرب من موقد نارٍ في أحدى زوايا مسكني، نظرت لي وأنا أنظرُ لها ملياً، كفت عن النظر والحُزن يجول في خاطر عينيها، لم تتفوه بكلمة، ظلت بين نظراتُها الحائرة وبقيتُ أنا غارقاً بجمال جسدها بينما كانت تسير بخطواتٍ قبل جلوسها، وكأنها تترنح بين شفتيّ وأنا اروم لالتهامها.

سألتُها مُجدداً: لمَ لم تطلبي الطلاق بعد أن منعك من الدراسة؟

عادت لتجلُس بقربي ....

قالت: لم يؤلمني شيء قدر فراقي لأبي وأمي في يومٍ واحد.

التفتُ لها، فوجِئتُ بلؤلؤتان تسقُطان من عينيها، لم أر عينيها بهذا الحُزن الجميل من قبل، هي اجمل بكثير من أن تبكي.

في عمر الصِبا ومع اول امتحان يمتحِنُنا بهِ القدر، نحاول قدر الإمكان لأن نقف على أرجُلنا لمواجهة الصِعاب، الامر يكون أفضل لو كان بقربنا ابوين نمسك بأيديهُما ما أن حاول القدر اسقاطنا، ولكن الأمر صعب لو كُنا بلا ابوين، او من دون احدهما، سنسقط لأكثر من مرة، وأن نهضنا من بعدها فأن انتصارنا يُساوي انتصار العشرات من أولئك الذين ينعمون بالطُمأنينة كُلما رأوا (نَعل) ابويهم على مدخل الدار، لم تكن (مريم) تؤمن بلعنة القدر، كانت تؤمن على الدوام بأن قُدرات الانسان هي المُسيرة لأيامه وأن ليس هُنالك ثمة قوى خارجية قادرة بأن تمحي الابتسامة من وجه أيامنا إذا استيقظنا في كُل صباحٍ مُبتسمين، تزوجت من شابٍ من عائلة غنية، زال غناها مع أول اطلاقة رصاص للجيش الروسي ابان احتلالهُ السافر لأراضينا، لم يتبق لها شيئاً غير طاعة ذلك الشاب المُدلل الذي فقد اتزانه مع فقدهِ لغِناه، بَقيت قيد الندم لأنها كانت تظن ان

الزواج من العائلات الارستقراطية يضمن الرُقي على مدار الزمن، كانت تظن ذلك بُغضاً بالمنتمين للإسلام، لأنهُم وبحسب وجهة نظرها السابقة، هم الفئة الأقل شأناً من الارستقراطيين الذين صاروا اليوم اقل شأناً في المُجتمع الافغاني بحكم ما آلت إليهُ الأيام.

لم تكُن الأولى، لم تكُن الوحيدة، الكثير من النساء من قبلها سَعينَ من اجل المظاهر، الحُب عندهُن يتناسب طردياً مع الحُلي المُقدمة وقت الزواج، هُنَ نادمات على الدوام قدر غرورهن، نادمات لأنهُن اعتدن على التظاهر في كُل شيء، اعتدن على الكذب، على المظاهر الخدّاعة، اعتدن على أن الظهور للناس بوجهٍ مُبتسم كافياً للدلالة على أنهُن سعيدات، يعتقدن بأن السعادة بما يضمرهُ الناس لهن وليس بما تضمُرهُ ارواحهُن في الحياة الزوجية خاصتُهن، المصنوعة من الوهم.

اجبرتها على التوقف عن البكاء، فأنا منذُ أن عرفتُها شهيد تلك العينين الجميلتين، شهيد تلك الضفائر التي تتكئ بها على كتفي، شهيدٌ أنا بالفعل حين لم يتحرك لي ساكن وهي بقربي، لم تعد لي، فلم ابادر بلمسها، لمستُ وجنتيها فقط لأمسح لآلئ دموعها، فكرتُ ملياً في أسباب برود ذلك البركان الذي كان بداخلي، لمَ هو نقيض اليوم؟ بعدما فك الغريب ضفائرها، أنا الان نقيضُ أيام كُنا نسير فيها بأيادي مُتكاتفة، في كُل طريق مُعتم جمعنا، حين كُنا حبيبين على شفى حُفرة من القُبل.

عزفتُ لها ونحنُ سوياً كُل لحنٍ افتقدها، عزفت لها كل ما مر عليّ من دونها، مزجتُ مدامع حسرتي بألحانٍ لا تعرف البهجة، قصصتُ لها على أوتار آلة العود قصص عِشق تنتهي برحيل احد العاشقين، قصصاً كُتِب لها الخلود اكراماً لشِدة صِدق ما احتوت من مشاعر.

يهمس صوت بالقرب مني: (امين)، (أمين)، هيا أستيقظ.

فتحت عيني فرأيتُ (شهباز) يحثني على النهوض وتناول الطعام على عجل لإلتزامهِ بعملٍ بعد عدة دقائق ...

سألته: هل ستتركني هُنا؟

قال: أنا لا اخرج من هُنا، أنا اعمل هُنا وأعيش هنا.

قلت: كيف؟

ناولني رغيف خُبزٍ بوجهٍ مُبتسم، قال: تناول افطارك وسأخبرك، ولكن عليك أولاً أن تخبرني بمجيئك المُفاجئ هذا، لمَ جئت هارباً؟ تناول طعامك وسنتكلم.

قضمت قليلاً من الخبز بين انيابي وأنا انظر له بغرابة، كان امكر من (شهباز) الذي كنت اعرفهُ في السجن.

خارج الغُرفة التي قضيتُ فيها ليلة الأمس، كان يجتمع العديد من طلبة المدارس الدينية، كان الغالب منهم (أفغان)، كانت مدرسة دينية يجلس طلبتها على الأرض في ساحة كبيرة يقف امامهم معلمهم، لم يكُن كبيرهم يتجاوز الخامسة والعشرون من العمر، خرجت بوجهٍ عبوس انظر لهم، قضيت اليوم بأكمله برفقة (شهباز)، بقيتُ اتجول برفقته وهو يقضي مهامه، كان اشبه بالرقيب على الجميع، كان كل من في هذه المدرسة يكّنُ له الاحترام والإجلال وكأنهُ ذا شأن كبير في هذه المدرسة، لم أعلم السبب إلا وقت الغداء، حدثتهُ عمّا فعلهُ بي اخي بعد وفاة ابي، حدثتهُ لمَ جئت لهُ هارباً، ولمَ عليّ البحث عن هويةً جديدةً، اخبرتهُ وقتها بأنهُ يتناول غدائهِ الان مع شخصٍ ميت، تفهم الامر بصورة ابسط مما كُنت أتوقع، احتضنني وأنا ابكي اقسى ما أملك من دمع، بعدما انهالت دموعي دون أن أتمكن من أن اكبت اصغرها اسفاً، هون عليّ ووعدني بأنهُ لن يتخلى عني، قضيت أياماً اتجول في باحة المدرسة الدينية، كانت مدرسةً دينيةً عند الصباح، وما أن يحل المساء يبدأ كل الطلبة بالتدريب على السلاح، اتخذُ موقف المُتفرج بينهم، اخبرني (شهباز) بعد ذلك

(الغداء) الذي جمعنا وشرح لي من خلاله كيف تمكن من ان يترأس كل من يتواجد هنا، ظنتهُم طلبة للعلم، ولكن اتضح فيما بعد بأنهم اجندةً سياسيةً كانت نواتها العلم، بعد أن حُقِنَت بمُضاداتٍ سياسية جعلتهم يتعطشون للدم بدل العلم، الغريب أن (شهباز) منعني من التقرب منهم او تبادل الحديث مع احدهم، ظننت بأنه خائفاً بشأن هربي او تحسباً لئلا يتعرف احدهم عليّ، إلا أن الامر لم يكن بهذه السذاجة، كان (شهباز) يُخطط لأن يجعلني (المُلا آخوند).

كنت اراهم وهم في أعمارٍ حائرة، ذوو عقولٍ فارغة، يملؤها من يملؤها قدر تمكنهُ من الرياء والتظاهر بأنه فقيهً في الفقه، قدر رعونته في حمل السلاح ليتظاهر بأن لهُ باعه الطويل في الجهاد وفي قتال عدو الله، عدو الله الذي اختلط امرهُ علينا، كانوا شديدو الغرابة في طرق تعليمهم، كانوا على أهبة الاستعداد لأن يُضحوا بأنفسهم بإشارة من معلمهم، يصرخون (الله اكبر) مع نهاية كُل جملة تحثهم للقتال يهتف بها مُعلمهم.

يسألني (قريني) مُقاطعاً: كيف أصبحت واحداً منهم؟

أجبتهُ: ذات ليلة، كُنا نتجول حول المقاتلين، كان قد مر على هربي من (أفغانستان) ما يُقارب عشرة أيام، مُتلفتاً انظر الى المقاتلين في تدريباتهم فيما كان (شهباز) يتحدث مع احد المشايخ، كنت انظرُ الى تليمذين كانا يتبارزان على أيهما قادراً على تفكيك أجزاء سلاح البندقية بوقتٍ أقل، نادى عليهما معلمهما لينضما الى بقية الطلبة الجلسين على الأرض امام لوحة يشرح عليها مُعلمهم، بيد كل منهم بندقية، وما أن انهى (شهباز) حديثه سِرنا الى الامام ثم توقف مُجدداً ليحدث شخصاً اخر، التفتُ مُجدداً فرأيت أولئك الطلبة يتبارون جميعهم على أيهم أسرع في فك وتجميع أجزاء (البندقية)، اشاهدهم وهم بأعمارٍ تليق بها القراءة لا البندقية، وضع (شهباز) يدهُ على كتفي ليحثني على

السير، كان قد أنهى حديثه ولم اشعر به، سرنا قليلاً فمزحت معه ....

قلت له: هل تسمح لي بأن أشارك في هذه المسابقة؟

اجابني بوجهٍ ضاحك: وهل أنت ماهرٌ في فك أجزاء البندقية وفكها؟

اجبته: هل نسيت؟ حين كُنا في السجن اخبرتُكَ بأنني كنت اعمل في تصنيع الأسلحة في (دارا ادم خيل).

وضع يده على فمي ليخفض صوتي، قال: صه .. صه .. لا تخبر أحداً بأننا كُنا في السجن، لا تخدُش تلك الطاعة التي ننعمُ بها، هيا ارني مهارتك وتفوق على أولئك الصبية، هيا.

كان قد أنهى الطلبة تبارزهم، ذهبت الى معلمهم وطلبت منه أن ينتبه للساعة التي بيده جيداً، فككتُ أجزاء السِلاح ورّكبتُها بسرعة فائقة، ابهرت كُل من كان ينظرُ ألي، نظر لي (شهباز) نظرة اعجاب، نظر لي الجميع بعدها ذات النظرة، مزحتُ وأنا أُعيد السلاح الى المُعلم وأقول له: "أتود أن اصنع لك مِثلها صباح الغد"

رجعتُ لأسير برفقة (شهباز)، ظل الضَحك يعتلي ملامِح وجوهنا أثر دهشة الطلبة ومعلمهم لما قُمت به، وسط ذلك المشهد ....

سألتُ (شهباز): ما هذا المكان؟

قال: مُعسكر تدريب.

قلت: لمن؟ ولمحاربة من؟

اجابني: لمن يريد الجهاد في سبيل الله والغاية منه هو تحرير (افغانستان).

توقفتُ ونظرت لهُ بتعجب: تحريرها !! تحريرها ممن؟

قال بتفاخر: من تلك الحكومة التي تفتك بشعبها كُل يوم، ألا ترى ما تفعلهُ الحرب الاهلية بشعب (أفغانستان)؟ ألا ترى حجم الخراب؟ الدمار؟ عدد الضحايا؟ أنت احد الضحايا، (أمين) سينتهي كُل هذا بفضل هؤلاء المقاتلين الشُجعان، سيكون الحُكم وفق شرع الله، شرع الله ولا غيرهُ شيء.

واصلت السير أفكر بما يقوله، التفتُ له مُجدداً لأسأله: "لمَ لم يوجد هذا المُعسكر أبان التدخل الروسي؟ لمَ لم يتواجد ضد المُحتل وتواجد ضد حكومةً رغم سيئاتها (افغانية)؟ لمَ يتواجد تحديداً هُنا في (باكستان)؟ ما شأنُها وشأنُنا؟"

ترددتُ في النُطق هذا السؤال، ولكني لم اتفوه به، ما أن فتحتُ فمي لأسأل (شهباز) تذكرتُ أنهُ (باكستاني) وسيجرحهُ كلامي، ما فعلهُ لأجلي ايضاً كان كفاً يكتم أفواه اسئلتي، لم اسألهُ اياً من تلك الاسئلة، واصلت سيري خانعاً، فأنا لا حول لي غيره.

هممتُ بالوقوف، انظر لما حولي من غرابة، ذات المكان الذي أظنهُ يفصل بين الفعل والعِقاب، بين الموت والبَعث، بين الجنة والنار، بين رضا الله وسخطه، بين أن تكف عن مُحاسبة نفسك وأنت تتذكر ما اقترفتهُ في سنين حياتك التي مرت كلمح البصر وبين أن تجلس قرير العقل، أنا غير خائف مما ارتكبت، ولكن كيف يكون ذلك!! هل بإمكان انسان ان لا يُذنب طوال حياته، كيف!، سرت بخطواتٍ بإتجاه (قريني)، زال ذلك الحاجز الهُلامي الذي كان يمنعُني من التقرب منه، صرت اقف بقربه، أنظر لما خلف ذلك المُنحدر الذي ينتهي إليه مكانُنا الغريب، وقفت موازياً له أنظر لضحاياي، عددهم كبير، بحثتُ عن أخي فلم اجده، لعلهُ كان وسطهم ولا يمكن لي رؤيته، قدمتُ احدى أرجُلي لأنزل اليهم وابحث عنه، جرني أحدٌ الى الوراء بقوة حتى ارتطم رأسي بالشجرة، ارتميت على الأرض من قوة الارتطام، لكنني لم أتألم، اغمضتُ عيني وفتحتُها لأصدق ما حصل، كان (قريني) واقفاً في مكانه ولم يتحرك، من سحبني بهذه القوة؟

عدتُ لأجلس، سألت قريني: من هُنا غيرُنا؟

اجابني: كُل من ماتوا قبلك؟

قلت: لمَ لا أرى احداً منهم؟

قال: عن من تبحث؟ لا تقترب اكثر مما سمحتُ لك به.

سألتهُ: لمَ تقبض بيدك السلاسل قبل أن تنحدر إليهم؟

قال: لأحميك منهم، يريدون اخذك لمُلاقاة حِسابك، هم يريدون سحبك بسلاسلٍ الى ربٍ عادل لتُلاقي مصيرك أمام أعينهم، ليُحاسبهم الله بعد حسابك، منهم قد يُغفَرُ لهُ بسببك، منهم من سيُعفى عن الإجابة والتبرير عن أسباب عدم تكفيرهُ لذنبه بسببك، لأنك طردت ارواحهم من تلك الحياة، لأنك سرقت منهم فترة امتحانهم، سرقت منهم فرصتهم، قضمتُ أعمارهم بجشعك وحُبك للانتقام والسُلطة وحُبك لنفسك، يريدون جرك لأنك قتلتهم، امسك بهذه السلاسل لأمنعك عنهم، أمنعهم من أن يؤذوك، امسُك بهذه السلاسل لأنني أُحُبك.

كيف لشخصٍ أن يحبني وأنا على ما أنا، كيف لشخصٍ أن يَحُبَ ذلك المُعاق السليم المُكنى (امين) !!

اركنتُ عُكاز الندم على الشجرة وعُدت لأجلس، واصلت الذكرى، اصبحتُ أتذكر كُل شيء، باتَ كُل شيءٍ واضحاً، كل شيء عدا موتي، لا اعرف كيف مُت؟ ومتى؟ أظن أن من بين أسباب موتي كانت لعنة ذلك الأب الظالم.

قال قريني: كيف انتميت لحركة (طالبان)؟

خائفٌ لئلا تسحبُني السلاسل الى عذاب السعير، خائفٌ من انتقام ضحاياي مني، كيف تجرأتُ على التقرب منهم!! واصلت الذكرى وأنا ارتعد خوفاً.

كُنتُ أحبو الى كتف (بروين) كلما انتابني خوفٍ كمثل هذا الخوف، احبو كطفلٍ يهرب الى صدر أمه كلما سمع صوت اطلاقات رصاص، كانَت ملاذيّ الامن كُل مساء، كُلما اشتد بي الألم، كانت تسمعُني الى ان انتهي دون ان تتفوه بكلمة، كانت تبتسم بوجهي مهما كانت مُتعبة، كانت تتمنى أن تُنجب طفلاً لكنني لم احقق لها ما تمنت.

احتاج الان لأن احبو إليها، حتى لو كانت في السماء، ماتت هي قبلي، أتذكر جيداً مرارة موتها الأسود، آلمتني برحيلها الباهت، في أي سماءٍ ابحث عنها وأنا الان في السماء، لعلها بسماءٍ اجمل من سمائي، فهي طاهرةً بلا ذنب، نقية من أي خطيئة، ناصعة الحَسنات الكفيلة لأن تَزجُ بها بأعلى درجات الجِنان، كنتُ اسُبح للرب بُكاءً حين اراها تختنق، وفرتُ لها العلاج حتى مماتها، بحثتُ لها عن علاجٍ يقي من الموت ولم اجد، كانت تختنُق بأحزانها اشد اختناقاً من مرضها تناثرت أجزاء الكون يوم وفاتها لما حملتهُ من ألم ويأس طوال حياتها، اذكُر تلعثُمُ حديثها في اول أسابيع زواجُنا، اذكر ضحكها ومِزاحها بعد أن شُفيت قليلاً من مرضها، باتت شخصاً غير (بروين)، اضحت ملاكاً بأجنحةٍ وهالةٍ فوق الرأس، اضحت اجمل مما رأيتُها من وراء ذاك الخِمار، قضيت برفقتها سنواتٍ قليلة لكنها كانت وفيرةً بالحُب، تعلمتُ منها أن الحُب عطاء، أن تسَعد مع من تُحب لأنك تعطي وليس لأنك تأخذ، أن لا تقيس حبهُ لك قدر ما يمنحك، بل بقدر ما تعطيه أنت له، الحُب عطاء، علمتني بأن الحُب أنصافاً مُكتملة وليس أنصافاً تبحثُ عن الكمال، علمتني أن السعادة في الحُب شريطةَ أن نكون معاً وليس شريطة أن نكون اغنياء.

عشِنا في مدينة (هُراة)، منعتني حركة (طالبان) من مغادرتها إلا بأذنٍ منها في الوقت الذي كُنت فيه والياً لأغلب أمور المدينة برفقة قياديّ الحركة، عِشنا سوياً بمعزلٍ عن كُل ما يُحيط بنا من جهل، علمتُها القراءة والكتابة، ألقيت لها أبياتاً من قصائد الغزل

الجاهلي، هي كشعوبنا، مُكبوتةً عن سماع الشِعر وأنواع الادب، محرومةً من قراءة القُصص والروايات، كان مُحرماً على النساء سماع قصائد العزل، فالغزل عُدَّ خصيصاً للإناث وهذا مُحرماً بنظر فِقه ديننا الذكُوري بتصرف.

كُل من كان معي يُملكُ الكثير، نساء وبيوت وأموال وسيارات وإماء و وجواري وزوجات أربع يتغيرن بين الحين والأخر شريطةَ ألا يتجاوزن الأربع، لم أملك سوى السُلطة، لم أمتلك بيتاً فخماً، أكتفيت بالسكن في منزلٍ صغير مُنعزل، لم أمتلك أي جواري أو إماء، لم ....

يُقاطعني قريني: غريبٌ أنت بالفعل، اقترفت كُل ذنوبك بمحض ارادتك وحين تستذكُرها تكون وكأنك غير راضٍ عنها، أنت لم تمتلك الإماء ولم تتزوج أربع نساء لأنك لم تكن تُريد أن يكون لكَ أطفال، لولا هذه الفكرة لكنت كما كان كل من حولك، أليس كذلك؟

أجبته: ما تقولهُ صحيح، لم أكن أريد ان يكون لي أبناء، لم أكن اريد لمأساتي أن تتكرر، اردتُ بموتي أن يموت (أمين) وأن لا تبق لهُ ذكرى، لم اكن اريد ترك في تلك الحياة أي شيء، الحياة بُقعةً سوداء لا تستحق سوى الذم، كل من عليها لا يستحق الحياة، الموت ملاذنا الآمن، ولكنني بالفعل كنتُ ابغضُ التفكر بالجواري والإماء و وجودهن في بيتٍ واحد برفقة الزوجات امراً يُثير اشمئزازي، هذا المشهد يُذكرني بأبي وبمنزله.

لم يُجيب (قريني) بكلمة، لم اعلم ان كان يُصدقني أم لا، لم أعد اكترث، لم يعد هُنالك وقتاً للندم، كما لم يعد هُنالك ندماً يكفي لأن يمحو ما اقترفتُ من ذنب، ما اقترفتهُ برفقة حركة (طالبان) أشد وألعن، قَتلتُ الكثير وهجّرتُ وشردتُ الكثير، حرمتُ أمهاتٍ من أبنائهن وحرمتُ أباءٍ كذلك، قتلتُ كُل من يُخالف شرعنا وهو بالغ الحُلُم، اقمتُ الحدود وفرضت التعازير،

قطعتُ أيدي السُراق دون شهود، فرضتُ حد (الزنا) دون شهود، فرضتُ الضرائب ولم اسرق منها شيئاً، هم سرقوا الكثير، اقترفتُ الكثير من الذنوب إلا أنني لم يكُن يوماً بحوزتي غير الذي أملكه.

دخلتُ (أفغانستان) بعد بضع شهورٍ من دخول (طالبان)، أدى التفكك في المُجتمع الافغاني الى الخنوع الشديد لأي مليشيا مُسلحة تنوي الاقتحام، كانوا يودون الخلاص من حربٍ أهلية قَتلَ أطرافها شعب أفغانستان بكل مُسمياتهم، كان رجائهم ابان دخول (طالبان) بأن يكون الخلاص على أيديهم، إلا أن الخلاص بالفعل كان بمجيئهُم، ولكنهُ كان الخلاص من الحياة، كان الاجتياح الاول من قبل انصار الحركة من الذين كانوا يتلقون افضل التدريبات في المُعسكر الذي كنتُ امكثُ به برفقة (شهباز) كنتُ اراهم يرتدون افضل الألبسة ويقتنون اجود أنواع السلاح، حتى طعامهم كان من افضل الأنواع، ظل الممول لهذا المُعسكر سراً لم أتمكن من الاطلاع عليه او التعرف عن أي جهة كانت تمول هذا التنظيم الذي يوازي تنظيم دولةً مُصغرةً بالمُعدات والخُطط الاستراتيجية حتى أيديولوجية هذا التنظيم كانت مبنية بخطواتٍ ولم تكن عبثية أو بأثر الدعوة للجهاد، كانت هُناك بنى فكريةً وضعوا أسُسها لشهورٍ عديدة قبل انشاء هذا المُعسكر.

ذات صباح، قررت أن اتغاضى عمّا كان يعرفنُي عليه (شهباز) في الماضي، كما يتغاضى هو عن ماضيه، طلبت منهُ أن اعمل برفقته، مرت أيام وأنا اتبعهُ كالصبي الصغير، أنتظر أن يأذن لي بالأكل أو بالتحدث، طلبت منهُ أن اعمل، لكن ردهُ جاء بالرفض، قال لي: "لم يحُن الوقت بعد، اريد لك مكانةً في صناعة العقول لا في صناعة الأسلحة، صبراً جميلاً يا أمين"

بعد تحرُك أول فوجٍ مُقاتل للحدود (الأفغانية – الباكستانية) ازداد عدد المُتطوعين في المعسكر من الأفغان المُشردين في شوارع (بيشاور)، التجأ للمعسكر مُشرديّ العيش والعقل،

فمُشردي العيش جاءوا ليناولوا بعض الطعام والمأوى، أما مُشردي العقل فاقتادتهم آيات الجهاد اللائي يتلوها شيخ مسجدهُم بصوتٍ باكي في كُل صلوات الجماعة، ذات مساء دخل عليّ (شهباز) ...

قال: أتود أن تكون باكستانياً؟

أجبته: أفضل أن أكون أي شيء على أن أكون ميت.

مد يده وأعطى لي بعض الأوراق، قال: هذه اوراقك، من اليوم أنت لست (أمين)، اصبح لك اسماً جديداً، أسمك من من الآن (آخوند).

اخذت منهُ الأوراق واطلعتُ عليها، نظرت لهُ بتعجب وهو ينفخ بي الروح من جديد لأظهر الى الحياة، غمرتني الفرحة حتى نسيت أن اشكره.

قال لي: سأكلفك بقيادة مجموعةً من المُقاتلين بحكم خبرتك في السلاح، ولكن يتوجب عليك لقاء مرؤوسينا عند المساء.

قررت في ذلك اليوم أن أكون (المُلا آخوند)، جمعتُ كل أفكارٍ ومبادئ التي اكتسبتُها من ذلك القبو واضرمتُ بها النار، حرقت كُل ما كان بجعبتي من كُتب، حرقتُ كُل شيء يخرجُني عن عامة عادات وأطباع من حولي، عشتُ ذليلاً برفقتها، كان مُقدراً لي أن أعيش ملكاً، قائداً، أميراً، حتى إلهاً لو أحببت.

بايعت الأمير عند المساء على السمع والطاعة، بايعتُ نفسي على أن أنتقم من كُل من آلم بي، بايعتُ نفسي على قتل أخي، بايعت نفسي لو أنني رأيتُ أبي يُبعثُ حياً لقبلّتُ قدميهِ واعتذرت له، أنا المُخطئ، أنا المُذنب، أنا الرذيل من بعد العِزة، أراد لي الكرامة و ابيت على ألا أكون إلا حقيراً صغيراً، اسير خلف (شهباز) لأبدي لهُ الطاعة وأنا أكبرهُ بآلاف الكُتب والأفكار، أكبرهُ ببحوث علمية لا يتمكن من فهم بضع اسطُراً منها، بايعتُ نفسي

على أن أكون عظيماً كيفما يريد المُجتمع من حولي وليس كيفما اريد أنا، ايقنتُ بأننا وجِدنا في مجتمعاتنا كما خلق الله الكائنات، منها البري والمائي والبرمائي، كُلاً بحسب بيئته، ما أن خرج أحدهم من بيئته إلا وتلقى حتفه، هكذا نحن في مُجتمعاتنا نموت لو خرجنا من بيئتنا، علينا أن نعي ذلك، رفضتُ مراراً الإذعان لهذه الفكرة حتى عُدتُ لها حانقاً، بايعتُ نفسي على أن لا يتكرر (أمين).

بدأتُ بتدريب الصبية الذين أوكلوا أليّ، القيت عليهم كل ما احفظ من آياتٍ وأحاديثٍ تحثُ على القتال، وضعتهم في صندوقٍ مُعتم يُسمى (فقه الإسلام) وأغلقتُ عليهم بإحكام، كّذبت كُل ما يخدش طاعتهم لي وألقيت بالقُدسية لولائهُم لي، ازداد عدد أتباعي بشكلٍ ملحوظ، صاروا يأتون ألي من مجاميع غير المجاميع التي ادربها، لاقى اعجابهُم ذلك الجهل الذي اوهمتهم به، وعدتهم بالجنة وحدثتهم عن بعض اجزائها، وصفت لهم (حور العين) حتى سال لُعابهم، منحت الاحكام الشرعية لكل نزاواتهم، زرعت بهم الطُمأنينة، اخبرتهم بأن سرقتهم غنائم، وأن زِناهم تمتُع جائز، وأن قتلهم جهاد، وأن كل من يُخالفهم الرأي مُرتد وجب قتله، ابتسموا لسماع ذلك، وقُبيل خروجهم اخبرتهم بأن كل ما افرحهم هو متاع الدُنيا الزائل وأن موعدهم جزاء ذلك جناتٍ تجري من تحتها أنهار الخمر، تلذذوا بما قلت ولم يكن من بينهم احداً يعرف طعم الخمر ليتلذذ به، حرمانهُم منه في حياتهم ومنحهم إياه في وقتٍ مُبهم سر هذا التلذذ، أنا على يقينٍ تام بأن اشد انواع التجارة ربحاً هي تجارة الأشياء الموجودة لما بعد الموت، لأن الى الان لم يرجع أحداً الى الحياة من بعد موته ويكشف أمر تجارتنا الكاذبة.

القيت على مسامعهم الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}[121] ليتوقف عن الشك اياً منهم من كان على شاكلتي، خفت لئلا يكون بينهم من يشبهني، اعدتهم الى تلك العصور التي كان يظن فيها الناس بأن صوت الرعد وضوء البرق غضباً من الله على عباده لعدم دفعهم (العشور)[122] الى الكنيسة، كنتُ على اهبة الاستعداد لأتحرك الى (قندهار)، الهدف الأول والاهم لحركتنا من بين المُدن الافغانية، كان للحركة جذوراً عميقةً هُناك، الكثيرون هُناك على الاستعداد للقائنا والترحيب بنا، كان هدفاً سهل المنال ومن دون أي عناء او خسائر، في1994/11/3 شهدت (قندهار) اول فتوحاتنا البَشعة، لم يُكلف الامر سوى (40) قتيلاً، لم يَسمح لي (شهباز) بالتحرك مع المقاتلين الذين دخلوا (قندهار) وباقي محافظات، اعزى الامر حين سألته الى أن القيادات تبحث عن اسنادٍ لما بعد الاجتياح، اخبرني بأنه لا يُريد أن يُخاطر بي فقد تكون هُنالك اشتباكاتٍ ومُقاومة من قبل القوات الأفغانية أو ميليشياتها المُسلحة، في صباح الخامس من أيلول عام 1995 سيطرت الحركة على مدينة (هُراة)، شاع الخبر وسط مُعسكراتنا في (بيشاور) والتي تَزايد عدد مقاتليها مع ازدياد تمويلها من قبل الدول التي تُسعَد لسماع تطبيقنا للشريعة الإسلامية، أوعز لي (شهباز) بأن هُنالك أوامراً

---

[121] القرآن/ سورة المائدة/101

[122] في عام 1752 اكتشف (بنجامين فرانكلين) أن البرق هو شُحنات كهربائية موجبة وسالبة تلتقي ببعضها فيظهر صوت الرعد وضياء البرق فأوصى الناس بعد تجربة (الطائرة الورقية) بوضع أعمدة حديدية فوق بناياتهم لمنع تلاقي الشُحنات لمقربة منهم على الأرض بعد أن كان الاعتقاد السائد هو ان الرعد غضب الرب لعدم دفع العشور الى الكنائس، تلقى (بنجامين فرانكلين) بأثر تجربته هذه اتهامات من أساقفة الكنائس قضت بتحريم هذه الاعمدة، والعشور: هي أموالٍ تُشبه الزكاة الى حدٍ ما في الدين الإسلامي، يدفعها المسيحيون الى الكنائس، وقد ورد ذكرها في التوراة عن النبي (يعقوب) حين رأى سُلمًا بين السماء والأرض أنه قال لله: {إن كان الله معي وحفظني..ورجعت بسلام إلى بيت أبي، يكون الرب لي إلهًا..وكل ما تعطيني فإني أعشرهُ لك} - التوراة/ سفر التكوين/ الإصحاح 28: 20 و22

تأمرني بالتحرك الى مدينة (هُراة) وبمعيتي المُقاتلين الذين كانوا تحت تدريبي، تحركتُ مُسرعاً ناقلاً معي الياتٍ ومُعداتٍ لم أكُن أتوقع أن يوجد نصفها في مخازن المُعسكر، وما أن وصلت، أوكِل لي على الفور مهام فرض الامن والسيطرة على الأراضي المُحررة من الحُرية، المُتجهة نحو الجهل والعصور المُظلمة بفضل قياداتنا المُلتحية.

وقفتُ على أبواب الشرف لأكون رذيلاً، تحسستُ وطني ولم أجده، وجدتُ نفسي أخونهُ في العلن، وقفتُ وسط الغُرباء لألقي بقذائف (الهاون) على مُدن وطني، كنتُ بأبهى صور الخيانة وأنا احشو مدافع الأعداء لتقصف مدينتي (كابل)، حشوت ادمغة كل من كان تحت طوعي بثقافة الكراهية، ألقيت على مسامعهُم أنواعاً من قنابل الفتنة، زرعت روح الانتقام التي احملهُا وأنا عائداً الى وطني بروح كل من كان تحت طوعي، اخبرتهم بأننا نُقاتل من اجل رفع راية الدين، نرفع راية الدين بُغية نَصرتهُ حتى لو كلفنا الامر اوطانُنا، اخبرتهم بأن كُل من ليس على ديننا فهو كافر، وأن كُل من كان على ديننا وهو مُعارضاً لمنهجنا فهو مُرتد، وبالتالي قتل كلاهما جائز.

وأنا القي بقذائف (الهاون) والصواريخ لم أكترث لوجود المدنين، جميعهم كُفار لأنهم ليسوا على منهجنا، لن يَسلم أحداً منهم حتى يؤمُن بعقيدتنا ويُبايُعنا، قصفنا مدينة (كابل) يوم 1996/9/27 قُبيل الاستيلاء عليها، تلقينا الدعم من (قلب الدين حكمتيار) و(عبد الرشيد دوستم) ولكن سرعان ما انقلبنا عليهم وطاردناهُم وحاولنا مراراً اغتيالهم، تحالف (حكمتيار) مع قوات (أحمد شاه مسعود) ولكنهُ انتهى بالفشل والهرب إلى (إيران)، هرب (عبد الرشيد دوستم) ايضاً إلى (أوزباكستان)، انهارت بعد ذلك كُل القيادات الأفغانية وهربت الى الخارج، انسحب (أحمد شاه مسعود) إلى وادي (بنجشير) حيث تحصن ضد قواتنا ليبدأ قتاله ضدنا.

ليس هُناك شيء اكثر حقارةً من أن تخون وطنك، مهما كان الدافع ومهما كانت الأسباب او الأهداف، تشعر بكمٍ هائلٍ من الاحتقار حين تتجول داخل وطنك بعجلات عدوك، أن تُصادف أبناء وطنك وأنت تشهر بوجههم سِلاحاً من صُنع عدوهم، ستظل أصغرهُم حجماً وأقلّهم قيمةً مهما كُنت ومهما ستكون، كُن كما تهوى وقتها وخطط لما تشاء فأنت زائل.

يسألُني قريني: هل أنت نادم؟

وأنا انظر لسماءٍ فوقي لا زلت لا أملك أي دليل علمي على وجودها ....

أجبته: نادمٌ جداً.

سئمتُ كثيراً ما كُنتُ عليه قبل أن أكون مع (طالبان) وسئمت اكثر منهم وأنا معهم، كُنت مُجبراً على الانضمام لهم وفَرِحٌ في ذات الوقت، كانوا أملي الوحيد لأن أكون قوياً، كانوا الملاذ الآمن مما يدور حولي ومما نعيشُ به من واقعٍ ليس للضُعفاء أي مُفرداتٍ بين سطوره، فَرِحٌ لأنني حققت انتقامي، انتقامي من نفسي أولاً وممَن قتلني ثانياً، ما فعلتهُ بأخي وقتها كان اقسى من الموت، طالت أنيابي وأنا في طريقي لاجتياح (أفغانستان)، عدتُ وأنا (آخوند)، أضمُر أحداث مقتل (أمين) وأدفُن بداخلي جُثته، على طول الطريق وأنا افكر في الانتقام ممن قتله، لم يكُن يشغُل بالي شيء قدر انتقامي من اخي، التقيتُ (بشهباز) بعد تَمكُن الحركة من إحكام زمام الأمور في (كابل) وضواحيها، جاء الى (أفغانستان) ومعهُ كُل المُتدربين والقيادات، سألتهُ عمّا سيؤول إليه المُعسكر فأخبرني بأنهُ آل الى ما كان يروم إليه بعد السيطرة على (كابل)، فكرتُ ملياً بكلامه، فكرتُ حتى وضَحت لي كُل الأهداف السياسية التي كانت تضمرهُا تعاليمهم الدينية في تلك المدرسة، الدينية عند الصباح والعسكرية أبان حلول المساء، كانت جُزءً من حركة (طالبان) الباكستانية ولكن بغير

أيديولوجيات، اكتشفت ذلك حين وجهت لي الحركة أوامرٍ بقمع أي نشاط لمعتنقي الطائفة (الشيعية) في (هُراة) والحذر من الحدود التي تفصلها عن (إيران)، أصدرت الحركة أوامر بأعتبار (الشيعة) مُرتدين عن الدين ويجب أقامة حد الردة عليهم، أوجب عليّ تطبيق هذه الأوامر.

يسألُني قريني بصيغة التعجب: هل طبقت هذه الأوامر؟

قلت بصوتٍ نادم: نعم، قطعنا رأس عددٍ منهم، وما تبقى منهم هرب الى الحدود بعد ان سمحت لهُ الحكومة الإيرانية باللجوء داخل أراضيها، كان عددهم قليل جداً ازاء بقية الطوائف.

يسألني قريني: هل تساءلت يوماً لمَ تأمركُم الحركة بقتل (الشيعة) في (أفغانستان) وهي لا تقتلهم في (باكستان)؟ أليست التوجُهات والأيديولوجيات ذاتها؟ لما الأمان والاستقرار يُفرَض في بلادهم بالقوة ويأتون لبلادكم ليفرغوا طاقات القتال والتفرقة وقطع الرؤوس؟

تأخرتُ في أجابته، يثقُلُ الندم أكتافي وأني اسير بخطواتٍ حائرة، يَثقُل لساني تعجب كبير، كيف فعلتُ ذلك!! أحوم حول الشجرة مُتسائلاً "ماذا كان بأمكاني أن افعل غير ما فعلت؟" أنظر لكل شيءٍ غريب حولي، السُحب تسير بسرعةٍ غريبة، تهب الرياح ولا أشعرُ بها، سهلٌ ساكنٌ لدرجة أنهُ شابه مقابر جنود مُحتلين قُتِلوا على أرضٍ تم تحريرها، ماذا فعلتُ في حياتي! لمَ صرتُ نقيضُ نفسي؟ أنا أم القدر؟ أم كُل لحظة تشرد كانت كفيلة لأن تجعلني أسوء مما كُنت عليه؟ ما أسوء من أن أكون قاتلاً بأسم الدين وبأسم الرب؟

يسألني قريني مُجدداً: هل (الشيعة) فعلاً مُرتدين؟

أجبته: أنتَ تفقه ما هي (الردة) أولاً؟ الردة بحسب الاحكام الفقهية هي ترك الإسلام بعد اعتناقه، أما (الردة) اليوم فهي تجلي

واضح للدكتاتورية الدينية وهي بأعظم صورها، هي العذر الشرعي لان تُطيع الحاكم الذي تُخالفه الرأي لئلا يتم قتلك، اعتراضك على أحكام الحاكم اليوم هي (الردة)، أرى بأن الفقهاء هم من اخترعوا احكام (الردة) بعد أن لم يرد لها نصاً في كتاب القرآن ليمنحوا لها اعلى درجةً من القداسة، اوردوا حديثاً للنبي ينص على: "من بدل دينه فاقتلوه"[123] قالوا بأن السلف الصالح أقام حد (الردة) حين قُتِل كُل من ارتد بعد وفاة النبي ظناً منه بأن الدين أنتهى، قالوا بأن (ابو بكر) أول من أمر بقتل المُرتدين، أقف عند كل ما ورد موقف المُعترض حين أنصت للآية:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا}[124] أتساءل، من هم أولئك الذين امنوا ثم كفروا ثُم أمنوا ثم كفروا ولم يُطبق عليهم حد الردة؟ ألم يرى الحاكم وقتها أنهم لمرتين مُتتاليتين آمنوا ثُم كفروا؟ ألم يُكن المُشرع للأحكام أو ناقل هذه الاحكام الإلهية لا يزال على قيد الحياة حين نُزلت هذه الآية؟ لما لم يقتلهم؟ لما تركهم يؤمنون ويكفرون بمشيئتهم؟ على الأرض اكثر من مليار مُسلم، أكاد أجزم بأن لا أحد منهم قارن بين أحكام (الردة) التي أوجدها بعض الفقهاء لنصرة فسادهم وطُغيانهم وبين آياتٍ نُزلت بقرآن لا يقبل الشك، لم يقارن أحدهم الآية التي تُحاور النبي وتقول له: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}[125]والآية :{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}[126] لأن ديننا دين شخوص، كان من السهل جداً إيجاد حَد الردة وتغيير مفهومه على مر الأزمنة، في السابق كانت الردة عن الدين ، باتت اليوم الردة عن المذهب، وغداً ستكون الردة عن قرارات الحاكم، سيتم

---

[123] انظر: صحيح البخاري/ كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/ باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم/ الحديث رقم 6524

[124] القرآن/ سورة النساء/137

[125] القرآن/ سورة الغاشية/21،22

[126] القرآن/ سورة النحل/125

الحكُم بالقتل على كل من يُخالف توجُهات الحاكم، الردة أوجِدت، الردة لم تكن موجودة ضمن التشريعات الإسلامية انذاك، أوجدت بحكم الفقه المتوارد للحفاظ كذباً على الدين وللحفاظ صراحة على ما ينهال به على قادتهِ من غنائم ومن سُلطة عمياء تُضاهي سُلطة ملك الموت في قبض الأرواح، دينُنا دين شخوص، تتجلى صور (الشخوص) في مذهب الشيعة الامامية كغيرها من المذاهب في دين الإسلام، هم الأشهر والأكثر صراحة بأيمانهم بالحاكم (الديني السياسي)، الشخوص عند الشيعة حيث وجدوا وجِد الدين، وكل من خالف هؤلاء الشخوص فهو خارج المِلة، عُرِفوا بأنهم اكثر فئة ظُلِموا على مر العصور، ظلمهم هو سيفهم الذي يشهرونه في كُل زمانٍ ومكان مطالبين بمسك دفةَ الحُكم، او لأن يكون الحاكم على شاكلتهم، حتى باتت طقوسهم تتمثل بإظهار هذا الظُلم بالنعي والبُكاء وأذى النفس، يُشير التاريخ الى إتباعِهم للخليفة الرابع (علي ابن ابي طالب) تبعاً لعِلمه وزُهدهِ وعدله، وأظن بأن كل ذلك كان من أسباب حبهم له، أما السبب الجوهري لإتباعهم له هو صلة قرابته الوثيقة من النبي، لأن ديننا دين شخوص، كان وجود (علي ابن ابي طالب) يتمثل بحُسب ظنهم الدين ذاته، لأنهُ كان من أوائل المؤمنين برسالة النبي وكان من شُجعان قريش وذو مكانة مرموقة، تجلت صور (الشخوص) بتكرر إتباعهُم لأولاده وأحفاده، تكرر الامر (12) مرة من بعده، ولعل الامر توقف عند هذا الرقم ولم يستمر الى يومنا هذا بسبب اختلافهُم على وجود (ابن) لإمامهم (الحسن العسكري) والمُسمى (المهدي) من عدمه، أورد المؤرخون أن الإمام الحادي عشر (الحسن العسكري) أنجب طفلا واسماه (محمد) وظل يحاول اخفاءه عن الناس إلا المقربين منه فقط خوفا عليه من سطوة الدولة العباسية التي كانت تنكُل بالعلويين في ذلك الوقت، بعد أن كان في

إقامةٍ جبرية في مدينة (عسكر)[127] ليكون تحت أنظار السلطة، شخصية (المهدي المُنتظر) لا يوجد لها دليل تأريخي، أوردها التأريخ بهذا الشكل وبَقيَت غائبة، وهي بدورها اتمت الأئمة المُتبعين الاثنا عشر وأوقفت توارث الإمامة، لعل هذه الطائفة أوجدت هذا الرقم استنباطاً من الديانة المسيحية، أثراً لحواريي المسيح الاثنا عشر، أو لما رواهُ (البخاري) عن النبي بأن الامر لا ينقضي إلا بمضي اثنا عشر خليفة[128] أو اثراً لميثاق بني إسرائيل كما نصت للآية: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً}[129] هؤلاء الاثنا عشر، ورُغم مركزية انتقال هذه الإمامة، إلا أنهم تفرقوا عدة مرات بسبب أحقية الإمامة للأولاد والاحفاد، انشق من (الشيعة الامامية) (الإسماعيلية) و (الزيدية)، الشيعة الإسماعيلية وجِدوا بعد وفاة أمامهم السادس (جعفر الصادق) الذي أوصى بالإمامة لأن تكون لأبنه (اسماعيل) والذي توفى في حياة أبيه مما جعل بعض الشيعة يقولون بأن اخوه (موسى الكاظم) هو الاحق بالإمامة لأن من المُفترض أن يكون الأمام عالماً بشؤون المستقبل فكيف يوصي بالإمامة لشخصٍ سيموت وهو من المفترض عالم بموته! ظهرت (الإسماعيلية) إلتزاماً بوصية (جعفر الصادق) بأنهُ الأمام من بعده، وأستمر تزامناً مع ذلك الشيعة الامامية بأتباع (موسى الكاظم) بحكم أنهُ من غير المعقول اتباع شخصٍ ميت، أما (الزيدية) فهُم فرقةً يُنسبون الى (زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب)، هُم الفرقة الثائرة عن فكرة (الشخوص) المتوارثة

---

[127] العسكر: مدينة أسسها (صالح بن علي العباسي) اول ولاة العباسيين في مصر سنة (133 هـ - 750 م) شمال مدينة الفسطاط لتحل مكان الفسطاط كعاصمة.

[128] نص الحديث على: "عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْقَضِي حَتَّى يَمْضِيَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً قَالَ: ثُمَّ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ خَفِيَ عَلَيَّ، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَبِي: مَا قَالَ؟ قَالَ: كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ" - انظر: صحيح بخاري/ الحديث رقم 7222

[129] القرآن/ سورة المائدة/12

عند الشيعة الامامية، نشأت في القرن الثاني الهجري، قروا بجواز وجود أكثر من إمام في وقتٍ واحد في قطرين مختلفين، الإمامة بمفهومهم ليست وراثية بل تقوم على البيعة حيث يتم اختيار الإمام من قبل (أهل الحل والعقد) شريطةَ أن يكون صالح وتقي ولا يعاني من عيوب جسدية او عقلية، هاشمي من سلالة (علي) و(فاطمة) بنت النبي، إلا انهم إسقطوا فيما بعد شرط النسب الهاشمي للإمامة، ليس لديهم مواقف عدائية اتجاه الخلفاء الراشدين على خلاف الشيعة، يعتبرون (أبي بكر) و(عمر بن الخطاب) من كبار الصحابة الأفاضل، لا يعارضون الصلاة خلف إمامٍ من طائفة (السُنة) ولا يقرون بزواج المُتعة ولا يمارسون التقية ولا يقدسون القبور والأضرحة ولا يحجّون لها، أتباع (الزيدية) اليوم لا يؤمنون بأن (المهدي) مُنتظر، وهو ليس شخصية مقدسة ولا يؤمنون بالرجعة، يتفقون مع أهل السُنة في العبادات والفرائض سوى اختلافات قليلة كقول حي "على خير العمل" في الأذان.

سألني قريني: كم شخصاً قتلت منهم؟

أجبته: لا أذكر، لم احصي عددهم، هم أمام انظارك، عِدهم.

قال: هذا ليس شأني.

قلت: من أنت إذاً؟ ألست أنت المَلَك المَعني بحسابي؟

قال: ستعرف قريباً.

قلت: متى؟

قال: بعد أن تُخبرني كيف قتلت أخاك؟

تنفستُ الصعداء قدر تلك الذنوب التي تجثو بوجداني، أنحني وإياها مُطأطئين رؤوسنا لنأمل غِرفةً من الغُفران، لعلنا نحظى بإبتسامة رضا عن كل خطيئةً نحملها، عن كل شخصٍ ظلمناه، عن بُكاء وعويل من قتلنا اباه واغتصبنا أمه، عن كُل بنت دفعت

ذنب جمالها لتكون سلعة تُباع وتُشترى قدرَ إنتهاء نضارتها، الى أن ينطفئ نور براءة الأطفال في وجهها، بعد أن تُعاشر من يفوق عُمر أبيها لتستيقظُ في كُل صباح مُشمئزةً من النظر لوجهه.

كانت ليلة مطلع الالفية الجديدة، أشرق عام 2000 والعالم فرِحاً بكل ما وصل إليه من تكنولوجيا، احتفل كُل سُكان الأرض بقرنٍ جديد سيتنافسون به للوصول الى أقصى كوكبٍ في مجرتنا الكونية، أمسينا نحن اخر ليلة من الالفية السابقة نتفكر في سبلٍ للقتل ابشع من اللاتي نعرفها تحضيراً لغزواتنا.

زارني (شهباز) في منزلي وبرفقتهُ قيادات من (كابل) في تلك الليلة، دار بيننا اجتماع كالاجتماعات الشهرية التي اعدتنا عليها، منذُ استيلائنا على (كابل) وأنا لم أر (شهباز) إلا في تلك الاجتماعات، كانت بشكلٍ دوري، نبحث فيها خُططنا القادمة، قتالنا في المناطق التي لَم نتمكن من الاستيلاء عليها، نُقسم الغنائم.

خرج الجميع وبقي (شهباز)، جلس مُتكاتف الايدي ...

قال لي: حانت الفرصة لك لتنتقم من أخيك؟

قلت وأنا اثر صدمة شديد: بالله عليك؟

قال بوجهٍ مُبتسم: نعم.

وضعتُ يدي على الطاولة، وقلت: لمَ حرمتني كُل هذه السنين؟

قال: لم تكُن بحجم ما تقصُد من سنين.

قلت: وهل تعتقد أن الانتقام منهُ شيء يسير الان؟

قال: لا أعتقد ذلك، ولكن سنُخطط للأمر.

قلت: لا تُخطط لشيء، أنا من سيقوم بكل شيء.

قال وهو يود النهوض: حسناً، فكر بالأمر وابلغني متى ما كُنت جاهزاً.

وأنا امسكُ بيده لئلا ينهض ....

قلت: أنا جاهزٌ من الان، سأنفذُ الامر يوم غد.

نظر لي بتعجُب، قال: كيف؟

قلت: أحتاجُ لسيارتين ولخمسة رجال مُدربين فحسب.

قال وهو يُحرك كف يده رافضاً: كلا كلا كلا يا أمين، اخبرتُك في البدء بأننا سنُخطط للأمر وأنت قاطعتني على عجل، أبديتُ جاهزيتُك على تنفيذ الأمر ولكنك لم تدعني أخبرك بأننا نُريد انهاء الامر وكأنهُ موتاً طبيعياً، لا يجب أن يعلم أحداً بأن أخوك قد قُتل، ألا ترى كم هُم اتباعه؟ كلا يا (أمين)، أنسى الأمر.

أمسكتُ بيده مرة أخرى لئلا يَمحَق ما كُنت احلُم به طوال تلك السنين ....

قلت: أعدك بأنني سأقتلهُ دون أن ينزف قطرة دمٍ واحدة ومن دون أن يراني أحد، ما اطلبهُ منك لغرض مُساندتي ومراقبة بعض التحرُكات حول المنزل لتأمين دخولي ليس إلا.

التفت لي وقال بصوتٍ عال: هل جُننت !! كيف لك أن تجرؤ على دخول منزله؟ ألا ترى عظمته؟

أجبته: أعلم، أعلم كُل شيء، أنا أسمع أخباره كُل يوم، أمنحني بضع أيام وسأخبرُكَ بكُل ما انوي فعله.

قال لي: اتفقنا.

اشرقت الشمس في صباح اليوم التالي وأنا قد اعدُدت كُل شيء للنيل منه، لم يستغرق التخطيط للعملية سوى بضع ساعات، التقيتُ (بشهباز) عند صلاة الظهر قبل أن يرجع الى (كابل)، شرحت لهُ خُطتي فوافق على الفور، اخبرني بأنني سأذهب الى

(كابل) بوصاية منه، سيخبر أفراد الحركة هُناك بأنني مُكلفاً بنقل شُحنة عِتاد من (هُراة) الى (كابل) وأنني سأمكثُ لأيامٍ الى أن ينتهي تجهيز الشُحنة، لم يكنُ يعرفني ايٌ من قياديّ (كابل) فانا لم اخرج من (هُراة) منذُ اجتياح (طالبان) لغاية في نفس (شهباز) لم اعرفُها، وما أن حل المساء زودني بخمس رجالٍ وسيارتين وسلاحٍ كاف، فذهبتُ الى (كابل) وقتلته.

كانت الحركة وقتها تنوي شن انقلاباً مُصغراً على موردّيّ المُخدرات، ارادت الحركة مسك زمام سوق المخدرات بين (أفغانستان) و(باكستان) بعد أن تمت السيطرة على كُل الأراضي التي تُزرع فيها المواد الأولية للمخدرات في (أفغانستان) ، ارادت الحركة أن تكون هي المُهيمن الأول على تجارتها عن طريق الأراضي الباكستانية ولكن هذا الامر لم يتم إلا بعد التخلص من كافة الموردين، كانت الخطة وقتها أن يتم التخلص منهم دون ضوضاء حتى لا تسخط منهم عامة الناس وهم قادمون لتطبيق (شرع الله)، قضيت اسبوعي الأول في التجوال ليلاً بالقرب من منزل ابي واستطلاع حركة الطُرقات، كنتُ اعود عند الفجر الى معسكرٍ يُعتبر الثكنة الأكبر للحركة في (كابل)، في أحدى الأيام وعند عودتي كانت فرقةً عسكرية من الحركة عائدةٌ الى المُعسكر وبمعيتها مجموعة من المُهربين تم القاء القبض عليهم بالقرب من الحدود، جاءوا بعجلتين تعج بالمُهربين، وأنا انزل من سيارتي صادفت تجمعهم، كانوا معصوبي الاعين وحول أيديهم وثاقاً من القَماش، صادفت من بينهم ما لم أكنُ أتوقع مُصادفته، رأيتُ (مُهاب)، تاجر المُخدرات الذي كنت اعمل عنده في (كراتشي) وسجُنتُ بسببه بعد أن وشى بي للشرطة الباكستانية، انتابني الشك حول هويته رُغم أنني تأكدتُ منها بعدما لاحظت يدهِ المبتورة، كان ذا شعرٍ ابيض بغزارةٍ أكثر مما كُنت أعرفهُ، تم جمعهم في أحد الأركان المعسكر قبل إقامة حد (قطع الرأس) عليهم، اتجهتُ نحوه ورفعت قطعة القِماش من وجهه، جلست

القُرفصاء ونظرت بعينيه فُتأكدت بأنهُ هو، ظل مندهشاً مني، لم يعرفني، مضت سنوات طوال على لقائنا، قال لي بصوتٍ مُنخفض يدّعي البكاء: "أرجوك، خلصني منهم وسأعطيك ما تشاء" عرفتُ وقتها كم القدر عادل، حين يرضى أن يكون عادلاً، فهو ليس بكل اوقاته عادلاً، القدر عادل لمن يملك السُلطة، القدر عادل للأقوياء فقط، أما الضُعفاء فهم لا يفقهون غير قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله" طلبتُ منهم أن أقيم الحد عليه، تم جمعهم بعد صلاة الفجر في ساحة واسعة، تمت أقامة الحد عليهم واحداً تلو الأخر، وما أن حان دور (مهاب) خرجت من بين الجمع الذي اكتفى بصُراخ (الله اكبر) مع كُل رأسٍ يسقط وطلبت من (السياف) أن يترك إقامة الحد لي، كان الامر ذا فخرٍ لقياديّ الحركة هُناك فهذا أن دل على شيء فإنما يدُل على إيماني الشديد بعقيدتي ولا شك بأن الرجال الذين كانوا بمعيتي سيخبرون اهل (هُراة) بما حصل، طوال تلك السنوات التي قضيتُها فيها كنتُ اكتفي بإصدار الأوامر فحسب، لم أقيم حد (قطع الرأس) أبداً، سرقتُ بعض الدقائق من اخر لحظات حياته لأحدثهُ فيها، يركع أمامي ذليلاً وأنا واقفاً امامه كالأقدار حين تَظلم، وددتُ أن اقتلهُ قدر سنوات السجن التي قضيتُها وأنا في أوج شبابي، جلست القرفصاء بقربه وهو يرتعش من شدة الخوف ...

سألته: هل تعرفُني؟

قال: كلا، ولكن أرجوك خلصني أن كُنت تعرفُني، أنا لستُ من (أفغانستان).

أجبته: أعلم ذلك، أنا أعرفُك جيداً، أنت من تلك البلاد التي تبدأ منها الخيوط التي تُحرك مُجريات الشأن السياسي في بلادنا، نحن دُميتكم على مسرح الاحداث.

التفت لي محاولاً النظر بوجهي، رفعت الوثاق عن عينه لينظر لي ...

سألني: من أنت؟ ارجوك خلصني فأنا لا علاقة لي بالمخدرات، جاءوا بي بالخطأ.

قلت ضاحكاً: كيف هذا، أنت تاجرٌ شاطر في (كراتشي).

نظر لي بتعجب، قال: من أنت؟

قلت: أنظر بوجهي وستعرف.

قال: لا اعرفك.

قلت: أتذكر أولئك الصبية الذين تزرعهم في شوارع ليُتاجروا بحياتهم ويعودوا لك بالمال عند غروب الشمس ثُم تزج بمن تشاء منهم في السجن؟

بعد ثوان من الصمت والدهشة، قال: أنت (أمين) أبن (الشيخ حميد الله)، أليس كذلك؟

أعتلت الدهشة ملامحي ايضاً، لم يعرفني أحداً بهذا الاسم منذ هروبي من (أفغانستان) والى أن خرجتُ من سجن (كراتشي)، تظاهرتُ طيلة تلك الفترة بأنني هارب من الحرب الروسية ولا أملك أي اوراقٍ تثبت هويتي حتى تم ترحيلي بشكل اجباري على الحدود.

سألته: كيف عرفت أسمي؟

قال: صدقني، (حميد الله) اوصاني لأن اشي بك حتى تدخل السجن.

صرختُ بوجهه بصوتٍ عال: أنت تكذب، من أين لك ان تعرف ابي؟

تقرب منا أحدهم وهمس بأذني قائلاً: "أن كُنت غير قادراً على إقامة الحد فدع الامر لنا" اخبرتهُ مرتبكاً بأنني أحاول استتابته، فأبتسم قائلاً: "كيف ذلك! هو ليس بحكم المرتد، هو بحُكم الذين يسعون في الأرض فساداً، هؤلاء لا يُستتابوا بحُكم قوله

تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}[130] أقم حدود الله يا أخي ولا تأخُذك بهم رأفة" تريثتُ قليلاً حتى ابتعد عني، كانت انظار الناس تنهال عليّ ظناً منهم بأنني خائف وغير قادراً على إقامة الحد، عدتُ لأجلس القُرفصاء بقرب (مهاب) ...

قلت: من أين كُنت تعرف أبي؟

قال: كُل من يبيع المُخدرات في (باكستان) يعرف اباك؟

عدتُ خطوتين الى الوراء، ضربتهُ بالسيف ضربةً بشعةً، انفصل رأسهُ عن جسدهُ بأعيُنٍ مفتوحة، ما سمعتهُ منهُ جعلني أموت قدر موتهِ الف مرة، بقيتُ في اليوم الذي تلى تلك الحادثة افكُر في ما قالهُ، كيف لذلك أن يكون!! فكرتُ في الكثير من السيناريوهات التي تُبرر ما سمعته، توارد بخاطري ما كُنتُ اسمعهُ عن اخي وتجارتهُ خلال فترة الحرب الاهلية، وحتى ما بعد اجتياح (طالبان)، فهمتُ لما ظل ذا شأن في كُل آنٍ وحين، تمكن من أن يكون قائداً فذ، ظلمتهُ حين قُلت عنه بأنهُ أوهن من أن يكون رجلُ دين، أصبح أشدهم قوة، لم يكُن ذا بلاغة ليأسر عقولهم، فالأمر تغير بعد خروج القوات الروسية، في تلك الأيام التي كنتُ فيها مُصاحباً لأبي اقتصر أمر رجل الدين على أن يكون فقهياً ليأسر العقول ويجذب أتباعهِ بخطبه، أما خلال الحرب الاهلية فقد زالت ثقافة البحث في الدين من عقول الناس، بات المُجتمع عسكرياً بحتاً، من لا يملك السلاح يكن ضعيف الحُجة، لم تعُد الحُجج بما جاء بكُتب الفقه، باتت الحُجة بكُثرة السلاح، أصبحت المساجد ثكنات عسكرية تحمل السلاح وتُحصن أبوابها بالسواتر الترابية، بات رجُل الدين منذُ ذلك الوقت من هو اكثرهم جرأة على القتل، تجلى نجاحه في القضاء

[130] القرآن/ سورة المائدة/33

على وجودي، حين بادرتُ في أنشاء حركة صغيرة في مسجد قريتنا في (قندهار)، لم يعد لأبي وريثاً غيره، بدايتهُ القوية مَكنتهُ من الحفاظ على عدد الاتباع وزيادتهُم إلا أن امر بقاء نفوذه موازياً لحركة (طالبان) كان أمراً لا يُصدق، صدقتهُ حين عرفت بأنهُ ظل من اهم المُوردين لمادة (الهيروين) وقد نال رضى قياديّ الحركة بأموالٍ طائلة ومُخدراتٍ تتوفر عند أي طلب، شعرتُ بعارٍ شديد لاستغلالهِ أسم عائلتنا لتجارة المخدرات.

يسألني قريني: كيف تمكنت من قتله؟

أجبته: بقيتُ لأيامٍ أُراقب المنزل، حددتُ ساعات دخوله وخروجه، بحثتُ كثيراً عن (خالد) ولم أجده، لم أعلم ماذا حلّ به، بقي مصيرهُ مجهولاً ولا أحد يعرف عنهُ شيئاً، تَخفيتُ بملابسٍ عتيقة، تحركتُ حول البيت مراراً وأنا بهيئة مُتسول، كنتُ بمأمنٍ مع الرجال الذين اصطحبتهُم، تمكنت من الدخول ذات ليلة الى البيت بعد أن عبرت سور المنزل ودخلت من الزُجاج الذي كنتُ اثبتهُ وأرفعهُ بيدي في القبو، دخلتُ الى القبو فعادت بي السنين الى الوراء، وكأن الجُدران تتغير من حولي لتكون بلونٍ أغمق، وكأني عدتُ ذلك الشاب الجامعي الباحثُ عن الحقيقة بين رُكام أوراق مجهولة، شعرتُ وقتها بشعورٍ غريب، وكأن وجهي يتغير لأعود لعمر الشباب، شعرتُ بأنفاسي وهي تكون ملئ صدري وكأنني في العشرين من العمر، أنظر ليدي فأراها اطهر مما تملك من ذنب، أشعر بنسمات هواء من حولي تُعيديني كما كُنت، فجأة، ذهب كُل شي، عدتُ كما أنا، رجعتُ لشكلي ولأسمي، رجعتُ (آخوند) بعدما رأيتُ نفسي أحمل سكيناً حادة ومُسدساً صغير، لم أتمكن من الدخول الى البيت من خلال القبو، كان هُنالك باباً موصدة، بقيتُ في القبو استذكُر تلك السنوات الهادئة، حاولت جاهداً لأنال بعضاً من الذكريات ذات الثغر الباسم، تذكرتُ (أمين) ونسيتُ (آخوند).

في المرة التالية، عدتُ للبيت وأنا اتقن فتح الاقفال بإبرة وسلك رفيع، وفي وقتٍ مُتأخرٍ من الليل دخلتُ وتجولت بداخله، تغير بالكامل حتى ما عدتُ أعرف التجوال بين غرفه وزواياه، وصلتني معلوماتٍ تُفيد بأنهُ قد حصن نفسهُ في منزلهُ ولم يعد يخرج بعد أن تم تصفية كُل الموردين، شعر بأن بوصلة الخطر قد اشارت إليه فأختفى عن الانظار محاولاً الفرار خارج (أفغانستان)، ولكن الامر لم يفلح، قررت تزامناً مع ذلك أن اجعل الخوف الذي بداخله اكبر، قررت أن اجعلهُ يرى الخوف بهيئة جسم انسان.

بعدما تجولت في البيت بحذرٍ شديد، دخلت لغُرفته، كان نائماً لوحده، لم أجد شخصاً غيره، كان خائفاً على أسرته فأبقاهُم في مكانٍ مجهول كي لا يعترضهم أحد، افراد حمايته على أبواب المنزل من الخارج فقط، لم يعر أي أهمية للقبو ومداخله بعدما أفرغ ابي كُل مُحتوياته واحرقها، وقفت في مدخل غرفته وهو نائم وترنحت بصوتٍ منخفض، فزع قليلاً لينظر الى مصدر الصوت، تحركت الى خارج الغرفة وأغلقت الباب ووقفتُ خلفها، انتظرتهُ ليخرج منها ويبحث عن مصدر الصوت، تأخر، لم يفتح الباب، بقيتُ خارجها وكشفتُ وجهي، طرقتُ الباب مُجدداً ببطء، سمعتُ صوته قادماً ليفتح الباب، فتح الباب وشاهدني واقفاً أمامه على قيد الحياة، ضحكتُ بصوتٍ عال وأنا أنظر بوجهه بعينين مفتوحين أقصى مداهُما، فزع فزعاً شديداً وسقط على الأرض يصرخ، صرخ صُراخاً شديداً ورجع زاحفاً على الأرض لا يُصدق بأنني أمامه بعد أن دفن جُثتي المُحترقة بيده وصافح الناس بعزائي، خرجتُ من المنزل بذات الطريقة التي دخلتُ بها، خرجتُ من السور الذي يكون مخرجهُ من القبو، تنتظرني سيارة اتباعي لتأخذني، تمكنت من تكرار فعلتي، كنتُ على يقينٍ تام بأنهُ لن يفصح بالأمر ويقول بأنهُ رأى شخصاً ميت فيتهموه بالجنون.

ظهرتُ لهُ في اخر الرواق في المرة التالية، جعلتهُ يمكُثُ ثوانٍ بين الشك واليقين، جعلتهُ يقترب ليتحقق من أمري، ظهرتُ لهُ مرتين ثُم اختفيت، لم أتمكن من التقرب منه، كان يحمل سِلاحاً، خرجتُ من ذات المخرج بهدوء، لم أعد مرة أخرى حتى مضى على تلك الحادثة عِدة ايام، وثقتُ من خلالها بأنهُ نسي أمر ما شاهدهُ وأنني مُجرد وهم، فكرت بطُرقٍ عديدة لقتله، إلا انني لم اجد افضل من دفنهُ حياً، اردتهُ أن يرى ما رأيته، دفنني حياً من قبل من دون تُراب، سأعطف عليه وسأمنحهُ بعض التُراب الذي يُخلصهُ من هذه الحياة التي لا تَصلُح إلا لمن يَظلُم.

في ليلةٍ ممطرة، دخلت الى القبو، استغليتُ تلك الفُسحة التي يكسوها التُراب والتي لا تتجاوز المترين في أحدى زوايا القبو، صوت الرياح والمطر ساعدني على الحفر دون صدى لصوت أدوات الحفر، حفرت حُفرة بعمقِ مترٍ واحد في بضع الدقائق، وأنا احفر تفاجأت بوجود عظمتين وكأنهما عظمتين لفخذيّ انسان، رفعتهُما بالقُرب من شمعة اوقدتها في زاوية الحُفرة وتمعنتُ بِهما، لم أعرف ماهيتهُما، تصورتهُما قطعتان من الحديد عليهما أثارٍ لصدأٍ وأتربة، لم أكترث لهما، واصلت الحفر قبل أن يكتشف أحداً أمري، صعدتُ بعدها لأبحث عنه، جلبت معي قطعة من القطن وبعض قطرات (الكلوروفورم)، صعدت الى غرفته ولكن ثمة شيء منعني من الدخول، كُنت اشعر بشيء غريب أوحى لي بأنهُ سيكتشفُ أمري لو دخلت، انتظرتهُ حتى خرج من غرفته مع آذان الفجر، مشيتُ خلفه وخنقتهُ بقطعة القطن التي تمكنت من تخديرهُ بالكامل لثلاث دقائق، سحبتهُ الى القبو وأغلقت كُل الأبواب من خلفي، ربطتُ معصميه من خلف ظهره ووضعتُ وثاقاً على فمه تحسباً لصُراخه، فاق بعد أن اتممت وثاقه، فتح عينيه ونظر لي بفزع، لم يتمكن من الحركة أو الصُراخ، بقيتُ انظر لهُ ساكناً دون أن اتفوه بكلمة، ينعكس ضوء الشمع على وجهي و وجهه، طال بنا الامر الى هُنا بحكم ما يحمل

إرثنا العقائدي من دمٍ وقتل.وقفتُ ثُم سرتُ باتجاهه خطوتين، وضعت يدي على كتفه ليتأكد بأنني حي، أغمُي عليه مرة أخرى، صفعتُ وجههه صفعة قوية، فاق بعدها ولم يصرخ.

قلت لهُ: أنظر لي جيداً، لا أزال على قيد الحياة، لم تتمكن من قتلي.

حرك رأسهُ إيماءً ليقول "كلا" أخرجت مُسدساً من جيبي وأزلت الوثاق عن فمه، أخبرتهُ بأنني سأطلق كُل الرصاصات التي بحوزتي برأسه ما أن يخرج صوتاً من فمه، جلست بقربه اضع فوهة المُسدس على رأسه ...

سألته: لمَ حاولت قتلي؟

أجابني: لأنك لا تصلح للعيش، جبان، لستَ جباناً فحسب، أنت غبي.

تحركت ملامح وجهي بغضب، شعرتُ وكأنهُ يستفزني لأطلق النار عليه، كان شُجاعاً بالفعل.

سألته: لمَ تُتاجر بالمخدرات وتلوث سمعة أبيك واهلك؟

ضحك، ضحك بصوتٍ عال فأجبرني على ضربِهِ على فمه، بدأت أسنانه تنزف الدم، والكُره يتناثر من نظراته ...

قال: أتظن بأن العبادة والدُعاء هي السبب بكل ما نملك؟ ألم أقل لك بأنك غبي، يملك (حميد الله) زمام تجارة المخدرات منذ سنوات، لا احد يعلم بالأمر، حتى أنا لم أعلم إلا بعد وفاته، جاءني التُجار وأطلعوني على الامر وطلبوا مني مواصلة الامر بذات الأرباح، أخبروني بأن أبي لم يُطلعهم على أسم وريثه، لعلهُ ظل حائراً بيني وبينك وهو على فراش الموت، هذه تجارة جدك وتجارة أبيك فلا أحد يفتش عجلاتنا حين نتحرك بين الدولتين ولا أحد من اتباعنا يرضى الشراء من غير الذي نورّد له، غبيٌ أنت، اضعت كُل ذلك وذهبت للعيش خارج مملكتنا العظيمة، هدمتُ

كل شيء وأنا انقذت ما تبقى، وها أنت ذا، جئت لتُنهي كُل شيء، ستقتلني دون أن تتساءل، من سيرث مملكتنا من بعدي؟ أجبني من؟ أنتميت (لطالبان) وقادتها لا يُعلى عليهم أحد، ستبقى بعوضة وسيقتلونك متى شاءوا، ان قتلتني فسيموت كل شيء، سأتمكن من الهرب بعد أيام وسنُعارض (طالبان)، ستنتهي هذه الحركة ولن تدوم طويلاً، مكانتنا الدينية باقية ولا تزول بحكم كل الظروف، نحن مُبجلون بالوراثة، لا تهدم كل ذلك يا (أمين)، سيقتلونك بعد ان تُنفذ مآربهم بقتلي.

لم أجيبهُ بشيء، اتجهتُ الى الحُفرة لأزيل عنها التُراب وأعدُها للدفن، عرف مصيره وهو يترقب حركتي، واصل حديثهُ، دون أن اعيرهُ اهتماماً، حرك قدميه محاولاً الهرب، كررت ضربه على رأسه.

قال بنبرة غضب: كان عليّ قتلك مع شقيقك، أنتم لا تستحقون العيش.

نظرت لهُ بغضب، قلت: أخبرني أبي بأنهُ مات اثناء مقاومتكم للجيش الروسي بعد أن انفجر بقربه لغم.

قال ضاحكاً بإستهزاء: ألم أقل لك بأنك غبي، أنا من فجر اللغم وهو يضعه، لم أكن أريد شريكاً لي في إرث أبيك وإسمه.

أستمر بالضحك وأنا اعيد وثاق فمه، سحبتهُ للقبر وهو يحاول الافلات من قبضتي، توقف بعد أن تريثتُ قليلاً وأنا أرى القبر بالقرب من جسده لن يُغطيه بالعمق الكامل، اخذتُ أدوات الحفر وواصلت الحفر ليكون القبر أوسع، ظهر لي صندوقاً معدنياً صغير، اخرجتهُ ووضعته بالقرب من العظمتين اللاتي وجدتهُما، سحبت أخي لحفرته، نزل جسدهُ بأكمله، بدأتُ ادفع التُراب على جسده، رميتُ العظمتين بقربه وواصلت دفنه حتى تغطى وجههُ بالكامل، خرجتُ مُسرعاً واضعاً بجيبي الصندوق الصغير الذي وجدته.

كأول يومٍ لي هُنا، افتحُ عيني وأنا مُستلقي على الأرض في ذلك السهل الذي يحتجزُني ويكاد أن يخنُقني، لا بل يكاد يطبق اضلاعي بعضها على بعض رغم مساحتهِ الواسعة، أنظرُ الى السماء والغيوم بحركتها الغريبة، أرى أوراق الشجر تتحرك بأثر حركة الريح ولكن ليس هُنالك ريح، انهض فلا أشعر بوزني وكأنني قطعة من القماش العتيق، لا اتنفس، بداخلي رهبة وكأنني سقطتُ سُقوطاً حُراً من السماءٍ الى الأرض، نهضتُ التفتُ من حولي، تذكرت بأنني ميت، ميتٌ و لي (قرين) يحثُني على الندم، يطلب مني أن اتذكر كُل شيء اقترفتهُ في حياتي، كل شيء سيؤدي بي الى نار السعير، لا زلت اجهل مصيري، رفعتُ يدي فلم أرى السلاسل، صرتُ حُراً من غير قيود، زالت تلك السلاسل الطويلة التي كانت تُقيدُني متى ما تحركت، لم أعد أراها، كما لم أعُد أرى (قريني)، تمعنتُ النظر في ما حولي، المكان ذات المكان إلا أن كُل المعالم قد تغيرت، ارضٍ مُستوية ولا شيء سوى امرأة شابة تمشي بتمايل، اراها من على بعد، ذهبتُ نحوها فابتعدت، لها شعرٌ اسود طويل، تطلقهُ بحريةٌ في الهواء وتسير بخطواتٍ وكأنها طفلةً فرحةً بدُميةٍ جديدة.

بحثتُ عن الشجرة التي كُنتُ اتكئُ عليها فلم اجدها، تغيرت معالم هذا المكان، خرق قلبي حزناً عميقاً وأنا أتذكر جيداً ملامح ذلك الوجه العبوس الذي اخبرني بوفاة (بروين)، كان آذار عام 2001، تركتُها لأيامٍ وذهبتُ لوادي (باميان)، أُمِرنا بتهديم تماثيل الديانة البوذية، كان مركزاً لهذهِ الديانة قبل آلاف السنين، سنين عظيمة استبدلناها بسنين من الجهل والتخلف، استعملنا ألغامٍ كبيرة لهدمها ولم نتمكن من تهديمها بالكامل، كانت اعظم من جهلنا، كُنا اوهن من محو اثارهم، وقفتُ أمام اكبر تمثال (لبوذا) وأنا اراهُ كطاحونة في الهواء تولد التاريخ وتُجدد المجد لكل لأجيال القادمة، ما أعظم تاريخهم، ما أوهن تاريخنا ونحن نركضُ لاهثين لتهديمه، عرفتُ وقتها بأن أفضل وسيلة لاستقراء

المُستقبل هي الاطلاع على التاريخ، يتميز مجد كل الاقوام بتاريخها لا بحاضرها، حاولنا تهديم كُل التماثيل ولكننا لم نفلح، كانت عظيمة، أستغرق الامر عدة أيام، تركتُ فيها (بروين) وهي تشكو من سُعالٍ شديد، باتت غير قادرة على التنفسُ بصورة طبيعية، لم ينفعها اي عِقارٍ جلبتهُ لها، لم تُشفى من المرض بشكلٍ تام، تركتُها بعد أن اصبحتُ غير قادراً على التقاعُس عن أي مهمة تُكلفُني بها الحركة، صرتُ من أهم قادتها بعد أن خلصتهُم من أخي وأسم أبي ومحوتُ تأريخهُم بأكمله.

جاءني أحدهم بخبر وفاة (بروين)، حزنتُ شديد الحُزن، تركت وادي (باميان) وعدتُ بهلعٍ يفوق ألم فُراقها، كانت الجزُء الجميل في حياتي، اعتنيتُ بها طوال تلك السنين، لم أكن املكُ جليساً غيرها، كنتُ أسمعها وأحدثُها عن كل ما تحب سماعه، لم أحدثُها قط عن ما ارتكبته، لم تكن تعرف أبسط جُرمٍ ارتكبته وأنا مُنتمي (لطالبان)، كانت لا تخرج من المنزل اطلاقاً، كانت لا ترى غيري، كما كُنت لا ألمس امرأةً غيرها، رجعتُ على عجلٍ لأراها قبل أن ترحل، رجعت وأنا أعلم بأنني لن أصلح للعيش بعدها.

أسمع صوت (قريني) يسألُني: هل أحببتُها حقاً، أم كُنت تعطفُ عليها؟

رفعتُ رأسي فوجدتهُ واقفاً أمامي، من حولي مكاناً شديد النور، لا أرى شيئاً غير (قريني) ...

سألتهُ وأنا خائف: أين نحن؟ هل حان وقت حسابي؟

يُجيبني: كلا، لم يحُن الوقت بعد، أجبني، هل أحببتُها؟

قلت له: بكل تأكيد، لا أنكُر بأنني عطفتُ عليها، ولكنني أحببتها.

قال: ما الذي كُنت تُريد اثباتهُ لنفسك حين تزوجتُها؟

أجبته: كنتُ أعيش برفقتها وأنا ذلك الانسان الطيب، (أمين)، كنتُ اريد أن يبقى ولا يزول، رفضتُ موتهِ تماماً، أعود الى البيت فَرِحُ وأنا بقربها على هيئة (أمين) الطيب المُجتهد الرافض لواقعه المُر، افرح حين اتأكد بأنهُ لا يزال على قيد الحياة.

سألني: لمَ لم تخبرها عن حقيقتك؟ عن كُل ما اقترفتهُ؟ لمَ جعلتها بمعزلٍ عنك وأنت قاتل وفاسد وخائن لوطنك ولمبادئك ولدينك الذي كُنت تُشذبهُ من كل ما يسيء له ؟

قلت: كيف لي أن أقتل (أمين) الذي حاولت جاهداً أن يعيش لبرهة من الزمن كُل يوم.

ساد الصمت مع النور الذي يشعُ من كُل مكان، لا أرى شيئاً من حولي، أين ذهب ذلك السهل الواسع؟ أشعر بأنني في مكانٍ ضيق.

أزال (قريني) الوشاح الذي يُغطي بهِ رأسهُ، رأيتُ شعراً طويلاً ذا سوادٍ حالك، أزال وشاحهُ فتذكرت كُل ما فاتني أن اتذكره، وكأنهُ أزال النسيان مني و وهبني الذاكرة كما كان يفعل، عرفتُ حقيقة ما كُنتُ أجهله.

سنوات وأنا لم أُعير اهتماماً لذلك الصندوق الذي وجدتهُ في القبر، فتحتهُ ذات مرة فوجدتُ بعض الأوراق المُتهالكة، كانت مكتوبةً بخطِ اليد بحبرٍ سائل، الكلمات غير واضحة بسبب سيلان الحبر على الاوراق، أغلقتهُ ثُم خبأتهُ ولم أعد أتذكره، بسبب تلك الرهبة التي جعلت وجه أخي يتراءى أمامي بين الحين والأخر وهو يتحرك من خلف التُراب، ظننتهُ من ضمن الأشياء القديمة التي كانت في القبو وأندثر في الحُفرة، احتفظتُ به ولم افتحهُ إلا بعد أن عرفتُ حقيقته.

اكتشفتُ ابان وفاة (بروين) كيف جندني (شهباز) في معسكر (بيشاور)، عرفت الأسباب التي جعلتهُ يصنع مني قائداً لمجموعة

مُقاتلين وأنا الافغاني الضئيل بينهم، عرفت لمَ جعلني اتقاسم معهم مغريات حربهم وغنائمها، لمَ جعلني قائداً.

حين اخبروني بوفاة (بروين) هرعت مُسرعاً للعودة الى (هُراة)، أقّلني أحدهُم مُستخدماً سيارة (شهباز)، وأنا عائد، رأيتُ في السيارة حقيبة أوراق تعود له، تصفحتُها، كانت تُشير لمُخاطباتٍ من جهات حكومية باكستانية الى معسكر (بيشاور) وبالعكس، كان أسمي من بين تلك الأوراق، طلب (شهباز) من الجهات الممولة أن يتم تجنيدي لأنني أبن (حميد الله)، كان قد قصَ عليهم كل ما مر بي، كتب في نهاية تقريره:

"في خُطتُنا للتخلص من الرموز الأفغانية التي على الساحة السياسية والدينية اليوم، فأن (أمين) هو أبن رجل الدين المُتوفى (حميد الله) والعدو اللدود لأخيه القائد الحالي لأتباع (حميد الله) الذين يتجاوز عددهم الآلاف، اطلب تجنيده وسنتمكن من خلاله في تنفيذ مآربنا في القضاء على الصفة الدينية لتلك العائلة"

عشتُ في عُزلة بعد هذه الصدمة، لم أخرج من البيت قط، لا اذكرُ شيء بعد ذلك.

فتحتُ عيني وإذا (بقريني) واقفاً أمامي وجهاً لوجه، حال إشعاع النور دون أن أرى وجهه، ولكنني اكتشفتُ بأنهُ ليس رجل، كان على هيئة امرأة .

امرأةٌ بثيابٍ بيضاء مُتوسطة الطول ذات شَعرٍ طويل ينهال على كتفيها، تقف أمامي وهي تمسُك كفيّ يديها سوياً امامها، أكاد أن أرى وجهُها، لكنني غير قادراً على تحديد ملامحِهُا من شدة الضوء.

سألتهُا: من أنتِ؟

قالت بصوتٍ أنثوي: أنا (قريُنك).

أنكشف الضوء فجأة ...

عدتُ لأخر ايامٍ لي في منزلي، وقتما فتحتُ الصندوق الذي خطف لون ضوء الشمس من أيامي ووهبُها السواد، حاولت قراءة النصوص في تلك الأوراق الصغيرة ولم يفلح الامر، فهمت بعض الكلمات التي تُشير الى أنها رسائل بين شخصين، وجدتُ بعض المُفردات التي تُشير الى كلماتٍ لموعدٍ في يومٍ وساعة، وأنا أُقلب الأوراق وجدتُ صورةً مطوية لشاب في العشرينيات من عمره، لهُ قَصة شعرٍ وثياب تُشير للسبعينيات من القرن الماضي، تمعنتُ وجهه فرأيتُ صورةً كنتُ قد رأيتُها ذات مرة في منزلنا بين طيات كتابٍ في مكتبة أبي حين كُنتُ صغيراً، كان ابي يُخبئُها بين طيات ماضٍ لا يُريد اثارته، وجدتُ صورة (عمي)!!!

عرفتُ أن هذه الأوراق كانت تبعاً لأوراق البحوث والمقالات التي في القبو التي كُنت ابحثُ فيها عن حقيقة العالم الذي يُحيط بنا رُغماً عنّا، تذكرتُ أول قصاصة ورق كانت تبحث في حادثة (الاسراء والمِعراج)، تذكرتُ العَظمتين، أيقنت بأنها كانت له، كانت بقايا جُثته، عرفتُ وقتها أين دفن أبي عمي بعد قتله، دفنهُ في القبر كما دفنتُ أنا اخي.

تسألُني هذه المرأة: والان، هل أتممتُ ذكراك؟ هل عرفت الآن من أنت؟ أنت الحُزن في وجهِ كُل جُرماً ارتكبته.

اقتربت مني، اقتربت حتى انكشف لي وجهُها، رأيتُ (بروين) !!!

مسكت بيدي والفزع يُقيدُ حركة لساني .....

قالت: أنا الحَسنة الأعظم بين سيئاتك، أنا الجزء الأبيض بين افعالك القاتمة اللون، أنهض يا (أمين) فأنت لم تَمُت، أنت لا تزال على قيد الحياة، أنت الان في مُستشفى للأمراض العقلية في (كابل)، جاءوا بك الى هُنا بعد أن التزمت العُزلة وأمتنعت عن الكلام، جاءوا بك بعد ان لم يجدوا علاجاً لك، حاول (شهباز)

قتلك بعد أن نفذت كل ما كان يروم له لاسيما بعد أن اكتشفت أمر تجنيدك، إلا أنهُ لم يعد يهتم لك بعد مرضك، أنا معك منذُ أن دخلت المشفى، أنت تتحدث معي طيلة هذه الفترة ولا يراني أحد غيرك، ظنوا بأنك فقدتُ عقلك، عُد (أمين) الذي تحبهُ أنت، أرفض (آخوند) واهجره، انتهت (طالبان)، دخلت القوات الامريكية قبل ساعات وقضت على وجودهم، لا ترجع الى (هُراة)، أبق في (كابل)، توارى عن الانظار حتى يُنسى أمرك كُل من كان تحت حكم ولايتك، ستكون بخير، أنهض يا (أمين) فأنا أحبك، أحبك قدر ما احببتني، بقدر تلك الأيام جميلة التي قضيتها برفقتك، أعتنِ بنفسك جيداً، و إن لم تراني مُجدداً فتذكر أني تمنيتُ لقائك كثيراً.

الفصل السادس

16:30 بتوقيت غرينتش

7/تشرين الأول/2001 - الغزو الأمريكي

احلامُنا هي ساعات الصباح الأولى والأمل فيها هو ذلك الندى المُتراكم على زُجاج انظارنا، نقف أمامه ونحن في عُمر الصِبا، نتكئ برأسنا على ذلك الزُجاج، نُرسم بأصبع السبابة ما نتمنى، لكلٍ منا أحلامه وخُصوصيتها، نحَلِم بما نود أن نكون حين نكبر، رسمَ أحدهم طائرةً صغيرةً وقال بأنهُ يود أن يكون طياراً حين يكبر، وأخراً رسم سفينة وهو مبتسم لأنهُ يود أن يقودها حين يكبر، حَلِمَ بأن يكون قُبطاناً، أخراً وهو رابطاً جأشه يرسم بسِبابة يدهِ اليُمنى حرباً فحواها اشرار يُحاولون الهجوم على حدود وطنه حَلِم بأن يكون ضابطاً في جيش وطنه الباسل رُغم هزائمه، وما أن نكبر، نرى أحلامُنا تُمحَق شيئاً فشيئاً، تزامُناً مع كُل عام من العُمر نكسبه من حياتنا ومن امتحانها الصعب، بعد كُل عام نقضيه وسط مُجتمعنا المُحكمُ بالدين إحكاماً لا يقبل النقد، نرى ماهية المُجتمع الذي نعيش وننشأ فيه وهو كفيلاً لأن يمنح درجة الحرارة كافية لأن يجف ذلك الندى الذي رسمنا عليه احلامُنا، لأن تتبخر دون أثر، مهما كانت من أحلامٍ دَمِثة رسمناها على زُجاج ما تمنينا، يمتاز مجتمعنا بالجو الجاف طيلة أيام تأريخه، لا يقبل أن يُرسم أحداً على جبينهُ أي أمنية فَضّة.

تتلاشى أحلامُنا ما أن نكبر ونرى كل من حولنا قد كَبُرَ وفق ما يُريد من حوله وليس كما يُريد هو، كُنا نظن بأن الضابط والشاعر والقُبطان والكاتب والرسام والنجار والطبيب ورجل الدين صاروا

كذلك لأنهم تمنوا أن يكونوا كذلك حين كانوا صِغاراً، وجدنا بأنهم اتكاءوا برؤوسِهم ذات يوم على زُجاج أمنياتهم ورسموا مثلما رسمنا، إلا أنهم اصبحوا على هيئة ما نراهم بُحكم بيئتهم ومجتمعهم، الوسيم منهم كان وسيماً لأنهُ نشأ وسط مُجتمعٍ وسيم، والمُتعب منهم ذا التجاعيد الغَضة صار كذلك لأنه كانَ يستيقظ على أيامٍ شمطاء جاحظة العينين.

حين نندم، تكون المسافة هائلة بين ما نشعرُ وبين ما نود قولهُ، نُفضّل الصمت على الكلام، نُفضّل الانين على النُطق، نُفضل ألا نكون حين يكون كُل من حولنا، نصمت الى أن تَشفقُ علينا أعيُننا فتدمع.

استيقظتُ على اثر إيقاع حياةٍ جديدة، مُتشبثاً بلوحٍ خشبي أُصارع بهِ امواج الندم، عالقاً بين الوهم والواقع، اتأرجح بين صرخاتٍ ونداءاتٍ ليس لها معنى، موجهةً الى اللا أحد، حين يشتد النهار ظلاماً على المرضى النفسيين، يصرخون بشدة و هم ينزلقون الى أعماق أوهامهم الحقيقية، ولكن، لا يفهمهم أحد، يتألمون كالشُعراء، فالشُعراء يبحثون دوماً عن من يُصدقهُم، لا عن من يقرأ كتاباتهم.

محقَت كلُّ الصُوَر من ذاكِرَتِي، أَضحى التِّيه مَرماي، احتَويت فَوضَى الأَشياءِ، تَفَسخَت بِطاقَة هُويَتِي من جديد، قامتي لم تعُد ممشوقة، اسمع حركات عظامي وأنا أنهض من الموت عائداً لحياةٍ اتوق لفراقها، أعدتُ ترتيب تقوسُ ظهري واعتدال اضلُعي، قلبي بلونٍ أبيض، وشراييني قلبي لا ألوان لها، أموت وأحيا في آنٍ معاً، وأنا بجسمٍ اصغر من جسم الانسان المُفعم بالصحة، أنكمشت بشرة وجهي كثيراً وكأن لي من العُمر تسعون عاماً، أضحيت غريب الاطوار وسط شديديّ الغرابة، بعدما كُنت واعياً وكل من حولي جاهل.

استيقظت في صباح يومٍ مُشرق، أجلسُ القُرفصاء على سريرٍ ذا اغطية بيضاء، يراودني القلق بين لحظة وأخرى، تؤلمُني اذنيّ وكأن السمع عاد لي للتو، انصت لضوضاء الحياة، اسمع صراخ اللاجئين للمقابر وهم يبحثون عن وطن هادئ، اسمع صُراخ من مات قُبل أن يموت، أشعر بألم من مات في العشرين من عمره ولم ودُفِن إلا بعد أن تجاوز الستين.

اجدُ نفسي في مستشفى للأمراض العقلية مُصاباً بمرض (الفِصام) طيلة الفترة التي تلت وفاة (بروين)، قضيتُ أياماً في عُزلة عمّن حولي من ثُم ألقوا بي في المستشفى بعدما ساءت حالتي وامتنعت عن تناول الطعام، أنتهى بي الامر هُنا بعد أن تأكدوا بأنني فقدتُ عقلي.

كانت المُستشفى تشكو من الإهمال، حالها حال بقية مفاصل الدولة، كانت الحرب الشغل الشاغل لهم، لم يعتنوا بأي مريضٍ هُنا، كانت عبارة عن مُستنقعاً من الاوساخ، كُنا نتناول فيها ما يعطف علينا بهِ من طعام من سُكان الحي المجاور، ليس هُنالك أي أطباء، كانوا بعض ممرضين يعتنون بحسب استطاعتهم بالبعض منا، كُنا بمعزلٍ عن بقية اروقة المشفى، نقضي أيامنا في غُرفةٍ كبيرة بأبوابٍ موصدة لكي لا يسمع صُراخنا أحداً، كُنا حالات مُجتمعةً في مريض واحد، لكل مريضاً منا حكايةً يعيشها بمعزلٍ عن المريض الذي يرقد بجنبه.

فتُحِت الابواب فجأة فهرع الجميع الى الخارج، هَرع الكل الى الحُرية، كل من في رواق (الامراض العقلية) خرج إلا أنا، خرجوا الى حُرية وهم لا يفقهون من مفهومها شيئاً، كنتُ اخر من يخرج، تأخرت عنهم بعد أن عاد لي عقلي واتزاني، بعدما شُفيت من مرضي فجأة، تأسفتُ على صحوةٍ من بعد الجنون، ما أسعدَ أن تعيش مجنوناً في وطنٍ يحكمهُ الحمقى.

كان مرضاً وشُفيتُ منه، عرفت ذلك بعدما استدركت كل شيء من حولي، بعد أن حدثت كل من حولي ولم يجبني أحد، بقيت لساعات بعد افاقتي خائفاً، أتساءل هل أنا على قيد الحياة؟ أم لا ازال في ذلك العالم لما قبل البَعث والحساب؟

عرفتُ بأي سنة نحن وفي اي زمان، عرفتُ بأنني في (كابل)، تذكرتُ (بروين)، كيف اخذتني طيلة هذه الفترة لتجعلني استذكُر نادماً كل ما اقترفت، دام الامر بضعة أشهر، القوا بي هُنا بعدما فقدوا الأمل من شفائي، بعد أن تأكدوا بأنني بتُ مجنوناً وعليهم عزلي، عرفتُ ذلك بعدما خرجت من المستشفى ولم يتبق فيها أحد، هرع الجميع من أصوات الدبابات والطائرات الامريكية وهي تقصفُ (كابل)، شنت القوات الامريكية هجوماً للقضاء على سيطرة (طالبان)، هجوماً لم يدم سوى اربع وعشرين ساعة، تم خلالها الانسحاب الكامل لقوات (طالبان) الى مدينة (جلال آباد)، لتتمركز حركتهم ويبدأ قتالهم ضد القوات الامريكية من هناك، خرجتُ وأنا أرى عامة الناس تتبادل التهاني لخلاصهم من حُكم (طالبان) وانتهاء فترة حُكمهم المُظلمة، رأيتُ الجثث تملئ الشوارع والكلاب تنهال عليها جائعة، لم يكن مُقاومي حركة (طالبان) يمتلكوا أسلحة قدر أسلحة القوات الامريكية، كان الهجوم أكبر من أن يتم صده، سمعتُ بأن (طالبان) أقرت حُكم الإعدام بحق كل عنصرٍ من عناصرها هرب من المُقاومة، أضطر بأثر ذلك كل عناصرهم الى الصمود الواهن أمام القوات المُعادية طمعاً في جنة قد يدخلها بعد أن يُقتل برصاص الجيش الأمريكي مقابل ان يكون مصيرهُ جهنم إن حُكِم عليه بالإعدام، كانوا لا يزالوا يعتقدوا بأن مفاتيح الجنان بأيدي عناصر (طالبان)، أسمع حوارات الناس في الشارع وأنا أتجول وسطهم بملابس بيضاء رثة بدلتُها بعد أن عطف عليّ احدهم واهدى لي ثياباً غيرها.

سقط الوطن هارباً من نسرٍ يُلاحقهُ في السماء ليأكُلهُ كلباً جائعاً على الأرض، هكذا كان حال (أفغانستان) مع دخول القوات

الامريكية، فيما مضى كُنا نتصارع ولكننا كُنا مُحلقين، آن الأوان لنا أن نسقط، لم يعُد للوطن شيئاً يُبكى عليه، هذا نتاجنا من ثمارٍ كانت بذورها تارةً شيوعية وتارةً أسلامية.

نحن اليوم وسط رُكام ما كُنا نُهشم، صرحٌ عظيم يُدعى (أفغانستان) اضحى فُتات وطن بين فؤوس عقائدنا وتعصبنا وبُغض بعضنا لبعض، وكأننا مسكنا بفأسٍ تنهال على مستقبله، صار وطننا مُستعمرةً لدول الغرب، كيف لا وهو ظل مُستعمرةً بحُكم جهلنا وجشعنا، كان مُستعمرةً بنظرنا وليس وطن، فكُل جهة منا أرادت استعماره لدولة ما مُدعيةً حُبهُا له، كُنا نضمرُ اجندتنا الخارجية بين طيات نوايانا ونحنُ ننصتُ للنشيد الوطني.

أعتصرُ الخيبة وأنا اجول شوارع (كابل)، حل الخراب في كل شيء، أسمع قهقهة دول الجوار، أسمع دول الاحتلال والاستعمار تسأل بعضها بعضاً: "ماذا أعددتم لنا على المائدة اليوم" افتشُ في رُكام ما اقترفتُ وأنا كأنموذجٍ صغير لشعبٍ كبير، وكأنني شاهدُ عيان عليّ، أرى يد طفل تمتد للأعلى من وسط هذا الرُكام، تطلبُ قطعة حلوى، أيهُا الطفل الافغاني، لا حلوى في الأيام القادمة، عُد الى قبرك الذي لا يُعدُ قبراً، أبق وسط الركام فهو المكان الأكثر اماناً للأيام القادمة، أنت أوفرهُم حظاً لأنك مُيت، فمن سيلحق بك في قادم الأيام لن يموت فحسب، سيموت وجعاً، سيموت حرماناً، سيموت ميتةً بشعة، كبشاعة أوجهُ الجنود المُحتلين وهم يجوبون الشوارع كالبكتريا في اول عدوى لها، اعتادت القوات الغازية على مر التاريخ ألا تُفوت فُرص الانتهاك قُبيل موت ضحاياها، عُد يا صغيري واتركُ لنا خيبتنا، فما آلت إليه هذه الأرض كانت نتيجةً لصراعاتٍ اشترك فيها كُلاً منا بقدرٍ مُتساو، لكل منا جانب من ذنب هذا الخراب، لكل منا افعاله وأقواله وفتاواه وصمته، فمن التزم جانب الصمت مما

حدث يُعد شريكاً أيضاً، هُنالك ثمة مواقف لا يصلُح فيها الحياد لاسيما حين يمرض الوطن.

يغتالُني وميض الوقت، أبكي بِوجهٍ شاحبٍ حِمماً بُركانية من شِدة الوجع، تختبئ روحي في خنادق الألم، اهربُ فرحاً من موت لأرجع لحياةٍ أكثر غرابةً من الموت وما بعده، فَرحٌ لأنني لازلت على قيد الحياة، ولكن، أي حياة أنا على قيدها وكُل ما اراه لا يستحق الحياة، لطالما حَلمتُ بأن أكون نداً لما اقترفهُ أبي، وما برحتُ إلا لأن أكون شبيهاً له، كُنتُ كتلاطُم أمواج البحر في يومٍ شتوي، لا يكترث لها أحد، لم تكُن تُعجبني النشأة على شاكلتهُ فهربت منه، كُنتُ ابغض لحيتهُ الكَثة، أعادني القدر إليه مُنحني الرأس نادماً، لأكون شبيهه، لا بل كُنت أبشع منه، اختلفتُ كثيراً معه وأنا مُتخم، أنام على سريرٍ ذو اغطيةً حريرية، اختلفتُ معه وأنا أعيشُ تحت ظلهِ الوارف بالأموال الطائلة، ولكنني لم اختلف معهُ بعدما تشردت، بعدما صار فراشي ما التقطهُ من القُمامة.

قامت القوات الامريكية بضرباتٍ جوية أخرى في شهر كانون الأول من العام ذاته، تمكنت بعدها من مسك زمام الأمور بصورة أقوى، شيء بشع أن يأتيك المُحتل بثياب المُنقذ، أرى تصفيق أهالي (كابل) حين تمر المُقاتلات العسكرية في شوارعهم فأرى ما سيتكرر ما حصل بنا في الماضي القريب، القوات الروسية جاءت بذات الشاكلة وتلتها الحرب الاهلية ومن بعدها (حركة طالبان) الى أن انتهى المطاف بمن يتفق معهم بذات الأيديولوجيات ويختلف عنهم في استراتيجية تطبيقها وعدد الضحايا وحجم الخراب الذي سيُخلفهُ.

ارتفعت روحي كرماد ورقٍ يحترق، أقف أمام منزلنا في (كابل)، كان متشحاً بالسواد والسكون، لا أحد يسكنه ولا أحداً بقربه، خاوياً من أي شيء، احترق بالكامل، احترقت كل مُحتوياته، وقفتُ على مقربة منه أفكرُ ملياً في الدخول إليه، وقفتُ بعدما

تجولت في شوارعٍ لم يتعرف عليّ أحداً فيها، لم أتكلم مع أحد، ليس لدي أحد.

وكأن هُنالك يداً تمتدُ في صدري لتفتح نافذة الألم، يؤلُمني كل ما مر بي، ألماً ألتهم سنين حياتي ولم يتبق لي شيئاً منها، أقف امام منزلنا، أقف على مشارف الخمسين من العمُر، أتساءل، هل يقبل الرب التوبة بعد هذا العُمر؟ هل القادم أكثر مما فات؟ هل أملك مُتسعاً من العمُر يكفيني للتوبة عما اقترفت؟ عمّا احصتهُ لي (بروين)؟ عمّا قتلت وشردت؟ أتساءل وأنا على أبواب منزلنا حائراً، أدخل أم لا أدخل؟ ماذا سأجد في الداخل؟ هل سأجدهم على قيد الحياة؟ أم سأراهُم جُثثاً هامدة؟

فكرتُ في أن ادخُل وأزيل التُراب الذي غطى أخي لعلي أجدهُ حياً يُرزق، تمنيت لو بقي أبي حياً الى هذا الوقت، تمنيت لو أنني ما فَعلتُ ما فَعلت، يا ليتني لم أخُلق، يا ليتني لم أكُن، تراجعتُ خطواتٍ الى الوراء، أُتذكُر كيف قتلت أخي، تراجعتُ خطواتٍ أكثر وأنا اتذكر ما اقترفت تِباعاً، وجدتُ نفسي عند غُروب الشمس في ذلك الكوخ الذي كُنت أقطُن فيه على سفح الجبل، جمعتُ قطعتين من الخشب المُتبقي بعد أحتراقه وتوسدتُهما، نظرتُ الى السماء الصافية، تذكرت ذلك المكان الغريب الذي احتجزتني بهِ (بروين)، السهل الأخضر الواسع ذا الغيوم السريعة والرياح الهادئة، تأملت الفرق العظيم بين الموت والحياة، بين تفكيرنا ونحن نعيش أيام الحياة معاصياً وخطايا وبين الندم الوفير ما ان تنتهي هذه الحياة، نكتشف بأنها ليس ثمة حياة، هو أمتحانٌ عسير، يطول بنا الامر للاستغراب مما فعلنا، وكأننا لم نكن نحن من ارتكب هذه الافعال، استلقي وأنظرُ الى السماء، تارةً ابتسم فرحاً لأنني لازلتُ على قيد الحياة وتارةً اعضُ على نواجذي اسفاً.

ها أنا أملك تذكرة جديدة لحياةٍ جديدة، نزلتُ من قطار الموت بتذكرة تُقلّني لحياة جديدة، فرصةً جديدةً تُمنحُ لي لأقدم

فرائض التُوبة، لأكّفرُ عما اقترفت، املكُ تذكرةً لحياةٍ فحواها ذات الامتحان الذي كُنت ولا زلت أخاف منه، هي وبلا شك لن تخلو من الاختبار، لها ذات المُعطيات وذات التفاصيل التي تُشارك عقل الانسان من اختيار الشاكلة التي سيكون عليها، ليختار ما سيقترف من ذنوب وما سينال من حسنات، افكر كيف للخالق أن يُحاسبنا ذات الحساب ونحن نُبعَث كُلاً منا على شاكلته، لكلٍ منا عمره الذي يُعد مدةُ امتحانه وتوبته، الكثير منا يدعو لمن يُحب بأن يطول عمره، في الوقت الذي أرى فيه أن الحساب العسير يتناسب (طردياً) مع العُمر الطويل.

لكلٍ منا ظرفاً عاش وفقه وبحسب ماهيته، لن نُبعث ولن نُحاسب سوياً على أفعالنا البتة، لو عاش أبناً لفلاحٍ وقضى حياتهِ في حرث أرض بُستان أبيه وتزوج من ابنة عمه في البُستان المُجاور لبُستانهم ورُزق منها اطفالاً وعلمهم بأن يعيشوا ويقتاتوا على أرض ابيهم كما تعلم هو من ابيه حتى احفاده ونال من العُمر ما يكفي ليعجز عن العمل ويبقى طريح الفراش ويقضى نحبهِ على فِراش الشيخوخة في بُستان أبيه ويُدفنُ بقُرب أبيه في مقبرة عائلتهم، هل سيُبعث برفقة من سكن في المدينة وكان عِرضةً للنزوات والشهوات وعلى مقربةً من كُل ما حُرِم من قبل الدين والمُجتمع؟ هل سيبعثُ معهم المُسلم الذي قضى حياتهِ في بلاد الغرب التي اعتادت على اطلاق العنان للحُريات الشخصية مهما كانت منبوذةً من قبل البشر؟ هل سيُتم حِساب هؤلاء على الخطايا المُرتكبة بذات الذنوب؟ هل سيتم منحهم حسناتٍ كلاً على سواء؟ هل سيُثاب الفلاح الذي لم ير في حياته إلا محارمه ولم يشرب الخمر لأنهُ لم يجده بذات الثُواب مع المُتدين المُلتزم بما حَرمَ دينه ولم يشرب الخمر طيلة حياته التي عاشها في بلادٍ يعوض أهلها الماء بالخمور؟ هل سيكون حِساب من عاش ثلاثين من العُمر كمن عاش ستين؟ كمن عاش مئة؟ الامر شتّان بينهم، اين فُرصة التُوبة لمن عاش عشرون او ثلاثون؟ كيف

ستُقاس الفترة التي نكُف فيها عن ارتكاب الممنوع لأننا مللنا منه، بعد زوال طيشُ الشباب، لنبتهل الاتزان، هل ستُحسب (توبة) لأنهُ نال من العُمر ما يكفي لتنتهي كُل رغباته ونزواته؟ بكُل تأكيد سيتم الاخذ بمُعطيات حياة كُل منا، لأن لنا رب عادل، ربُنا الذي نراهُ في قاع إيماننا وليس في وجوه رجال الدين، الرب ليس كما تذكرهُ الأديان التي نراها اليوم، الرب اكبر بكثير من وصفهم، ذلك الذي يكتفي بخشوع القلب ليتوب عن عبده وليس مُقابل الأموال كما رجال الدين، الرب ليس لهُ بيت، الرب في قلب كُل منا، مهما قل شأنه أو علا، الرب يكترث بالنوايا الحسنة وليس بزخارف بيوت عبادته والمقابض الذهبية لأبوابها.

مُنهمكٌ أنا بين زوايا الاسى، انتهى بي الامر هُنا، هُنا سيكون مرفئ وداعي الأخير، قررتُ أن أكون في عُزلةٍ عمّا حولي، سأدعهُم ينعتونني بالمجنون، سأكون الابكم لو أنصت لي أحد، سأكون الأصم لو تحدث معي احد، أنا هامشاً على ارض الواقع لما تبقى لي من سنين.

استلقي على ارض الخراب، افكر فيما قالهُ ابي وقت وفاته، انظرُ الى ما حولي من بقعةٍ سوداء أثر احتراق الكوخ، ابعد بنظري أكثر فأجد بقعة الخراب تلتهم الوطن بأكمله، لا شيء يبعثُ الامل لقادم الأيام، سوى حفنةً من الحُرية منحها لنا الامريكان بقدومهم، ترك النقاب وشرب السجائر و(القنب) و(الخشخاش)، لا شيء سوى الخراب، وجدتُ نفسي عند الصباح أجمع بقايا الخشب الجيد وأعيد بناء الكوخ من جديد.

بالأمس حَلمِتُ (بمريم)، استيقظتُ فِرحاً ظناً مني بأنها ستعود، تعرفُ هي مكان الكوخ جيداً، التقينا هُنا في السابق، لعلها تشتاقُ لي وتأتي، لعلها تعلم بأنني ما عدتُ ذلك السيء الذي تقاعس عن التضحية لأجلها قبل عشرات السنين، لعلها لم تسمع (بآخوند)، لعلها تعلم بأنني لازلتُ على قيد الحياة، لعلها تكون على قيد الحياة هي ايضاً.

انقضت أيام .. كنتُ اقتاتُ فيها على ما يثمُر بهِ البُستان الصغير الذي يُحيط بي، أياماً لم أر فيها بشر، الكُل مُنشغلاً في العاصمة، الكُل يتسارع على تقديم الطاعة والولاء للقوات الامريكية لينال قسطاً من الحُكم، ليكون مرؤوساً ويضيء نجمه، الكُل يبحث عن بقايا (طالبان) ليشي بهم للقوات الامريكية مقابل المال، القوات الامريكية ادهى من أن تقضي عليهم بالكامل، تركت لهم جزءً من (أفغانستان) ليتجمعوا فيه ويبدأ قتالهم، أو جهادهم على حد تعبيرهُم، القوات المُحتلة اجتاحت (كابل) خلال (24) ساعة ولم تجتاح مقرات تجمهُر (طالبان) لأنها غير قادرةً على ذلك، أمراً لا يُصدق، من لهُ باعاً طويل في السياسة يعرف بأن القوات الامريكية لو قضت على (طالبان) بأكملها فستكون هي المسؤول الأول عمّا سيحدثُ في الساحة (الأفغانية) في المرحلة القادمة، لن يكون هُناك (عدو) ليُعلقوا اخطاؤهم عليه، المُحتل ادهى من أن يُفجر ويقتل بيده قبل أن يرتدي قُفازاتٍ تحمل ايديولوجيات دينية.

لم تأتِ، مرت ثلاثُ أعوام على انتظاري لها ولم تأتِ، زرعتُ لها الزهور من حول الكوخ، اعددتُ لها الحاناً جديدة على الة العود، كان بأنتظارها انساناً جديداً، انساناً مُستعداً لأن يمتلُكها لربيع حياته القادم، من حياتهِ التي لم تعرف إلا مواسم الشتاء والخريف، لم تعدُ الدموع تروى عطش لقائها، تصحرت كُل ذكرياتُنا الخضراء، طال انتظارها، تجاوزتُ الخمسين من العُمر ولم تأتِ.

لم أعُد أقرأ، لم أعد اكترث لما تحملهُ الأديان، ثلاث سنوات وأنا على قيد التغاضي بالجهل بوجه كُل المعارف، ادعي الجهل فأنام قرير العقل، لم أعُد افكرُ في كُتب التُراث الإسلامي، لا بل لم أعد امتلكُ أياً منها.

ما أن انتهيت من بناء الكوخ شرعتُ بصنع آلات العود، أضحت مهنةً تمنحُني لُقمة العيش بعد هذا العُمر، كُلما أنتهي من

صناعة احداها اذهب الى الأسواق لأبيعها واشتري بثمنها طعاماً يكفيني لأعيش اياماً اكثر، أياماً أنتظر بها (مريم)، أصنع آلةً أخرى فأبيعها فأعيش ايام اكثر، انتظر بها (مريم) أيضاً، بعتُ ذات مرة آلة جميلة بثمنٍ اكبر من المُعتاد فتمنكتُ من ان اشتري مذياع صغير، باتت هذه الصنعةُ ملاذاً آمناً لي كي لا يعرفني أحد، أنا على بُعد الكثير من الكيلومترات عن (كابل) وعلى بُعد المئات منها عن (هُراة)، مضى الكثير ولم يعرفني أحد.

اطفئ شمعة أوقدها كُل يومٍ مع غُروب الشمس، اعزفُ قليلاً قبل أن اذهب الى فراش اليأس، انام مُبكراً لأستيقظُ مُبكراً، أستعد لأنتظار (مريم)، مرت الأيام وصرتُ لا أقوى على مسك آلة العود، صرتُ اكتفي بالإنصات الى المذياع وتتبع اخبار الوطن، انا هامشاً على هذه الأرض، لم يعد يهُمني شيء، أنتظر الموت فحسب، لعلي التقي (ببروين) كما التقيت بهُا في السابق، استغفرُ تائباً وأعدُ الأيام التي تفصلني عن ذلك العالم لِما قبل الموت، يا تُرى هل سيكون كما ظننته؟

استلقيتُ على فراشي وأنا انصتُ لمذياعي الصغير، اضعهُ على الدوام قُرب وسادتي، انتهى برنامجاً كنتُ انصتُ إليه لاستقراء الآراء والاخبار السياسية، غَلبَ عليّ النُعاس وأنا اطفئ المذياع، تركته واغمضتُ عيني، وأنا بين الصحو والمنام، أصدرت الإذاعة التي كُنت انصتُ لها صوتاً لقارئ للقُرآن، أنصت له وأنا مُغمضُ العينين، سمعتهُ يقول الآية: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}[131] فَتحتُ اجفاني مذعوراً، أتساءل بهلع: لمَ (يَحملون) العرش؟ هل هُناك جاذبية في السماء؟ هل قانون جاذبية الأرض يسري على السماء ليضطر من هُناك لحمل الأشياء؟ أم حمل العرش تعبيراً مجازي لا يُقصد بهِ الاشارة الى (عرش)؟

[131] القرآن/ سورة الحآقة/17

أطفأتُ المذياع وتذكرتُ اخر كلماتٍ قالها لي أبي: "للجهل عِدة نِعم".

الخاتمة

اقسى الآلام، هي تلك المكنونة في شخصٍ اعتاد على بناء الجدران من حوله دون توقف، ليكون في واقعٍ من صُنِعَ الوهم، مُعترفاً بحقيقةٍ لا وجود لها، يكون حيثما يتواجد العدم، يصرخ فيما الكُل نيام، اقسى الآلام، في ذلك الذي يرسُم احلامه على الورق، يحلم أكثر فيُعلق لوحات رسوماتهِ على الجدار ثُم يعمل جاهداً لتحقيقها، ليكتشف في نهاية المطاف بأنهُ لم يكن يحلم، يكتشفُ بأن لا وجود لرسوماته ولا وجود لأي جدار، يجد نفسهُ غير نفسه، الآلامُ قاسية لمن ينصتُ للهلوسة، لمن يتمعن النظر في المجهول، الآلام قاسية لمن يركضُ فرحاً ليُعانق السراب.

(الفصام) أو (السكيزوفرينيا schizopherinia) كلمة يونانية تعني: انقسام أو انفصال العقل، وهو اضطراب عقلي شديد ومزمن يؤثر على سلوك و تفكير المصاب و ادراكه ويصاحبه في العادة ظهور أعراض ذهانية مثل سماع الأصوات أو التوهم ويُعد هذا المرض من الأمراض العقلية المنتشرة نسبياً، في عام 2002 تم تغيير اسم مرض (الفصام) في اليابان من Seishin Bunretsu Byō 精神分裂病- والتي تعني (مرض العقل المنقسم) إلى Tōgō-shitchō-shō 統合失調症 والتي تعني (اضطراب التكامل) للحد من الوصمة السلبية للإصابة بالمرض[132] وبعد ثلاث سنوات ارتفعت حصيلة المرضى الذين أعلِموا بالتشخيص

[132] Impact of the term schizophrenia on the culture of ideograph: the Japanese experience. Schizophr Bull. Page 5.

من 37٪ إلى 70٪ من عدد العام السُكان[133]، قامت دولة كوريا الجنوبية بإجراء مُماثل عام 2012[134]

في عام 2014 حددت منظمة الصحة العالمية يوم العاشر من شهر تشرين الأول من كُل عام يوماً عالمياً لمرضى (الفصام)، بعدما أشارت تقارير هذه المنظمة والاتحاد العالمي للصحة النفسية بأن عدد المصابين بهذا المرض يصل الى (45) مليون إنسان فى بلدان العالم، كما تصل نسبة الإصابة إلى 1% من سكان أي مجتمع، ويُمثل مرضى (الفصام) أكثر من 90% من نزلاء المصحات والمستشفيات العقلية، وأن 90 % من مرضى (الفصام) غير المُعالج مُتواجد في البلدان النامية.

[133] Sato M .Renaming schizophrenia: a Japanese perspective. World Psychiatry - Page 55-53.

[134] Lee YS, Kim JJ, Kwon JS (Aug 2013). "Renaming schizophrenia in South Korea" - Page 684 – 683.

E-KUTUB
Publisher of publishers
Amazon & Google Books Partner
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office: In der Gass 10,
55758 Niederwörresbach,
Rhineland-Pfalz
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132